هاروكي موراكامي

يوميات طائر الزنبرك

الكتاب الأول

رواية

ترجمة: محمد عبدالعاطي عبدالخير

منشورات الجدار

هاروكي موراكامي

يوميات طائر الزنبرك The Wind-up Bird Chronicle

ترجمة: محمد عبد العاطي عبد الخير

فبراير 2019

شكر خاص،،،

دعاء خليفة

يس الملك

محي الدين هارون

وصال عز الدين

بشرى فيصل

’المترجم‘

هاروكي موراكامي

يوميات طائر الزنبرك

رواية

الكتاب الأول: طائر العُقْعُق السارق

يونيو ويوليو 1984

ترجمة: محمد عبد العاطي عبد الخير

1

طائر زنبرك يوم الثلاثاء

*

ستة أصابع وأربعة نهود

كنت في المطبخ عندما رن الهاتف، أغلي قِدراً من السباغيتي وأُصفّر مع الراديو استهلالية مقطوعة *العُقْعُق السارق*[1]لروسيني[2]، التي لا بد أنها الموسيقى المثالية لطهي السباغيتي.

أردت تجاهل الهاتف، ليس لأن السباغيتي قد شارف على الاستواء فحسب، بل لأن كلاوديو أبادو كان على وشك إيصال أوركسترا لندن إلى ذروة لحن تصاعدي. بيد أنني أذعنت في النهاية، فربما يكون شخصاً يحمل إليّ أخباراً عن فرصة عمل جديدة. لذلك خفضت الشعلة، وتوجهت إلى صالة الجلوس، ورفعت السماعة.

«عشر دقائق من فضلك». جاءني صوت امرأة من الطرف الآخر.

«أستميحُكِ عذراً. مع مَن تودين الحديث؟»

«معك *أنت* بالطبع. عشر دقائق، رجاءً، هي كل ما نحتاج إليه لنفهم بعضنا البعض!» كان صوتها منخفضاً وناعماً، ولا يميزه أي شيء.

---

[1] The Theiving Magpie

[2]جواكينو روسيني: موسيقار إيطالي (المترجم)

«لنفهم بعضنا البعض؟»

«مشاعر كلينا».

انحنيت وألقيت نظرة سريعة على المطبخ عبر الباب. فرأيت بخاراً جميلاً يتصاعد من قِدر السباغيتي، وما يزال كلاوديو أبادو مع *العُقْعُق السارق*.

«معذرة، إنني أطهو السباغيتي الآن، أيمكنكِ معاودة الاتصال لاحقاً؟»

«سباغيتي**!**؟ لماذا تطهو السباغيتي عند العاشرة والنصف صباحاً؟»

«هذا ليس من شأنك، *أنا* أقرر ما أتناوله ومواعيد تناوله».

«إنك محق. سوف أعاود الاتصال بك» قالت وقد صار صوتها مسطحاً لا يعبر عن أي شيء. من شأن تغيير بسيط في المزاج أن يفعل الأعاجيب بنبرة الصوت.

قلت قبل أن تغلق الخط: «مهلاً لحظة. إن كانت هذه حيلة لتبيعيني شيئاً، فانسِ الأمر. أنا عاطل عن العمل، ولا أرغب في شراء أي شيء».

«لا تقلق، أعرف».

«تعرفين؟ تعرفين ماذا؟»

«أنك عاطل عن العمل. أعرف هذا. لذا عُد إلى طهي السباغيتي الأثير لديك».

«من أنتِ بحق الجـ..»

أنهتْ الاتصال.

حدقت إلى سماعة الهاتف في يدي، دون أن أجد متنفساً لانفعالي، إلى أن تذكرت السباغيتي. فعدت إلى المطبخ وأطفأت النار وسكبت محتويات القدر في مصفاة. بفضل تلك المكالمة، نضج السباغيتي أكثر مما ينبغي، لكنه لم يفسد تماماً. شرعت في الأكل، ورحت أفكر.

لنفهم بعضنا البعض؟ نفهم مشاعر بعضنا خلال عشر دقائق؟ ما الذي كانت تتحدث بشأنه؟ ربما كان مقلباً فحسب، أو حيلةً جديدةً لبيع شيءٍ ما. على أي حال، الأمر لا يعنيني. بعد الغداء، عدت إلى الأريكة بصالة الجلوس واستأنفت قراءة رواية كنت قد جلبتها من المكتبة، وأنا أسترق النظر إلى الهاتف بين فينةٍ وأخرى. ما الذي يُفترض أن نفهمه عن بعضنا خلال عشر دقائق؟ ما الذي يمكن لشخصين أن يفهماه عن بعضهما خلال عشر دقائق؟ عندما أفكر بالأمر، بدت واثقة تماماً في تحديدها للعشر دقائق، فهو أول ما تفوهت به. كما لو أن تسع دقائق ستكون قصيرة، أو أن أحد عشر دقيقة ستكون أطول من اللازم. تماماً مثل درجة استواء السباغيتي المثالية.

لم أستطع مواصلة القراءة، فقررت أن أكوي القمصان بدلاً من ذلك. كدأبي عندما أكون منزعجاً. إنها عادة قديمة. أقسّم العملية إلى اثني عشرة مرحلة، ابتداءً بالياقة (الجزء الخارجي)، وانتهاءً بكُفّة الكم الأيسر. الترتيب هو نفسه دائماً، وأعدّ كل مرحلة، وإلا لما سارت العملية سيراً صحيحاً.

كويت ثلاثة قمصان، وتأكدت من خلوّها من أي تجاعيد، وعلقتها في مكانها. ثم شعرت بصفاء ذهني ملحوظ حالما أطفأت المكواة ووضعتها مع لوح الكيّ في خزانة الصالة.

رن الهاتف ثانية وأنا في طريقي إلى المطبخ، لأتناول كأساً من الماء. ترددت لحظة، لكنني قررت أن أجيبه. إن وجدت أنها تلك المرأة، فسأخبرهابأنني أكوي وأغلق الخط.

لكن اتضح أنها كوميكو، وكانت عقارب ساعة الحائط تشير إلى الحادية عشرة والنصف. سألتني: «كيف حالك؟»

قلت: «بخير». شاعراً بالارتياح لسماع صوت زوجتي.

«ما الذي تفعله؟»

«فرغت من الكي للتو».

«ما الخطب؟» كان صوتها يشوبه شيء من التوتر، فهي تعلم كل شيء عن عادة الكي لديّ.

«لا شيء، كنت أكوي بعض القمصان فحسب. ما الأخبار؟»

جلستُ ونقلت سماعة الهاتف من يدي اليسرى إلى اليمنى.

«أيمكنكَ كتابة الشعر؟»

«الشعر!؟» الشعر؟ هل تعني... الشعر؟

«أعرف ناشر مجلة قصصية للفتيات. إنهم يبحثون عن شخص ليعمل على اختيار وتنقيح القصائد التي ترسلها القارئات. ويريدون شخصاً ليكتب قصيدة استهلالية قصيرة كل شهر. الأجر ليس سيئاً بالنسبة لعمل سهل كهذا. إنه عمل بدوام جزئي بالطبع، لكنهم قد يضيفوا بعض أعمال التحرير إن كان الشخص...»

«عمل سهل؟» قاطعتها. «تمهلي لحظة. أنا أبحث عن عمل في مجال القانون، وليس الشعر».

«ظننت أنك كنت تكتب أيام المدرسة الثانوية».

«أجل، بالطبع. كنت أكتب لصحيفة المدرسة. أي فريق فاز ببطولة كرة القدم، أو كيفية سقوط أستاذ الفيزياء على الدرج ونقله إثر ذلك إلى المستشفى. وأشياء من هذا القبيل، ليس من بينها الشعر. ولا يمكنني كتابة الشعر».

«بالطبع، لكنني لا أتحدث عن الشعر الرفيع، مجرد قصائد لفتيات المدارس الثانوية. ليس بالضرورة أن يجد ما تكتبه مكاناً في تاريخ الأدب. شعرٌ يمكنك كتابته بعينين مغمضتين، أرأيت؟».

«اسمعي، لا أستطيع كتابة الشعر، سواء كانت عيناي مغمضتين أو مفتوحتين. لم أكتب الشعر من قبل قط، ولن أبدأ الآن».

قالت بشيء من الاستياء: «حسناً، لكن يصعب إيجاد عمل في مجال القانون».

«أعرف، لذلك ضاعفت جهودي في البحث. وأتوقع أن أتلقى خبراً خلال هذا الأسبوع. وإن لم ينجح الأمر، فسوف أفكر بشيء آخر».

«حسناً، أنت وشأنك إذاً. بالمناسبة، ما هو اليوم؟»

قلت بعد لحظة من التفكير: «الثلاثاء».

«إذاً هلّا ذهبت إلى المصرف لتسديد فواتير الغاز والهاتف؟»

«بالطبع. كنت على وشك الخروج لشراء حاجيات العشاء على أي حال».

«ما الذي سنتناوله على العشاء؟»

«لا أعرف بعد، سأقرر عندما أذهب للتسوق».

صمتت هنيهة ثم قالت بنبرة مختلفة: «كنت أفكر، ليس ثمة داعٍ للعجلة بشأن إيجاد عمل».

«ماذا؟» قلت مصعوقاً.

هل اختارت جميع نساء العالم هذا اليوم لمفاجأتي عبر الهاتف؟

أجبتها: «سوف تُقطع عني معونة العطالة عاجلاً أو آجلاً. ولا يمكنني التسكع هنا وهناك للأبد».

«صحيح، لكن مع زيادة راتبي والأعمال الجانبية من حين لآخر، ومدخراتنا، يمكننا تدبر أمرنا إن كنا حريصين. لا توجد حاجة ماسّة. هل تكره المكوث بالمنزل هكذا والقيام بالأعمال المنزلية؟ أعني هل تستفظع هذه الحياة؟»

«لا أدري».

أجبت بصدق، لم أكن أدري حقاً.

«حسناً، خذ وقتكَ وفكر بالأمر قليلاً. على أي حال، هل عاد القط؟»

القط. لم يخطر ببالي طوال الصباح.

«لا، ليس بعد».

«أيمكنك إلقاء نظرة في أرجاء الحي؟ لقد مر أسبوع على اختفائه».

غمغمت قائلاً شيئاً ما، وأعدت سماعة الهاتف إلى يدي اليسرى.

أردفَتْ: «أنا شبه متأكدة أنه يتسكع حول ذلك المنزل المهجور في نهاية الزقاق. ذلك الذي يوجد به تمثال حجري لطائر في باحته.لقد رأيته هناك عدة مرات».

«الزقاق؟ منذ متى تذهبين إلى الزقاق؟ لم يسبق أن قلتِ...»

«أوه! علي أن أنهي المكالمة. أمامي عمل كثير. لا تنس القط».

أنهت المكالمة. فوجدت نفسي أحدق إلى السماعة مجدداً، ثم وضعتها في مكانها.

تساءلت عما قد يدفع كوميكو للذهاب إلى الزقاق. فللوصول إليه من المنزل، عليك أن تتسلق جداراً خرسانياً، وما إن تتكبد العناء الذي يتطلبه ذلك، ستكتشف أنه لا جدوى من الوجود هناك.

ذهبت إلى المطبخ من أجل كأس من الماء. ثم خرجت إلى الشرفة لأتفقد وعاء طعام القط، فوجدت قطع السردين التي وضعتها الليلة الماضية لم تُمس. لا، لم يعد القط. ظللت واقفاً في مكاني أتطلع إلى حديقتنا الصغيرة المستلقية تحت شمس بداية الصيف. لم تكن من نوع الحدائق التي يغمرك النظر إليها بالسكينة الروحية. تجد الشمس طريقها إليها خلال فترة وجيزة من كل يوم، لذلك دائماً ما تكون تربتها سوداء ورطبة. وكان كل ما لدينا من نباتات الحدائق بضع شجيرات هورتنسيا عادية في أحد الأركان، ولا أحب الهورتنسيا. وهناك صف من الأشجار على مقربة منا، ونسمع منه صوت ميكانيكي لطائر أشبه بصوت زنبرك يتم لفّه، أسميناه طائر الزنبرك. أطلقت كوميكو عليه هذا الاسم. لا نعرف اسمه الحقيقي أو شكله، لكن هذا لم يزعج الطائر. يأتي إلى صف الأشجار في حيّنا كل يوم ويشرع في لف زنبرك عالمنا الهادئ الصغير.

الآن علي أن أخرج في رحلة لصيد القطط. لطالما أحببت القطط، وأحببت هذا القط تحديداً. لكن القطط تعيش بطريقتها الخاصة، إنها ليست غبية. إذا هجر قط المكان الذي تعيشَ فيه، فإن ذلك يعني أنه قرر أن يذهب إلى مكان آخر. وإذا شعر بالتعب والجوع، فسيعود. لكن في النهاية، حتى تظل كوميكو سعيدة، علي أن أخرج للبحث عن قطنا. فليس ثمة ما هو أفضل لفعله.

*

تركت عملي مطلع أبريل، وهو عمل في مجال المحاماة كنت أزاوله منذ تخرجي. لم أقدم استقالتي لأي سبب معين، ولم أكن أكره العمل، كما لم يكن مشوِّقاً أيضا. لكن الأجر لا بأس به، وكان جو المكتب ودياً.

كان دوري في المكتب هو- بصراحة واختصار- ساعي مكتب محترف، وكنت بارعاً فيه. ويمكنني القول إنني أتمتع بموهبة حقيقية في تنفيذ المهام العملية، فأنا أستجيب بسرعة، وأتحلى بالكفاءة، ولا أتذمر مطلقاً، وواقعي. ولهذا عندما أبديت رغبتي في الاستقالة، عرض عليّ الشريك الأكبر (الأب في شركة محاماة مملوكة لأب وابنه) زيادة صغيرة في الراتب.

لكنني استقلت رغماً عن ذلك. ليس وكأن الاستقالة قد تساعدني على تحقيق آمال أو تطلعات بعينها. آخر ما أردت فعله، على سبيل المثال، هو الانزواء في المنزل والدراسة استعداداً لامتحان المحاماة. كنت متأكداً، أكثر من أي وقت مضى، من أنني لا أرغب في أن أصبح محامياً. كما كنت أعلم أنني لا أريد ألاستمرارفي عملي. إذا كنت سأستقيل، فقد كان ذلك هو الوقت المناسب. وإن بقيت في الشركة فترة أطول، فسأظل أعمل بها بقية حياتي. وأنا بلغت الثلاثين من عمري.

كنت قد أخبرت كوميكو على طاولة العشاء بأنني أفكر بترك عملي. كل ما قالته هو «فهمت». لم أعرف ما عنَته بذلك. لكنها لم تقل شيئاً بعض الوقت.

لذت بالصمت أيضاً، حتى أردفَتْ: «إذا أردت أن تستقيل، فعليك أن تستقيل. إنها حياتك، وينبغي لك أن تعيشها كما يحلو لك». بعدما قالت هذا القدر، تشاغلت بالتقاط عظام السمك، مستخدمة عوديّ الطعام، وإزاحتها إلى حافة طبقها.

تتقاضى كوميكو راتباً محترماً من عملها محررة في مجلة تهتم بالطعام الصحي. وأحياناً تحصل على أعمال تتضمن رسوماً توضيحية من أصدقاء محررين في مجلات أخرى، ومنها تحصل على دخل إضافي كبير (درست التصميم في الجامعة وكانت تأمل أن تصبح مصممة رسوم توضيحية). إضافة إلى ذلك، إذا استقلت فسيكون لديّ دخلى الخاص لمدة من تأمين العطالة، مما يعني أنه حتى إذا بقيت بالمنزل واضطلعت بالأعمال المنزلية، فسوف يكون لدينا ما يكفي لتناول الطعام بالخارج ودفع فواتير الغسيل، وبالكاد سيتغير أسلوب حياتنا. وعليه تركت عملي.

*

بدأ الهاتف يرن بإلحاح عندما كنت أفرغ حاجيات البقالة في الثلاجة. كنت قد فتحت عبوة توفو بلاستيكية للتو ووضعتها بحذر على طاولة المطبخ حتى لا يتدفق الماء. سرت إلى صالة الجلوس ورفعت السماعة.

قالت المرأة: «لا بد أنك فرغت من السباغيتي».

«صحيح. لكن الآن علي الخروج للبحث عن القط».

«يمكنك تأجيل البحث عشر دقائق، أنا متأكدة. إنه ليس كطهي السباغيتي».

لسببٍ ما، لم استطع أن أغلق الخط في وجهها. ثمة شيء في صوتها استحوذ على انتباهي.

«حسناً، لكن ليس أكثر من عشر دقائق».

«الآن سنتمكن من فهم بعضنا».

كانت تتحدث بنبرة ثقة. واستشعرتُ أنها جالسة على مقعد وثير باسترخاء واضعةً ساقاً على الأخرى.

قلت: «أتساءل عما يمكنك فهمه خلال عشر دقائق».

«العشر دقائق قد تكون أطول مما تعتقد».

«هل أنت متأكدة من أنك تعرفينني؟»

«بالطبع، فقد التقينا مئات المرات».

«أين؟ متى؟»

«في مكان ما، وزمان ما. إذا خضت في هذا، فلن تكفي عشر دقائق. وما يهم هو الزمن الذي نحن فيه الآن، الحاضر. ألا تتفق معي؟»

«ربما. لكنني أريد دليلاً على أنكِ تعرفينني».

«مثل ماذا؟»

«ماذا عن عمري؟»

«ثلاثون». أجابت على الفور.»ثلاثون عاماً وشهران. أيكفيك هذا؟»

ألقمتني حجراً. من الواضح أنها تعرفني، لكنني لا أتذكر صوتها إطلاقاً.

قالت بصوت مثير: «حان دورك الآن. حاول أن تتخيلني بناءً على صوتي. شكلي، عمري، مكاني، ما أرتديه. هيا حاول».

«ليست لدي فكرة».

«آه، هيا. حاول».

ألقيت نظرة على ساعتي. لم تمضِ أكثر من دقيقة وخمس ثوان.

قلت مجدداً: «ليست لدي فكرة».

«إذاً دعني أساعدك. إنني في الفراش، خرجت من الحمام للتو، ولا أرتدي شيئاً».

آه، عظيم. جنس عبر الهاتف.

تابعتْ: «أم إنكَ تفضل أن أرتدي شيئاً؟ شيء بأربطة، أو جوارب. هل تحب مثل هذه الأشياء؟»

قلت: «لا أكترث البتة. افعلي ما يحلو لك. آسف، إنني غير مهتم بمثل هذه الألاعيب عبر الهاتف. وأمامي الكثير من الأشياء التي عليّ أن...»

«عشر دقائق. عشر دقائق لن تقتلك، ولن تنقص الكثير من حياتك. أجب عن سؤالي فحسب. أتريد مني أن أرتدي شيئاً أم أظل عارية؟ لدي جميع أنواع الملابس. ملابس داخلية سوداء بأربطة، و...»

«لا بأس بالعُريّ».

«حسناً، جيد. تريدني عارية».

«أجل، عارية. جيد».

أربع دقائق.

قالت: «ما يزال شعر عانتي رطباً، ولم أجفف نفسي جيداً. آه، إنني مبتلة للغاية، وناعمة. المسني».

«اسمعي. أنا آسف، لكن...»

«وذلك الموضع بالأسفل دافئ للغاية. وساقاي، ما الوضعية التي عليها ساقاي برأيك؟ ركبتي اليمنى للأعلى، وساقي اليسرى منفرجة قليلاً. فلنقل، أشبه بعقارب الساعة وهي تشير إلى العاشرة وخمس دقائق».

أمكنني الجزم من صوتها أنها لم تكن تتظاهر بذلك. كانت بالفعل ترسم بساقيها الساعة العاشرة وخمس دقائق.

«المس شفتيّ، بتمهُّل. والآن افتحهما، نعم هكذا. ببطء، ببطء. وداعبهما بأصابعك. آه، على مهلك.. والآن، المس نهدي الأيسر بيدك الأخرى. داعبه، للأعلى. واعتصر الحلمة قليلاً. افعل ذلك مجدداً، ومجدداً، حتى أوشك على...»

وضعت السماعة دون كلمة. ثم حدقت إليها وأنا أتمدد على الأريكة، وأطلقت تنهيدة عميقة.

تحدثت معها قرابة ست دقائق.

رن الهاتف مجدداً بعد عشر دقائق، لكنني لم أجبه. رن خمسة عشرة مرة، ثم خيم صمت بارد وعميق على الصالة.

قبيل الساعة الثانية بقليل، تسلقت الجدار الخرساني إلى الزقاق، أو ما نسميه بالزقاق. فهو ليس زقاقاً بمعنى الكلمة. وعلى الأرجح لا توجد كلمة تصفه وصفاً دقيقاً. لم يكن شارعاً، أو ممراً، أو حتى طريقاً. إن شئنا الدقة، ينبغي أن يكون الطريق ممراً يربط بين مدخل ومخرج، ويقودك إلى مكان ما إذا تبعته. لكن زقاقنا لم يكن لديه مدخل أو مخرج. كما لا يمكنك أن تسميه طريق مسدود أيضاً، فالطريق المسدود لديه مدخل على الأقل. والزقاق لم يكن مسدوداً من جانب واحد فحسب، بل من الجانبين. ويسميه سكان الحي بالزقاق لأنه اسم ملائم فحسب. وهو بطول قرابة مئتي ياردة، ويمتد بين الحدائق الخلفية للمنازل المصطفة على جانبيه، وبعرض أكثر من ثلاثة أقدام بقليل، وهناك أماكن لا يمكنك المرور عبرها إلا جانبياً بسبب الأسوار المتعرجة والأشياء التي يتركها الناس.

القصة التي سمعتها من خالي -الذي يؤجر لنا المنزل بثمن زهيد- هي أن الزقاق كان مفتوحاً من الجانبين، ويشكل طريقاً مختصراً من الشارع إلى الشارع المقابل. لكن في سنوات الازدهار في الخمسينيات، كانت المنازل تُبنى في كل مساحة متوفرة، وتقلصت المساحات بين المنازل إلى ممر ضيق. ولم يكن السكان يرغبون في مرور الغرباء قريباً من منازلهم وباحاتهم، لذلك قفلوا أحد الجانبين جزئياً، ثم قرر أحد السكان تمديد باحته وأغلقه نهائياً بجدار خرساني. وأقيم سياج بسلك شائك

على الجانب الآخر، مانعاً حتى الكلاب من المرور. لم يتذمر أي أحد من الجيران، لأن أياً منهم لم يكن يستخدم الزقاق طريقاً. وكانوا سعداء باعتبار إغلاقه وسيلة إضافية للوقاية من الجريمة. ونتيجة لذلك، ظل الزقاق كقناة مهجورة، دون استخدام، يمثل منطقة عازلة بين صفي المنازل. ونسجت فيه العناكب شباكها الدبقة.

لماذا تتردد كوميكو على مكان كهذا؟ أنا عن نفسي لم تطأ قدماي ذلك الزقاق من قبل سوى مرتين، أما كوميكو، فهي تخشى العناكب في معظم الأحوال. فليكن، إذا قالت كوميكو أنه ينبغي لي الذهاب إلى الزقاق لأبحث عن القط، فسأذهب إلى الزقاق لأبحث عن القط. ما سيحدث لاحقاً عليّ أن أفكر به لاحقاً. وخروجي هكذا أفضل بكثير من الجلوس في المنزل في انتظار الهاتف ليرن.

تنساب أشعة شمس بداية الصيف من خلال أغصان الأشجار، وتنثر على الأرض بقعاً من الظلال، ومع عدم وجود رياح تحرك الأغصان، بدت البقع كأنها ستظل ثابتة على الأرض للأبد. ويلف المكان سكون عميق. أكاد أسمع تنفس العشب تحت ضوء الشمس. وفي السماء تسبح بضع سحب، أشكالها واضحة ودقيقة، مثل السحب في نقوش العصور الوسطى. كنت أرى كل شيء بوضوح تام لدرجة أنني شعرت بجسدي غريباً ولا حدود له، كأنني أطفو... وكنت أشعر بالحر!

كنت أرتدي تيشيرت وسروالاً قطنياً خفيفاً، وأنتعل حذاء تنس. لكن المشي تحت شمس الصيف جعلني أشعر بقطرات العرق تتجمع تحت ذراعي وفي تجويف صدري. كان التشيرت والسروال مركونان في صندوق مكدس بالملابس الصيفية حتى أخرجتهما في ذلك الصباح، لذا كانت رائحة النفتالين الحادة تخترق منخريّ.

يمكن وضع المنازل المصطفة على جانبي الزقاق ضمن فئتين: القديمة منها، وتلك التي شُيدت حديثاً. وعموماً، الحديثة أصغر حجماً، بباحات أصغر أيضاً. كما كانت حبال الغسيل الممتدة منها تعترض طريقي، الأمر الذي حتّم عليّ أن أشق طريقي خلال المناشف والملابس الداخلية. وكانت تصلني أصوات تلفاز من خلف بعض الجدران، بالإضافة إلى أصوات المراحيض، ورائحة الكاري من المطابخ.

أما المنازل القديمة، على نقيض المنازل الحديثة، تكاد لا تشعر بأي حياة فيها. وتحجبها شجيرات منظمة بعناية، لمحت من خلالها حدائق مشذبة بإتقان، وأخرى صارت مكاناً للتخلص من جميع الألعاب المعروفة لدى الإنسان، تبدو كمخلفات طفولة عدة أشخاص. هناك دراجات ثلاثية العجلات، وحلقات، وسيوف بلاستيكية، ودمى سلاحف، ومضارب بيسبول صغيرة. إحدى الحدائق كانت بها حلقة كرة سلة، وأخرى بها مرجة تتوسطها مقاعد جميلة تحيط بمنضدة خزفية. كانت المقاعد البيضاء ملطخة بالطين كما لو أنها لم تستخدم منذ بضعة أشهر أو حتى سنوات. وكان سطح المنضدة مغطى ببتلات زهور خزامى منغوليا، وقد تركت الأمطار عليها آثارها.

كما رأيت إحدى صالات الجلوس من خلال باب ألمونيوم من النوع الذي يستخدم أثناء العواصف، بها أريكة وكراسي متماشية الألوان، وتلفاز عملاق، ونضد (عليه حوض أسماك إستوائية وجائزتين من نوع ما)، ومصباح زينة. بدت الغرفة كموقع تصوير مسلسل تلفزيوني. ويشغل بيت كلب كبير مساحة كبيرة من حديقة أخرى، لكن لم يكن هناك أثر للكلب نفسه، وكان بابه ناتئاً كما لو أن أحدهم كان يتكئ عليه شهوراً في وقت ما.

يقع المنزل المهجور الذي أخبرتني كوميكو عنه خلف البيت الذي به بيت الكلب الكبير. ولم أكن بحاجة إلى أكثر من نظرة واحدة لأدرك أن المنزل خالي، وأنه ظل خالياً منذ مدة. كان منزلاً من طابقين، حديث نسبياً، مع إن مصاريعه الخشبية بدت قديمة للغاية، ويعلو الصدأ قضبان نوافذ الطابق العلوي. وبالمنزل حديقة صغيرة أنيقة، ينتصب وسطها تمثال حجري لطائر بارتفاع الصدر تحيط به أعشاب كثيفة. تكاد سيقان عشبة عصا الذهب تلامس قدمي الطائر- لم أتمكن من معرفة نوعه- الذي يفرد جناحيه كما لو أنه يريد التحليق بعيداً عن ذلك المكان الكئيب بأسرع ما يمكن. وباستثناء التمثال، لم تكن بالحديقة أي معالم زينة. وتوجد عدة كراسي بلاستيكية بالقرب من المنزل، بجانبها شجيرات أزاليا وقد تفتحت أزهارها الحمراء الزاهية، وتبدو ألوانها غير واقعية على نحو غريب. وتسود الأعشاب بقية الحديقة.

إتكأت على السياج المعدني بعض الوقت، ورحت أتأمل الحديقة، التي لا بد أنها جنة للقطط، لكن ما من أثر للقط هنا. تقف حمامة وهي تهدل على هوائي التلفاز فوق السطح. ويسقط ظل الطائر الحجري على الأعشاب المتشابكة المحيطة به، وعلى جزء منها تسقط أشعة الشمس فتقطعها أوراقها الطويلة إلى شذرات مختلفة الأشكال.

أخذت قطعة من حلوى الليمون من جيبي، ونزعت غلافها وألقيتها في فمي. انتهزت استقالتي من الشركة فرصةً للإقلاع عن التدخين، والآن لا تنفد مني حلوى الليمون. قالت كوميكو إنني صرت مدمناً عليها وحذرتني من أنها قد تتسبب في تسوّس أسناني، لكن عليّ أن أتناولها. أثناء وقوفي هناك، ناظراً إلى الحديقة، ظلت الحمامة تواصل هديلها المنتظم على هوائي التلفاز، مثل موظف يضع ختم أرقام على حزمة من الفواتير. لا أعرف المدة التي ظللت خلالها واقفاً في مكاني، متكئاً على السياج. لكنني أذكر أنني بصقت حلوى الليمون على الأرض عندما ملأت فمي بحلاوتها الدبقة. حولت نظراتي من ظل تمثال الطائر عندما استشعرت أن أحدهم يناديني من الخلف.

التفتّ فرأيت فتاة تقف في حديقة على الجانب الآخر من الزقاق. كانت صغيرة وتعقد شعرها على شكل ذيل الحصان، وتضع نظارة شمسية داكنة بإطار كهرماني، وترتدي تيشيرت بلون أزرق فاتح بلا أكمام، ولديها سُمرة ناعمة على ذراعيها الرشيقين، وتضع إحدى يديها في جيب سروالها القصير، والأخرى على بوابة بإرتفاع الخصر مصنوعة من البامبو. ولا تفصل بيننا سوى ثلاثة أو أربعة أقدام.

قالت: «الجو حار».

أجبت: «أجل، صحيح».

بعد هذا التبادل الوجيز لوجهات النظر، ظلت واقفة في مكانها تحدق إلي.

ثم أخرجتْ علبة سجائر ماركة هوب من جيب سروالها، وجذبت سيجارة، ووضعتها بين شفتيها. كان فمها صغيراً، وشفتها مرفوعة للأعلى قليلاً. قدحت عود

ثقاب وأشعلت سيجارتها. عندما أمالت رأسها جانباً، انزاح شعرها ليكشف عن أذن جميلة الشكل، ناعمة كما لو أنها خُلقت للتو، وتتوهج حوافها بهدب ناعم. ألقت بعود الثقاب بعيداً وجذبت الدخان من بين شفتين مزمومتين. ثم نظرت إليّ كأنها نسيت وجودي. لم يكن بمقدوري رؤية عينيها من خلال عدستي نظارتها الشمسية الداكنتين العاكستين.

سألتني: «هل تسكن بالجوار؟»

«نعم».

أردت أن أشير ناحية منزلنا، بيد أنني لم أكن متأكداً من الإتجاه الصحيح، نظراً لكثرة التعرجات التي تقودإلى مكاننا. لذا أشرت إلى ناحيةٍ ما عشوائياً.

أوضحت لها وأنا أمسح راحة يدي المتعرقة بسروالي: «أبحث عن قطي، لقد اختفى منذ أسبوع. وقد رآه أحدهم في مكان ما هنا».

«أي نوع من القطط؟»

«ذكر كبير، بخطوط بنية والتواء خفيف في طرف ذيله».

«الاسم؟»

«نوبورو، نوبورو واتايا».

«لا، ليس اسمك *أنت*. اسم القط».

«هذا هو اسم القط».

«آه، عظيم!»

«حسناً، في الواقع إنه اسم شقيق زوجتي. يذكرنا القط به بطريقة ما. فأطلقنا عليه الاسم من باب المرح فحسب».

«كيف يذكركما القط به؟»

«لا أدري، ما من سبب محدد. مشيته، ونظراته الخاوية».

ابتسمتْ لأول مرة، وقد جعلتها ابتسامتها تبدو أصغر مما بدت عليه في البداية. لا يمكن أن يكون عمرها أكبر من خمسة عشرة أو ستة عشرة عاماً. وتنحني شفتها العليا بزاوية غريبة. خُيِّل لي أنني أسمع صوتاً يقول لي«المسني»، صوت امرأة الهاتف. فمسحت العرق عن جبهتي بظاهر يدي.

قالت: «قط بخطوط بنية وذيل ملتوٍ. امممم، هل لديه طوق أو ما شابه؟»

«طوق أسود».

ظلت واقفة تفكر عشرة أو خمسة عشرة ثانية، مستندة بيدها إلى البوابة. ثم ألقت بعقب سيجارتها وسحقته بنعلها.

«ربما رأيت قطاً بهذا الوصف، لست متأكدة من الذيل الملتوي، لكنه كان كبيراً، وأعتقد أنه كان لديه طوق».

«متى رأيتِه؟»

«متى رأيته؟ امممم، قبل أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام. باحتنا أشبه بطريق سريع لقطط الحي. وجميعها تعبر من هنا قادمة من باحة آل تاكيتاني في طريقها إلى باحة مياواكي».

أشارت ناحية المنزل المهجور، حيث ما يزال الطائر الحجري ناشراً جناحيه، وأعشاب عصا الذهب التي تتنعّم بشمس الصيف، والحمامة تواصل هديلها على هوائي التلفاز.

قالت: «لدي فكرة، لم لا تنتظر هنا؟ جميع القطط لا بد أن تمر من هنا في طريقها إلى باحة مياواكي. وحتماً سيتصل أحدهم بالشرطة إذا رآك تتسكع هنا هكذا، لن تكون المرة الأولى».

ترددتُ.

أردفتْ: «لا تقلق. لا يوجد أحد غيري، يمكننا أن نجلس في الشمس في انتظار ظهور القط. وسأساعدك، فأنا حادة البصر».

نظرت إلى ساعتي. كانت تشير إلى الثانية وست وعشرين دقيقة. كل ما كان علي فعله في ذلك اليوم هو جلب الملابس من المغسلة وإعداد العشاء.

دخلت عبر البوابة في أعقاب الفتاة، التي كانت تجر ساقها اليسرى قليلاً. تقدمَتْ بضع خطوات، ثم توقفت وواجهتني.

قالت دون اكتراث: «كنت أركب خلف أحدهم على دراجة نارية، وطِحت بعيداً».

تنتصب شجرة بلوط عند نهاية عشب الباحة، وتحتها كرسيان طويلان من القماش وسط العشب. وعلى ظهر أحدهما منشفة زرقاء. وعلى الآخر علبة سجائر هوب، ومنفضة سجائر، وقدّاحة، ومجلة، ومشغل موسيقى ضخم. سمعت أغنية روك بصوت منخفض. أوقفتْ الفتاة الموسيقى وأزاحت جميع الأشياء مُلقيةً بها على العشب لتفسح لي مكاناً. من مكاني في الكرسي، كنت أرى باحة المنزل المهجور، وأعشاب عصا الذهب، والسياج المعدني. على الأرجح كانت الفتاة تراقبني طوال الوقت.

كانت باحة هذا المنزل كبيرة للغاية، وبها مرجة منحدرة تتناثر عليها أوراق الأشجار. وإلى يسار الكرسيين، توجد بركة خرسانية، تعرّض قاعها الجاف للشمس. وبالنظر إلى لونها الضارب للخضرة، لا بد أنها ظلت جافة منذ مدة طويلة، جلسنا ونحن نولي ظهرينا للمنزل الذي كان مرئياً من خلال صف من الأشجار.

لم يكن المنزل كبيراً أو مترفاً في بنائه. الباحة وحدها هي التي تعطي الانطباع بعناية أصحابها بها.

قلت وأنا أنظر فيما حولي: «يا لها من باحة كبيرة. لا بد أن العناية بها تتطلب مجهوداً كبيراً».

«لا بد».

«كنت أعمل لدى شركة لجز العشب في صغري».

«أوه؟».

من الواضح أنها لم تكن مهتمة بالعشب.

سألتها: «هل أنت هنا وحدك دائماً؟»

«نعم، دائماً. عدا عن خادمة تأتي في الصباح والمساء، أكون وحدي خلال اليوم. أتريد مشروباً بارداً؟ لدينا جعة».

«لا، شكراً».

«حقاً؟ لا تكن خجولاً»

هززت رأسي.

«ألا تذهبين إلى المدرسة؟»

«ألا تذهب إلى العمل؟»

«ليس لدي عمل لأذهب إليه».

«فقدتَ عملك؟»

«نوعاً ما. استقلت قبل بضعة أسابيع».

«أي نوع من العمل؟»

«كنت ساعي محامين. أتنقل بين المكاتب الحكومية المختلفة، وأرتب الوثائق، وأتفقد السوابق القانونية، وأتولى إجراءات المحكمة. وأشياء على هذه الشاكلة».

«لكنكَ استقلت».

«أجل».

«هل تعمل زوجتك؟»

«نعم، تعمل».

لا بد أن الحمامة كفّت عن الهديل وطارت إلى مكان ما. وفجأة أدركت أن صمتاً عميقاً يخيم على المكان من حوالي.

قالت وهي تشير ناحية الجانب البعيد من المرجة: «تدخل القطط من هناك. أترى المحرقة التي في باحة مياواكي؟ تأتي من تحت السياج هناك، وتسير عبر العشب، ثم تنزلق تحت البوابة إلى الباحة المقابلة. إنها تتبع المسار نفسه دائماً».

رفعت نظارتها على جبهتها، وضيّقت عينيها وهي تنظر إلى الباحة، ثم أنزلت النظارة، وهي تنفث سحابة من الدخان. في تلك اللحظة، رأيت جُرحاً بطول بوصتين بالقرب من عينها اليسرى، من نوع الجروح التي ستخلف ندبة لبقية حياتها على الأرجح. وأعتقدت أنها ترتدي النظارة الداكنة لإخفائه. لم يكن وجه الفتاة جميلاً على نحو خاص، لكن ثمة شيء جذاب يكتنفه، ربما العينان البراقتان أو شكل شفتيها غير المعتاد.

سألتني: «هل سمعت بشأن آل مياواكي؟»

قلت: «لم أسمع شيئاً».

«إنهم من كانوا يقطنون المنزل المهجور. أسرة محترمة للغاية، لديهم ابنتان، كلتاهما في مدرسة خاصة. وكان السيد مياواكي يمتلك بضعة مطاعم تديرها العائلة».

«لماذا غادروا؟»

«اختفوا ذات ليلة، كأنهم هربوا.ربما كان غارقاً في الديون. كان ذلك منذ قرابة عام، على ما أعتقد. تركوا المكان ليتعفن وتتكاثر فيه القطط، التي دائماً ما تتذمر أمي بشأنها».

«هل توجد الكثير من القطط هناك؟»

رَنَت الفتاة ببصرها إلى السماء، والسيجارة بين شفتيها «جميع أنواع القطط. بعضها فقد فراءه، وبعضها بعين واحدة.. وقد نَمَت كتلة من اللحم حيث كانت عينها. يا للقرف!»

أومأتُ.

أردفتْ: «إحدي قريباتي لديها ستة أصابع في كل يد، تكبرني قليلاً. لديها إصبع إضافي إلى جانب خنصرها، مثل أصابع الرُضَّع، وتعرف كيف تبقيه مطوياً حتى لا يلاحظه معظم الناس. إنها جميلة للغاية».

أومأتُ مجدداً.

«أتعتقد أن هذا الأمر يكون في العائلة، ماذا يسمى... أهو وراثي؟»

«لا أعرف الكثير عن الوراثة».

توقفتُ عن الحديث ورحت أمص حلوى الليمون، وركزت بصري على ممر القطط. ولم تظهر أي قطة حتى تلك اللحظة.

سألتني: «هل أنت متأكد أنك لا تريد شيئاً تشربه؟ سأحضر لنفسي كولا».

قلت إنني لا أريد شراباً.

نهضت الفتاة عن كرسيها، واختفت بين الأشجار وهي تجر ساقها. في تلك الأثناء، التقطتُ إحدى المجلات الملقاة على العشب ورحت أتصفحها. وخلافاً لما توقعته، وجدتها مجلة رجالية شهرية. في الصفحة الوسطى منها، ثمة امرأة جالسة في وضعية شاذة وهي تباعد بين ساقيها، حيث يمكنك رؤية كل شيء. فوضعتُ المجلة حيث وجدتها، وعقدت ذراعيّ أمام صدري، وأعدت تركيزي على ممر القطط مجدداً.

*

انقضى وقت طويل قبل أن تعود الفتاة، وهي تحمل كأساً من الكولا. بدأ الحر تأثيره علي. وأنا أجلس تحت الشمس، شعرت بضباب في دماغي. وآخر ما أردت فعله هو التفكير.

قالت مواصِلةً ما انقطع من حديثها: «أخبرني، إذا أحببتَ فتاة ما، واتضح لك أن لديها ستة أصابع ماذا كنت لتفعل؟»

«كنت لأبيعها للسيرك».

«حقاً؟»

«لا، بالطبع لا. أنا أمزح. لا أعتقد أن ذلك سيزعجني».

«حتى لو كان هناك احتمال أن تورثه لأطفالك؟»

فكرت بذلك للحظة. «لا، لا أعتقد أن ذلك سيزعجني حقاً. ما الضرر الذي يمكن أن يسببه إصبع إضافي؟»

«ماذا لو لديها أربعة نهود؟»

فكرت بذلك أيضاً. «لا أعرف»

أربعة نهود؟ مثل هذه الأشياء قد تستمر للأبد. قررت تغيير الموضوع.

سألتُها: «كم تبلغين من العمر؟»

«ستة عشر عاماً. كان عيد ميلادي قبل مدة قصيرة.وفي السنة الأولى بالمدرسة الثانوية».

«منذ متى لا تذهبين إلى المدرسة؟»

«تؤلمني ساقي إذا مشيت كثيراً. كما لديَّ ندبة بالقرب من عيني. ومدرستي متشددة جداً، وسأقع في متاعب إذا علموا أنني آذيت نفسي بالسقوط عن دراجة

نارية. لذلك أنا متغيبة بداعي المرض. يمكنني أن آخذ السنة كلها إجازة، لست في أي عجلة للانتقال للصف التالي».

«لا، لا أظن ذلك».

«على أي حال، ما كنتَ تقوله آنفاً، إنك لا تمانع الزواج بفتاة بستة أصابع لكن ليست بأربعة نهود...»

«لم أقل هذا. قلت لا أعرف».

«لمَ لا تعرف؟»

«لا أدري، يصعب عليَّ تصور شيء كهذا».

«أيمكنكَ تصور أحدهم بستة أصابع؟»

«بالطبع، على ما أعتقد».

«إذاً لماذا لا تستطيعَ تصور أربعة نهود؟ ما الفرق؟»

تريثت مرة أخرى لأفكر بالأمر مجدداً، لكنني لم أحر جواباً.

«هل أطرحُ كثيراً من الأسئلة؟»

«هل يخبركِ الناس بهذا؟»

«نعم، أحياناً».

التفتُ ناحية ممر القطط مجدداً. وقلت لنفسي، *ما الذي أفعله هنا بحق الجحيم. لم تظهر قطة واحدة طيلة هذا الوقت*. أغمضت عينيّ قرابة ثلاثين ثانية،ويداي ما تزالان معقودتان أمام صدري. شعرت بالعرق يتجمع على أجزاء مختلفة من جسدي. وبدأت أشعر بثقل غريب لأشعة الشمس، وهي تسقط عليَّ. وكلما حركت الفتاة كأسها، أصدر الثلج بداخله رنيناً أشبه برنين جرس.

همستْ لي:«يمكنك أن تنام إذا شئت. سأوقظك عندما يظهر القط».

أومأت بصمت مغمضاً عيني.

الهواء ساكن. وما من صوت من أي نوع. مرت مدة منذ اختفاء الحمامة. ورحت أفكر بامرأة الهاتف. هل أعرفها حقاً؟ لم يكن صوتها مألوفاً إطلاقاً أو طريقة كلامها. لكنها تعرفني قطعاً. من الوارد أنني كنت أنظر إلى لوحة لدي شيريكو: يقطع ظل المرأة الطويل شارعاً خالياً ويتقدم نحوي. لكن هي نفسها في مكان بعيد عن حدود وعيي. ويستمر جرس في الرنين قريباً من أذني.

سألتني الفتاة بصوت منخفض لدرجة أنني لم أكن متأكداً من أنني أسمعه: «هل أنتَ نائم؟»

«لا، لست نائماً».
«أيمكنني الاقتراب؟ يسهل عليَّ الحديث بصوت منخفض».
قلت وعيناي ماتزالان مغمضتين: «لا بأس».

سحبت الفتاة كرسيها إلى جانب كرسيّ، وسمعت صوت الإطارات الخشبية وهي تلتصق ببعضها بصوت جاف. من الغريب أن صوت الفتاة وعيناي مغمضتين يبدو مختلفاً تماماً عن صوتها وهما مفتوحتين.

«أيمكنني الحديث؟ سأكون هادئة، ليس عليك أن تجيب، ويمكنك أن تنام. لا أمانع».

قلت: «حسناً».

«أجد موت الناس أمراً فاتناً وأنيقاً».

كانت تتحدث قريباً من أذني، لذلك انسابت كلماتها إلى داخلي مع أنفاسها الرطبة الدافئة.

«كيف ذلك؟»

وضعت إصبعها على شفتي، وقالت: «الأسئلة ممنوعة، ولا تفتح عينيك. حسناً؟»

كانت إيماءتي واهنة كصوتها.

رفعتْ إصبعها عن شفتيّ ووضعته على معصمي.

«كنت أفكر كيف سيكون الأمر لو أنني تمكنت من شقّه بمبضع. لا أعني جثة، بل جسد الموت نفسه. لا بد أنه موجود في مكان ما، أعرف ذلك فحسب. واهن ومرن ككرة لينة، كتلة متشابكة من الأعصاب المشلولة. أود أن أخرجه من الجسد الميت وأفتحه. دائماً ما أفكر به، وأتخيل ما بداخله. سيكون على الأرجح دبقاً كمعجون أسنان جف داخل الأنبوب، ألا تعتقد ذلك؟ لا، لا تُجِب. طري من الخارج وكلما تعمقت للداخل يغدو أكثر صلابة. أريد أن أشق الجلد وأزيل الجزء الخارجي الطري، حتى أصل إلى الجزء المركزي الصغير الذي سيكون أشبه بالكرات الفولاذية المستخدمة في العجلات، صلب للغاية. لا بد أن يكون شيئاً كهذا. ألا تعتقد هذا؟».

تنحنحتْ بضع مرات، وتابعتْ:

«هذا كل ما أفكر به هذه الأيام. لا بد من ذلك لأن لديَّ الكثير من أوقات الفراغ. عندما لا يكون لديك ما تفعله، تسرح بأفكارك بعيداً جداً لدرجة أنك لا تستطيع أن تتابعها حتى النهاية».

أبعدت إصبعها عن معصمي وتجرعت بقية الكولا. وعلمت أن الكأس فارغ من صوت الثلج بداخله.

«لا تقلق بشأن القط. سأترقب ظهور نوبورو واتايا. ابقِ عينيك مغمضتين. أنا متأكدة أن نوبورو واتايا يتجول في مكان ما بالقرب من هنا. سيكون هنا في أي لحظة. إنه آت. أعلم أنه قادم خلال الأعشاب، تحت السياج، يتوقف ليتشمم الزهور في طريقه، يقترب نوبورو واتايا شيئاً فشيئاً. تصوَّره بهذه الطريقة. ضع صورته في ذهنك».

حاولت تخيُّل صورة القط، لكن كل ما كان بمستطاعي هو تجميع صورة ضبابية مهتزة. الشمس تلسع جفنيّ وتشوّه معالم الصورة المتكونة لدي. وفوق ذلك، كنت مهما حاولت جاهداً، لا أستطيع تذكر ملامحه، يمكنني تذكر القسمات الشاذة فقط، لكن الملامح الرئيسة ضائعة. حتى مشيته لا أستطيع تذكرها.

وضعت الفتاة إصبعها على معصمي مجدداً، وحركته كأنها ترسم شكلاً، شكل غريب غير واضح المعالم. شعرت وكأن ظلاماً غريباً يتغلغل في تلافيف وعيي. على الأرجح كنت على وشك النوم. لم أكن أريد أن أنام، لكن لم أستطع أن أقاوم. شعرت أن جسدي أصبح كجثة، جثة شخص آخر، تغوص في قماش الكرسي.

في تلك العتمة، رأيت سيقان نوبورو واتايا الأربعة، أربعة أقدام بنية صامتة فوق أربعة مخالب، سيقان تطأ الأرض بلا صوت في مكان ما.

لكن أين؟

«*عشر دقائق هي كل ما يتطلبه الأمر*»، قالت المرأة عبر الهاتف. لا، لا بد أنها مخطئة. أحياناً عشر دقائق لا تكون عشر دقائق. من الممكن أن تتمدد وتتقلص. هذا أمر أعرفه يقيناً.

*

وجدتني وحيداً عندما استيقظت.اختفت الفتاة من كرسي القماش، الذي مايزال ملاصقاً لكرسيَّ. كانت المنشفة والسجائر والمجلة في أماكنها. ولم أرَ الكأس ومشغل الموسيقى.

بدأت الشمس تغوص ناحية الغرب، وقد زحف ظل شجرة البلوط إلى ركبتيّ. ورأيت ساعتي تشير إلى الرابعة والربع. اعتدلت في جلستي ونظرت فيما حولي. مرجة واسعة، بركة جافة، سياج، طائر حجري، عُشبة عصا الذهب، هوائي تلفاز. وما من أثر للقط، أو للفتاة.

ألقيت نظرة على ممر القطط وانتظرت عودة الفتاة. انقضت عشرون دقيقة، ولم يظهر القط، ولا الفتاة. ظل كل شيء ساكناً. شعرت كما لو أنني بلغت أرذل العمر أثناء نومي.

انتصبت واقفاً وألقيت نظرة ناحية المنزل. ما من علامة على وجود بشري. عكست النافذة وهج الشمس من ناحية الغرب. تخليت عن الانتظار وعبرت المرجة إلى الزقاق، عائداً إلى المنزل. لم أعثر على القط، لكنني بذلت كل ما بوسعي.

*

وفي المنزل، أدخلت الغسيل، وأنهيت التحضيرات اللازمة لعشاء بسيط. رن الهاتف اثني عشرة مرة عند الخامسة والنصف. لكنني لم أجبه. حتى بعد توقف الرنين، ظل صوت الجرس عالقاً في فضاء الصالة كغبار يسبح في الهواء.

خطرت لي فكرة. لماذا لا أكتب قصيدة عن طائر الزنبرك، لكن لم يخطر لي البيت الأول منها. كيف يُعقل أن تستمتع فتيات المدارس الثانوية بقصيدة عن طائر زنبرك.

*

عادت كوميكو إلى المنزل عند السابعة والنصف. كانت تتأخر أكثر وأكثر خلال الشهر الماضي. لم يكن مستغرباً منها أن تعود بعد الثامنة، وأحياناً حتى بعد العاشرة. والآن بما أنني في المنزل أعد العشاء، لم تعد تتعجل في العودة. على أي حال، كانوا يعانون نقصاً في عدد الموظفين، مع غياب أحد زملائها بداعي المرض.

قالت: «آسفة، العمل لا نهاية له، والفتاة التي تعمل بدوام جزئي لا فائدة منها».

مضيت إلى المطبخ وأعددت سمكاً مقلياً في الزبدة، وسلطة،وحساء ميسو. وجلست كوميكو إلى طاولة المطبخ باسترخاء.

«ألم تكن بالمنزل عند الخامسة والنصف؟ حاولت الاتصال لأقول إنني سأتأخر».

كذبتُ قائلاً: «نفدت الزبدة وذهبت للمتجر».

«هل ذهبتَ إلى المصرف؟»

«بالطبع».

«والقط؟»

«لم أعثر عليه. ذهبت إلى المنزل المهجور، كما قلتِ، لكن لم يكن ثمة أثر له هناك، أراهن أنه ابتعد أكثر من ذلك».

لم تقل شيئاً.

عندما خرجتُ من الحمام بعد العشاء، وجدت كوميكو جالسة في صالة الجلوس والمصابيح مطفأة، منكفئة على نفسها في العتمة بقميصها الرمادي، وبدت كحقيبة مهملة تُركت في المكان الخاطئ.

جلست على الأريكة المقابلة لكوميكو وأنا أجفف شعري.

قالت بصوت تمكنت من سماعه بالكاد: «أنا متأكدة أن القط نفق».

«لا تكوني سخيفة، لا بد أنه يقضي وقتاً جميلاً في مكان ما. وسوف يشعر بالجوع، ويعود قريباً. حدث الأمر نفسه مرة من قبل، أتذكرين؟ عندما كنا نعيش في كوينجي...»

«الأمر مختلف هذه المرة. أعرف ذلك. القط نافق.ويتعفن في أجمة في مكان ما. هل بحثت بين العشب في المنزل المهجور؟»

«لا، لم أبحث. قد يكون المنزل خالياً ، لكنه منزل أحدهم. ولا يمكنني أن أقتحمه ببساطة».

«أين بحثت عن القط إذاً؟ أراهن أنك لم تحاول حتى. لهذا لم تجده».

تنهدتُ ومسحت شعري بالمنشفة مجدداً. ثم هممت بقول شيء، لكنني أمسكت عندما أدركت أن كوميكو تبكي. أتفهّم شعورها. لقد أحبّت كوميكو ذلك القط، وكان معنا منذ بعد زواجنا بمدة قصيرة. ألقيت منشفتي في سلة الحمام، وتوجهت إلى المطبخ لأجلب جعة باردة. يا له من يوم سخيف. يوم سخيف، في شهر سخيف، في عام سخيف.

أين أنت يا نوبورو واتايا؟ هل نسي طائر الزنبرك أن يلف الزنبرك الخاص بك؟

خطرت لي الكلمات كأبيات من الشعر:

نوبورو واتايا

أين أنت؟

هل نسي طائر الزنبرك

أن يلف الزنبرك الخاص بك؟

عندما شربت نصف علبة الجعة، بدأ الهاتف يرن. فصِحت في ظلام صالة الجلوس: «هلا أجبتِ الهاتف؟»

«لن أجيب، أجبه أنت».

«لا أريد أن أجيبه».

ظل الهاتف يرن، ويبعثر رنينه ذرات الغبار الطافية في الظلام. ولا أحد منا يتفوه بكلمة. عشرون رنة قبل أن أفقد العدد وأدعه يرن فحسب، ليس ثمة جدوى من العد للأبد.

2

قمر مكتمل وكسوف

*

عن الخيول التي تنفق في الإسطبلات

*

هل من الممكن، في نهاية المطاف، أن يفهم إنسانٌ إنساناً آخر فهماً كاملاً؟

يمكننا أن ننفق الكثير من الوقت والجهد في جهود حثيثة لمعرفة شخص آخر، لكن في النهاية، ماهو مدى اقترابنا من جوهر ذلك الشخص؟ نُقْنع أنفسنا بأننا نعرف الشخص الآخر معرفة جيدة، لكن هل حقاً نعرف عنه أي شيء مهم؟

بدأت أفكر بجدية بشأن أشياء كهذه بعد أسبوع من استقالتي من عملي بشركة المحاماة. حتى ذلك الوقت – بل في حياتي بأكملها – لم يحدث أن صارعت أسئلة كهذه. ولمَ لا؟ على الأرجح لأنني كنت مشغولاً بالعيش فحسب. ببساطة، كنت أكثر انشغالاً من أن أفكر في نفسي.

جعلني أمر تافه أبدأ بالتفكير، مثلما أن معظم الأشياء المهمة في العالم تبدأ بدايات صغيرة. ذات صباح، بعدما تناولت كوميكو إفطارها وغادرت للعمل، ألقيت

الملابس المتسخة في الغسالة، وسوّيت الفراش، وغسلت الأطباق، ونظفت. ثم جلست في الصالة والقط إلى جانبي أتفقد إعلانات العمل والمبيعات. وعند الظهر، تناولت الغداء وذهبت إلى مركز التسوق. اشتريت طعاماً للعشاء، ومنظف، ومناديل، وورق حمام. ثم عدت إلى المنزل،وقمت بالتحضيرات اللازمة للعشاء، واستلقيت على الأريكة ومعي كتاب، في انتظار عودة كوميكو.

بما أنني عاطل عن العمل حديثاً، وجدت الحياة الجديدة هذه منعشة. لم أعد مضطراً للتنقل من وإلى العمل في قطارات الأنفاق المزدحمة، أو للقاء أشخاص لا أريد لقاءهم. والأفضل من كل شيء، صار بمقدوري قراءة أي كتاب أريد قراءته، متى ما شئت. لم تكن لديّ فكرة إلى متى سوف يستمر إيقاع الحياة الهادئ هذا، لكن في مرحلة ما، على الأقل بعد أسبوع، كنت مستمتعاً به، وحاولت جاهداً ألا أفكر بالمستقبل. كانت من أعظم الإجازات في حياتي، ولا بد أن تنتهي في وقت ما، لكن حتى ذلك الحين، كنت عازماً على الاستمتاع بها.

إلا أنني في ذلك المساء تحديداً، لم أستطع أن أنغمس في متعة القراءة، لأن كوميكو تأخرت في العودة إلى المنزل، ولم تكن تتأخر إلى ما بعد السادسة والنصف. وإذا رأت أنها سوف تتأخر، ولو عشر دقائق، فإنها تخبرني دائماً. هذا ما كانت عليه، دقيقة في كل ما تفعله. لكن ذلك اليوم كان استثناءً. حلت السابعة ولم تعد إلى المنزل بعد، ولم تتصل. كان اللحم والخضار جاهزان وينتظران حتى أشرع في الطهي بمجرد دخولها. ليس وكأنني كنت أعد لمأدبة عظيمة، إنما كنت سأقلي بعض

الشرائح الرقيقة من اللحم، والبصل، وفلفل أخضر، وفاصوليا مع قليل من الملح أو الفلفل، وصلصة الصويا، وقليل من الجعة. إنها وصفة من أيام عزوبيتي. كان الأرز جاهزاً، وحساء ميسو دافئ، وجميع الخضروات مقطعة وموضوعة في أكوام منفصلة في طبق كبير، مستعدة للمقلاة. ولا ينقصنا سوى كوميكو. كنت من الجوع بحيث فكرت في طهي حصتي والأكل وحدي، لكنني لم أكن مستعداً للقيام بهذه الخطوة. لم يبدُ ذلك أمراً صحيحاً.

جلست إلى طاولة المطبخ، أرتشف جعة وأمضغ بعض البسكويت الذي وجدته في مؤخرة الخزانة. شاهدت عقرب الساعة الصغير يزحف ببطء متجاوزاً موضع السابعة والنصف.

لم تعد إلا بعد التاسعة. وبدت مرهقة وعينيها محتقنتين. وهذه علامة سيئة، دائماً ما يكون شيئاً قد حدث عندما تكون عيناها حمراوين.

قلت لنفسي، حسناً، ابق هادئاً، اجعل الأمر بسيطاً وطبيعياً. لا تنفعل.

قالت كوميكو: «آسفة للغاية. لدي عمل لم يسر كما ينبغي. وفكرت بالاتصال بك لكن لم تتاح لي الفرصة».

قلت محاولاً أن أبدو طبيعياً قدر الإمكان: «لا عليك، لا بأس. لا تدعي الأمر يزعجك».

وفي واقع الأمر، لم أكن مستاءً. فقد مررت بنفس التجربة عدة مرات. يمكن للخروج إلى العمل أن يكون صعباً، وليس أمراً هادئاً وجميلاً مثل قطف أجمل وردة في حديقتك من أجل جدتك المريضة، على بعد شارعين،وقضاء اليوم معها. أحياناً تضطر لفعل أشياء بغيضة لأناس بغيضين، ولا تتاح لك فرصة الاتصال بالمنزل. كل ما يتطلبه الأمر هو ثلاثين ثانية لتقول «سأتأخر في العودة الليلة». وتوجد هواتف في كل مكان، لكنك لا تستطيع الاتصال فحسب.

بدأت الطهي. أشعلت النار، وصببت الزيت على المقلاة. أخذت كوميكو جعة من الثلاجة، وكأساً من الخزانة، وأجرت تفتيشاً سريعاً على الطعام الذي أريد إعداده، وجلست إلى طاولة المطبخ دون كلمة. ومن النظرة التي علَتْ وجهها، علمت أنها لم تكن تستمتع بالجعة.

قالت: «كان ينبغي أن تأكل بدوني».

«لا عليك، لم أكن جائعاً جداً».

ذهبت كوميكو لتغتسل.وأنا أقلي اللحم والخضروات، كان يمكنني سماعها وهي تغسل وجهها وتنظف أسنانها.وبعد برهة، خرجت من الحمام، وهي تحمل شيئاً.كان ورق الحمام والمناديل اللذان ابتعتهما من مركز التسوق.

سألتني بصوت مرهق وضجر: «لماذا أشتريت هذه الأشياء؟»

نظرت إليها وأنا أمسك بالمقلاة، ثم نظرت إلى صندوق المناديل ولفافة ورق الحمام. لم تكن لدي فكرة عما كانت تحاول قوله.

«ما الذي تعنينه؟ إنها مجرد مناديل وورق حمام. ونحن بحاجة إلى هذه الأشياء. لم تنفد منا تماماً، لكن هذه لن تتعفن إذا ظلت هنا بعض الوقت».

«لا، بالطبع. لكن لماذا اشتريت مناديل زرقاء وورق حمام عليه نقش زهور؟»

قلت متمالكاً نفسي: «لا أفهم. هذه الأشياء كانت معروضة للبيع. ولن تُحوِّل المناديل الزرقاء أنفك للون أزرق. ما المشكلة؟»

«إنها مشكلة. أمقت المناديل الزرقاء وورق الحمام الذي عليه نقش زهور. ألم تكن تعرف هذا؟»

«لا، لم أكن أعرف. لماذا تمقتينها؟»

«كيف لي أن أعرف؟ أمقتها فحسب، أنت تكره أغطية الهاتف، والترموس المزين بزهور، وسراويل الجينز الواسعة من الأسفل والمزودة بإبزيمات، واعتنائي بأظافري. حتى أنت لا تستطيع معرفة سبب ذلك. إنها مسالة ذوق فحسب».

في الواقع كان بإمكاني أن أوضح أسباب كراهيتي لكل تلك الأشياء، لكنني لم أفعل بالطبع. قلت: «حسناً، إنها مسألة ذوق. لكن أتقولين لي أنه خلال سنوات زواجنا الست، لم يحدث ولو مرة أن اشتريتِ مناديل زرقاء أو ورق حمام عليه نقش زهور؟»

«إطلاقاً ، ولا مرة».

«حقاً؟»

«نعم، حقاً. المناديل التي اشتريها إما أن تكون صفراء أو وردية. ولم يحدث قط أن اشتريت ورق حمام عليه نقوش. يصدمني أنك عشت معي كل هذا الوقت دون أن تدرك هذا».

كان الأمر صادماً لي أيضاً. أن أدرك أنه خلال ست سنوات طويلة لم استخدم مناديل زرقاء أو ورق حمام عليه نقوش، ولو مرة.

أردفتْ: «وبما أننا أتينا على ذكر الأشياء التي لا أحبها، اسمح لي بأن أقول هذا، لا أطيق اللحم المقلي مع الفلفل الأخضر. هل كنت تعلم هذا؟»

«لا، لم أكن أعلم».

«حسناً، لا أطيقه. ولا تسألني عن السبب. لا أطيق رائحتهما وهما يُطبخان معاً في مقلاة واحدة».

«أتقولين إنك خلال ست سنوات لم تطبخي اللحم والفلفل الأخضر معاً ولو مرة واحدة؟»

هزت رأسها، «يمكنني تناول الفلفل الأخضر مع السلطة، ويمكنني قلي اللحم مع البصل. لكن لم يحدث أن طبخت اللحم مع الفلفل الأخضر».

صعَّدتُ زفرة حرّى.

سألتْني: «ألا تعتقد أنه أمر غريب؟»

قلت وأنا أتريث للتفكير في ما إذا كنت قد تناولت، منذ زواجنا، أي شيء مقلي يحتوي على اللحم والفلفل الأخضر. وبالطبع كان من المستحيل أن أتذكر.«غريب؟ لم ألاحظ الأمر حتى».

قالت: «عشت معي طيلة هذه الفترة، لكنك لم تكن تُعِرني أي اهتمام. كل ما تفكر به هو نفسك».

قلت وأنا أطفئ النار وأنزل المقلاة: «مهلاً لحظة، دعينا لا ننساق بعيداً. قد تكونين محقة ربما لم أكن أولي اهتماماً كافياً لأشياء مثل المناديل وورق الحمام واللحم والفلفل الأخضر، لكن ذلك لا يعني أنني لم أهتم بك أنت. لا أكترث البتة بلون مناديلي. حسناً،قد تكون لديَّ مشكلة مع الأسود، لكن أبيض، أزرق.. لا يهم. الأمر نفسه ينطبق على اللحم والفلفل الأخضر. معاً، منفصلين، من يكترث؟ لن يهمني اختفاء وصفة قلي اللحم مع الفلفل الأخضر من على وجه الأرض. ليس للأمر علاقة بك أنت، جوهرك، ما يجعل كوميكو كوميكو. هل أنا مخطئ؟»

بدلاً من إجابتي، أكملت ما تبقى من جعتها بجرعتين كبيرتين، وأخذت تحدق إلى القنينة الفارغة.

ألقيت محتويات المقلاة في سلة القمامة. وداعاً للحم والفلفل الأخضر والبصل والفاصوليا. أمر عجيب. طعام في لحظة، وقمامة في لحظة أخرى. وأخذت قنينة جعة.

سألتني: «لماذا فعلت ذلك؟»

«لأنك تمقتين هذه الوصفة».
«لذلك لا يمكن أن تأكلها *أنت*؟»
«لم أعد أرغب في اللحم والفلفل الأخضر».
هزت كتفيها قائلة: «كما يحلو لك».

وضعت ذراعيها على الطاولة وأسندت وجهها إليهما. ظلت على ذلك الحال بعض الوقت. أمكنني ملاحظة أنها لم تكن تبكي أو نائمة. نظرتُ إلى المقلاة الفارغة، ونظرت إلى كوميكو، وتجرعت جعتي. يا له من جنون. من يكترث بورق حمام وفلفل أخضر؟

لكنني اقتربت منها ووضعت يدي على كتفها، وقلت: «حسناً. فهمت الآن، لن أشتري مناديل زرقاء أو مناديل عليها نقش زهورٍ أبداً، أعدك. سآخذ تلك الأشياء إلى مركز التسوق غداً لتبديلها. وإذا رفضوا تبديلها فسأحرقها في الباحة، وأذهب لأذرّ رمادها في البحر. ولا مزيد من اللحم والفلفل الأخضر. ستتلاشى الرائحة حالاً، ولن تخطر على بالك مجدداً. حسناً؟»

لكنها لبثت مقيمة على صمتها. أردت أن أخرج لأتمشى ساعة وأجدها مبتهجة عندما أعود. لكنني كنت أعرف أنه لا مجال لفعل ذلك. كان على أن أتدبر هذه المرة بنفسي.

«اسمعي. إنك مرهقة، خذي قسطاً من الراحة وسوف نخرج لتناول بيتزا، سنقتسم واحدة. متى كانتآخر مرة تناولنا فيها بيتزا؟ بالأنشوفة والبصل. لن نموت إذا تناولنا الطعام بالخارج من حين لآخر».

لم تنجح هذه المحاولة أيضاً. وأبقت وجهها على ذراعيها. لم أعرف ما علي قوله. جلست ورحت أحدق إليها عبر الطاولة. تظهر أذن واحدة من خلال شعرها الأسود القصير. وتضع قرطاً لم أره من قبل، قرط ذهبي صغير على شكل سمكة. من أين يمكنها شراء شيء كهذا. أردت أن أدخن. تخيلت نفسي أخرجسيجارة وقداحة من جيبي، وأضع عقب السيجارة بين شفتي، وأشعلها. ملأت رئتي بالهواء، فشممت رائحة اللحم المقلي مع الخضروات. كنت أتضور جوعاً.

علِقَت عيناي بالرزمانة التي على الجدار. تُظهر هذه الرزمانة أطوار القمر. كان القمر المكتمل يقترب بالطبع، وقد حان وقت دورة كوميكو الشهرية.

بدأت أدرك ببطء، بعدما أصبحت رجلاً متزوجاً، أنني من سكان الأرض، الكوكب الثالث في المجموعة الشمسية. أعيش على الأرض، والأرض تدور حول الشمس، وحول الأرض يدور القمر. سواء أن أعجبك الأمر أم لا، سيستمر هذا الدوران للأبد (أو ما يمكن أن يُسمى بالأبد مقارنة بحياتي). كان ما حملني على رؤية الأمور بهذه الطريقة هو الدقة المتناهية لدورة طمث زوجتي، كل تسعة وعشرون يوماً، وتطابقها مع تضخم واضمحلال القمر. ودائماً ما تكون دوراتها عصبية، وتصبح غير مستقرة، وكئيبة حتى، بضعة أيام قبل أن تبدأ. لذلك أصبحت

دورتها الشهرية دورتي أيضاً. وتعيّن علي أن أكون حريصاً حتى لا أتسبب في مشكلة غير ضرورية في الوقت الخاطئ من الشهر. كنت ألاحظ مراحل القمر بالكاد قبل زواجنا. قد يحدث أن ألمحه في السماء، لكن شكله في أي فترة لم يكن يهمني. والآن أصبحت مراحل القمر شيئاً حاضراً في ذهني على الدوام.

ارتبطت بعدد من النساء قبل كوميكو، وبالطبع لكل منهن دورتها الخاصة بها. بعضها عسير، وبعضها سهل. بعضها تنتهي خلال ثلاثة أيام، والبعض الآخر أكثر من أسبوع. بعضها تأتي بانتظام، وبعضها تتأخر عشرة أيام وترعبني أيما رعب. يتعكر مزاج بعض النساء، وبعضهن يتأثرن بالكاد. لم أعش مع امرأة قط حتى زواجي بكوميكو. وحتذاك، كانت دورات الطبيعة تعني بالنسبة لي تغير الفصول. أخرج معطفي في الشتاء، وفي الصيف يحين وقت الخُف المفتوح. وبعد الزواج لم أتعلم التأقلم فحسب، بل تبنيت مفهوماً جديداً للدورية: أطوار القمر. لم تنقطع عنها الدورة إلا مرة واحدة عندما كانت حاملاً.

قالت وهي ترفع وجهها: «آسفة. لم أقصد أن أصب عليك غضبي. أنا متعبة، وفي مزاج سيئ».

«لا بأس، لا تدعي الأمر يزعجك. ينبغي أن تصبي جام غضبك على أحدهم عندما تكونين متعبة. ستشعرين بتحسن».

أخذت كوميكو نفساً عميقاً، واحتفظت به قليلاً، ثم أطلقته. وقالت: «ماذا عنكَ؟»

«ماذا عني؟»

«إنكَ لا تصب غضبك على أي أحد عندما تكون متعباً، لماذا؟»
هززت رأسي، وقلت: «لم ألاحظ ذلك، أمر غريب».

«ربما لديك بئر عميقة بداخلك، وتصرخ فيها: '**لدى الملك أذني حمار**'[3]، فيصير كل شيء على ما يرام».
فكرت بذلك هنيهة، وقلت: «ربما يكون الأمر كذلك».

نظرت كوميكو إلى القنينة الفارغة ثانية، وحدقت إلى ديباجتها، ثم إلى فوهتها، ثم أدارت عنقها بأصابعها.

قالت: «زائرتي تقترب، وأعتقد أن هذا سبب مزاجي السيئ».

«أعرف. لا تدعي ذلك يزعجك. لستِ الوحيدة. تنفق آلاف الخيول عندما يكون القمر مكتملاً».
رفعت يدها عن القنينة فاغرة فمها، ونظرت إلي: «من أين جئت بهذا فجأة؟»

---

[3] قصة من الفلكلور الآيرلندي. يُحكى في إحدى رواياتها أن ملكاً كان لديه أذنان طويلتان شبيهتان بأذني الحمار. ولا أحد يعلم سره سوى حلاقه الخاص، الذي توعّده الملك بالسجن إذا أفشى السر. فوعده الحلاق بألا يفشيه. لكن بعد فترة، لم يعد الحلاق قادراً على كتمان السر، وظل يؤرقه. لكنه يخشى عقاب الملك. فاهتدى إلى حل. ذهب إلى مكان بعيد وحفر حفرة عميقة، ثم صاح بداخلها: لدى الملك أذني حمار! لدى الملك أذني حمار! فشعر بالراحة، وأن عبئاً ثقيلاً انزاح عن صدره. (المترجم)

«قرأته في صحيفة ذات يوم. أردت أن أخبرك عن الموضوع لكنني نسيت. كانت مقابلة مع أحد الأطباء البيطريين. يبدو أن الخيول شديدة التأثر بأطوارالقمر، جسدياً ونفسياً. تضطرب موجات أدمغتها مع اقتراب اكتمال القمر، وتبدأ تعاني جميع أنواع المشكلات الجسدية. وبعد ذلك، في ليلة اكتمال القمر، يمرض الكثير منها، وينفق معظمها. لا أحد يعرف لماذا يحدث هذا على وجه التحديد، لكن الإحصائيات تثبت حدوثه. لا يجد أطباء الخيول أي وقت للنوم في الليالي التي يكون فيها القمر مكتملاً».

قالت كوميكو: «أمر مثير للاهتمام».

«مع ذلك فإن كسوف الشمس أسوأ. تحيط المآسي بالخيول من أقطاب الكون الأربعة. لا يمكنك تخيل عدد الخيول التي تنفق في يوم كسوف كلي. على كل حال، كل ما أردت قوله هو أنه في هذه اللحظة تنفق الخيول في كل أنحاء العالم. ومقارنة بذلك، فإن التنفيس عن إحباطك على أحدهم ليس بالأمر المهم. لذلك لا تدعي الأمر يزعجك. فكري بالخيول وهي تنفق. فكري بها وهي ممددة على القش في حظيرة ما تحت القمر المكتمل، يخرج الزبد من فمها وتلهث بإعياء».

بدت للحظة كأنها تفكر بالخيول وهي تنفق في الحظائر.

قالت بنبرة تسليم:«حسناً، عليَّ أن أقر. يمكنك على الأرجح أن تبيع أي شيء لأي شخص».

«حسناً إذن. غيري ملابسك ولنخرج لتناول البيتزا».

*

اضجعت بجوار كوميكو تلك الليلة، في غرفتنا المعتمة، ورحت أحدق إلى السقف وأسأل نفسي عما أعرفه حقاً عن هذه المرأة. كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحاً، وكوميكو تغط في نوم عميق. في تلك العتمة، فكرت بالمناديل الزرقاء وورق الحمام المنقوش، واللحم والفلفل الأخضر. عشت معها كل هذه المدة وأنا غير مدرك لمدى كراهيتها لهذه الأشياء. إنها أشياء تافهة في حد ذاتها. غبية. أشياء يُسخر منها، ولا يُجعل منها خطباً كبيراً. كنا عادةً ما نخوض شجاراً صغيراً، وننسى أمره بعد يومين.

لكن هذه المرة كانت مختلفة. كان ثمة شيء يضايقني على نحو غريب غير مسبوق، ينخر بداخلي كشوكة سمك عالقة في حلقي. ربما – أقول ربما– كان الأمر أهم مما بدا عليه. ربما كانت تلك هي الضربة القاضية. أو ربما كانت مجرد بداية لما سيكون الضربة القاضية. ربما أقف عند مدخل شيء كبير، وبداخله عالم يخص كوميكو وحدها، عالم شاسع لم أكن أعلم بوجوده. أراه كغرفة مظلمة كبيرة، وأقف عندها ممسكاً بقداحة سجائر، لا تُظهر لي شعلتها الصغيرة إلا جزءاً صغيراً من الغرفة.

هل سوف تتسنى لي رؤية البقية؟ أم سأشيخ وأموت دون أن أعرفها حق المعرفة؟ إن كان هذا ما ينتظرني، إذاً ما المغزى من حياتي الزوجية التي أعيشها؟ ما الهدف من حياتي بأكملها إذا كنت أقضيها في الفراش مع رفيق مجهول؟

هذا ما فكرت به تلك الليلة، وما ظللت أفكر به مدة طويلة بعد ذلك، من حين لآخر. ولم أدرك، إلا بعد مضي وقت طويل، أنني قد بدأت أتلمس طريقي إلى جوهر المشكلة.

3

قبعة مالطا كانو

*

ألوان الباستيل وألين غينسبيرغ والحملات الصليبية

*

رنّ الهاتف مجدداً وأنا أعد الغداء. كنت قد قطعت شريحتين من الخبز، ودهنتهما بالزبدة والخردل، وملأتهما بشرائح الطماطم والجبن. ووضعت كل شيء على لوح التقطيع، وكنت على وشك قطع الشطيرة إلى نصفين عندما بدأ الهاتف يرن.

تركت الهاتف يرن ثلاث مرات، وقطعت الشطيرة إلى نصفين، ثم نقلتها إلى طبق، ومسحت السكين ووضعتها في درج أدوات القطع، قبل أن أصب لنفسي كوباً من القهوة كنت قد دفّأتها.

كل هذا والهاتف ما يزال يرن. ربما رنّ خمسة عشرة مرة. ثم استسلمت ورفعت السماعة. كنت أفضِّل ألا أجيب، لكنني خشيت أن تكون كوميكو.

«مرحباً».

صوت امرأة لم أسمعه من قبل قط، ولم يكن صوت كوميكو أو تلك المرأة الغريبة التي اتصلت في ذلك اليوم عندما كنت أطهو السباغيتي.

تكلمت صاحبة الصوت كأنها تقرأ نصاً: «أتساءل ما إذا كنت أتحدث إلى السيد تورو أوكادا».

قلت: «نعم، تتحدثين إليه».

«زوج كوميكو أوكادا؟»

«هذا صحيح، كوميكو أوكادا زوجتي».

«وشقيق السيدة أوكادا الأكبر هو نوبورو واتايا؟»

قلت وأنا أضبط نفسي على نحو مثير للإعجاب: «صحيح مجدداً. نوبورو واتايا هو شقيق زوجتي الأكبر».

«سيدي، اسمي مالطا كانو».

انتظرت لتواصل حديثها، وقد أشعرني الذِكر المفاجئ لشقيق زوجتي بالتوجس. فرحت أهرش مؤخر رأسي مستخدماً الطرف غير الحاد من قلم الرصاص الموجود بجانب الهاتف. مرت خمس ثوان أو أكثر، لم تقل المرأة خلالها شيئاً. ولم يصدر صوت من أي نوع من السماعة، كما لو أنها غطت السماعة بيدها وانصرفت عني لتتحدث مع شخص بجانبها.

قلت شاعراً بالقلق: «مرحباً».

«أستميحك عذراً. في هذه الحالة، عليّ أن أطلب منكَ السماح لي بالاتصال بك في وقت لاحق».

«مهلاً لحظة، هذا...»

قُطع الاتصال. حدقت إلى السماعة، ثم رفعتها إلى أذني مجدداً. لكن ما من شك، أنهت المرأة الاتصال.

اتجهت إلى طاولة المطبخ شاعراً باستياء. واحتسيت قهوتي، وتناولت شطيرتي. كنت أفكر في شيء ما حتى اللحظة التي رن فيها الهاتف، لكن لا أستطيع تذكره الآن. عندما رفعت السكين فوق الشطيرة لأقطعها، كنت قطعاً أفكر بأمر ما، أمر مهم كنت أحاول تذكره منذ مدة طويلة، وقد خطر لي في اللحظة التي كنت أهم فيها بقطع الشطيرة إلى نصفين، لكنه تلاشى الآن. وحاولت جاهداً تذكره وأنا أمضغ شطيرتي، لكن بلا جدوى. عاد إلى تلك المنطقة المظلمة من دماغي حيث كان يعيش حتى تلك اللحظة.

*

انتهيت من الأكل، وكنت أحمل الأطباق عندما رن الهاتف مجدداً. فالتقطت السماعة على الفور هذه المرة.

ومجدداً، سمعت امرأة تقول «مرحباً». لكن هذه المرة كانت كوميكو.

سألتني: «كيف حالك؟ هل تناولت الغداء؟»

«نعم. ماذا تناولتِ؟»

«لا شيء، إنني مشغولة للغاية. وعلى الأرجح سأبتاع لنفسي شطيرة لاحقاً. ماذا تناولتَ؟»

وصفت شطيرتي.

قالت دون أي نبرة حسد في صوتها: «حسناً. آه، بالمناسبة، نسيت إخبارك في الصباح. ستتلقى مكالمة من الآنسة كانو».

«اتصلتْ بالفعل، قبل بضع دقائق. بيد أن كل ما نطقت به هو اسماءنا. اسمي، واسمك، واسم شقيقك، ثم أنهت المكالمة، دون أن تقول ما تريده. فيمَ كان ذلك؟»

«أنهت المكالمة؟»

«قالت إنها سوف تعاود الاتصال لاحقاً».

«حسناً، عندما تتصل، أريد منك أن تفعل أياً ما تطلبه، فالأمر مهم للغاية. وأعتقد أنه سيتعين عليك الذهاب لمقابلتها».

«متى؟ اليوم؟»

«ما الخطب؟ هل لديك أي مشاريع؟ أمِن المفترض أن تقابل أحدهم؟»

«لا، ليست لدي مشاريع».

لم تكن لدي مشاريع بالأمس، وليست لدي اليوم، ولن تكون لدي غداً. ما من مشاريع إطلاقاً.

استطردتُ: «لكن من هي كانو هذه؟ وما الذي تريده مني؟ أود أن تعطيني فكرة قبل أن تتصل مجدداً. إذا كان الأمر متعلق بعمل لي له علاقة بشقيقك، فانسِ الأمر. لا أريد أن يربطني به أي شيء، تعرفين هذا».

قالت بشيء من الانزعاج: «لا، ليس عملاً. الأمر متعلق بالقط».

«القط؟»

«آه، معذرة. عليّ العودة إلى العمل، أحدهم ينتظرني. ما كان ينبغي لي أن أستقطع كل هذا الوقت لأتصل بك. فكما قلت لك، إنني حتى لم أتناول الغداء. أتمانع إذا أنهيت الاتصال؟ سأعود حالما أفرغ من عملي».

«اسمعي، أعلم أنك مشغولة، لكن ساعديني. أريد أن أعرف ما يجري. ماذا عن القط؟ هل 'كانو' هذه...»

«هلا فعلتَ ما تقوله لك فحسب؟ رجاءً، فهمت؟ هذا أمر مهم، وأريدك أن تظل بالمنزل وتنتظر مكالمتها. عليّ الذهاب».

وانقطع الاتصال.

*

كنت غافياً على الأريكة عندما رن الهاتف عند الثانية والنصف. ظننت أنني أسمع المنبه في بادئ الأمر، ومددت يدي لأضغط الزر، لكن الساعة لم تكن هناك. كنت مضجعاً على الأريكة وليس الفراش. ولم يكن الوقت صباحاً، إنما بعد الظهر. فنهضت وتوجهت إلى الهاتف.

قلت: «مرحباً»

«مرحباً»

صوت امرأة. المرأة التي اتصلت في الصباح.

«السيد تورو أوكادا؟»

«نعم، أنا تورو أوكادا».

«اسمي مالطا كانو يا سيدي».

«السيدة التي اتصلت بي سابقاً».

«صحيح. أخشى أنني كنت فظة. لكن أخبرني يا سيد أوكادا، ألديك ما تفعله عصر اليوم؟»

«لا، ليس لدي أي شيء».

«حسناً، في هذه الحالة، أعرف أن هذا مفاجئ، لكن هل تعتقد أنه من الممكن أن نلتقي؟»

«متى؟ اليوم؟ الآن؟»

«نعم».

نظرت إلى ساعتي. ولم أكن مضطراً للنظر إليها- فقد نظرت إليها قبل ثلاثين ثانية - لكن للتأكد فحسب. وكانت ما تزال تشير إلى الثانية والنصف.

«هل سيستغرق الأمر وقتاً طويلاً؟»

ليس طويلاً جداً، على ما أعتقد. وقد أكون مخطئة. يصعب علي أن أكون دقيقة في اللحظة الراهنة، آسفة».

بصرف النظر عن الزمن الذي سيستغرقه لقاؤنا، لم يكن أمامي خيار. فقد أخبرتني كوميكو بأن أفعل ما تقوله المرأة، وأن الأمر مهم، ومن الأفضل لي أن أفعل ما أُمِرتُ به.

قلت: «فهمت. أين نلتقي؟»

«هل تعرف فندق الباسيفيك، مقابل محطة شيناغاوا؟»

«أعرفه».

«توجد صالة شاي في الطابق الأول. سوف أكون بانتظارك هناك عند الرابعة إن كان هذا يناسبك يا سيدي».

«حسناً».

«أنا في الحادية والثلاثين، وسأكون معتمرة قبعة حمراء من الفينيل».

رائع. كان ثمة شيء غريب في طريقة حديث هذه المرأة، شيء أربكني لحظة. لكن لم أستطع تحديد مكمن غرابته. ولا يوجد أي قانون يمنع امرأة في الحادية والثلاثين من اعتمار قبعة حمراء من الفينيل».

«فهمت. أنا متأكد أنني سوف أجدك».

«أتساءل، يا سيد أوكادا، إن كان لك أن تتلطف وتخبرني بأي ملامح خارجية مميزة من جانبك».

حاولت أن أفكر في أي ‘ملامح خارجية مميزة’ قد تكون لدي. هل لديّ أياً منها في الواقع؟

«أنا في الثلاثين، وبطول خمسة أقدام وتسع بوصات، وأزن مئة وأربعون رطلاً. قصير الشعر، ولا أضع نظارة».

خطر لي وأنا أعدد لها هذه الأشياء أنها تمثل ملامح خارجية مميزة بالكاد. قد يوجد خمسون رجلاً بهذا الوصف في صالة الشاي بفندق الباسيفيك، الذي ذهبت إليه

من قبل، وهو مكان كبير. كانت بحاجة إلى شيء أكثر تمييزاً، لكنني لم يخطر لي أي شيء. بيد أن هذا لا يعني أنني ليس لدي أي صفات مميزة. أمتلك نسخة موقّعة من ألبوم اسكيتشات إسبانيا[4] لمايلز ديفيز، ومعدل نبضي منخفض: سبع وأربعون عادة، ولا يزيد عن سبعين مع الحمّى الشديدة. وعاطل عن العمل. وأعرف اسماء الإخوة كرامازوف جميعهم. لكن أياً من هذه الصفات المميزة ليس خارجياً.

سألتني: «ما الذي سترتديه؟»

«لا أعرف، لم أقرر بعد. الأمر برمته مفاجئ بالنسبة لي».

قالت بحسم: «إذاً ارتدِ ربطة عنق مرقطة، من فضلك. أتعتقد أنك لديك ربطة عنق مرقطة يا سيدي؟»

«أعتقد هذا».

لدي ربطة عنق بلون كحلي عليها نقاط كريمية. منحتني كوميكو إياها في عيد ميلادي قبل بضع سنوات.

«هلا تكرمتَ وارتديتها من فضلك. وشكراً على موافقتك على مقابلتي عند الرابعة».

وأنهت الاتصال.

*

فتحت الخزانة وبحثت عن ربطة العنق المرقطة، ولم أجد لها أثراً في رف ربطات العنق. فبحثت في الأدراج، وبحثت في جميع صناديق تخزين الملابس في الخزانة. لكن ما من ربطة عنق مرقطة. يستحيل أن تكون في منزلنا ولا أجدها، لأن كوميكو دقيقة جداً فيما يتعلق بترتيب ملابسنا. ولا يمكن أن تكون ربطة عنقي في

[4] Sketches of Spain

مكان غير الذي نحتفظ بها فيه عادة. وفي الواقع، وجدت كل شيء، ملابسي وملابسها، في نظام تام. قمصاني مطوية بعناية في الدرج المخصص لها، وكنزاتي في صناديق مليئة بكرات النفتالين لدرجة أن عينيّ آلمتني عندما فتحت أغطيتها. يحتوي أحد الصناديق على الملابس التي ارتدتها كوميكو في المدرسة الثانوية. زي كحلي، وفستان مشجّر صغير. محفوظة كصور في ألبوم قديم. ما المغزى من الاحتفاظ بأشياء كهذه؟ ربما جلبتها معها لأنها لم تجد فرصة مناسبة للتخلص منها. أو ربما كانت تخطط لإرسالها إلى بنغلاديش، أو التبرع بها يوماً باعتبارها أثراً ثقافياً. على أي حال، لم أعثر على ربطة العنق المرقطة في أي مكان.

حاولت تذكر آخر مرة ارتديت فيها ربطة العنق، واضعاً يدي على باب الخزانة. كانت ربطة عنق أنيقة نوعاً ما، وتشي بذوق رفيع، لكنها أفضل من أن أرتديها في المكتب. إذا كنت قد ارتديتها وذهبت إلى الشركة، فلا بد أن أحدهم كان ليتحدث عنها خلال استراحة الغداء بلا انقطاع، ممتدحاً لونها أو مظهرها اللافت، ولكان حديثه هذا بمثابة إنذار. ففي الشركة التي كنت أعمل بها، ليس من الجيد أن تتلقى إطراءً على اختيارك لربطات العنق. لذلك لم ارتديها وأذهب بها إلى العمل قط. بدلاً من ذلك، كنت ارتديها في مناسبات خاصة، ورسمية نوعاً ما، مثل حفل موسيقي، أو عشاء في أحد المطاعم الراقية، أو عندما تريد كوميكو لنا أن «نتأنق كما ينبغي» (لم يكن ثمة الكثير من هذه المناسبات). تتماشى ربطة العنق مع بدلتي الكحلية، وكانت مولعة بها. ومع ذلك، لم استطع تذكر آخر مرة ارتديتها.

قمت بمسح محتويات الخزانة مجدداً، واستسلمت لسبب أو لآخر. اختفت ربطة العنق. حسناً. ارتديت بدلتي الكحلية مع قميصي الأزرق وربطة عنق مخططة. لم أكن قلقاً جداً. قد لا تتمكن من التعرف علي، لكن كل ما علي فعله هو البحث عن امرأة في حوالي الثلاثين تعتمر قبعة فينيل حمراء.

ارتديت ملابسي استعداداً للخروج، وجلست على الأريكة ورحت أحدق إلى الجدار. مرت مدة طويلة منذ ارتديت بدلة. عادة ما تكون هذه البدلة، التي تصلح لثلاثة مواسم، ثقيلة قليلاً بالنسبة لهذا الوقت من السنة، لكن ذلك اليوم كان ماطراً،

والهواء بارداً قليلاً. إنها البدلة نفسها التي ارتديتها في آخر يوم لي في العمل (في أبريل). خطر لي فجأة أنه ربما يوجد شيء في أحد الجيوب. ووجدت في جيب الصدر الداخلي إيصالاً يعود تاريخه للخريف الماضي، وكان أشبه بإيصال تاكسي، من النوع الذي يمكن استرداد قيمته من الشركة. أمَا وقد فات الأوان، جعّدته وألقيته في سلة المهملات.

لم أرتدِ هذه البدلة ولو مرة واحدة منذ استقالتي قبل شهرين. وبعد هذه الفترة الطويلة، شعرت كما لو أنني في قبضة مادة غريبة. كانت ثقيلة ومتيبّسة، وبدت لي أنها لا تطابق انحناءات جسدي. فنهضت ورحت أذرع الصالة، ثم وقفت أمام المرآة لأجذب الكمّين وذيل السترة، محاولاً جعلها مريحة أكثر. ومددت ذراعيّ، وأخذت نفساً عميقاً، وانحنيت بجذعي للأمام، لأتحقق مما إذا كان جسدي قد تغير خلال الشهرين الماضيين. ثم جلست على الأريكة مجدداً. ومع ذلك لم أشعر بالارتياح.

حتى حلول الربيع الحالي، كنت أتنقل من وإلى العمل يومياً مرتدياً بدلة، ولم أشعر يوماً بغرابتها. وضعت الشركة التي كنت أعمل بها لوائح صارمة فيما يتعلق بالملابس، وتفرض حتى على صغار الموظفين أن يرتدوا بدلات. وكان الأمر عادياً بالنسبة لي.

لكن الآن، مجرد الجلوس على أريكة مرتدياً بدلة، بدا لي عمل غير أخلاقي من نوع ما. مثل أن يزيف أحدهم سيرته الذاتية أو يتظاهر بأنه امرأة. فوجدت صعوبة متزايدة في التنفس، شاعراً بما يشبه تأنيب الضمير.

ذهبت إلى الصالة الأمامية، وأخذت حذائي البني من مكانه على الرف، وقد كسته غلالة رقيقة من الغبار، وأقحمت قدميّ بداخله مستخدماً أداة تسهيل انتعال الأحذية.

*

اتضح أنني لم أكن مضطراً للبحث عن المرأة. فهي التي وجدتني. عندما وصلت إلى صالة الشاي، قمت بجولة سريعة، باحثاً عن القبعة الحمراء. ولم تكن هناك نساء بقبعات حمراء. كانت ساعتي تشير إلى الرابعة إلا عشر دقائق. جلست وشربت الماء الذي جلبوه لي، وطلبت كوباً من القهوة. وما إن غادرت النادلة طاولتي، سمعت امرأة خلفي: «لا بد أنك السيد تورو أوكادا». فالتفتُّ مندهشاً. لم تمر أكثر من ثلاث دقائق منذ جولتي في الصالة. كانت ترتدي بلوزة حريرية صفراء تحت معطف أبيض، وعلى رأسها قبعة فينيل حمراء. نهضت وواجهتها بردة فعل لا إرادية. 'جميلة' قد تكون هي الكلمة التي تنطبق عليها، على الأقل كانت أجمل بكثير مما تخيلت من صوتها عبر الهاتف. قوامها جميل ورشيق ومقتصدة في استخدام مستحضرات التجميل. إنها تعرف كيف تتأنق، باستثناء القبعة الحمراء. المعطف والبلوزة مفصلان بعناية، ويلتمع دبوس زيني أنيق على شكل ريشة على ياقة معطفها. ولم أستطع أن أعرف لماذا-بعد عنايتها المفرطة ببقية ملبسها- اعتمرت تلك القبعة الحمراء غير الملائمة تماماً. ربما تعتمرها دائماً لتساعد الناس على التعرف عليها في مواقف كهذه. وعلى أي حال، ليست فكرة سيئة. إذا كان الهدف هو تمييزها في صالة تعج بالغرباء، فإنها أدت الغرض منها بلا شك.

جلستْ قبالتي إلى الطاولة، وجلستُ ثانية.

قلت: «أنا مندهش لأنك تعرفت علي، لم أتمكن من العثور على ربطة العنق المرقطة. أعرف أنها موجودة في مكان ما لكنني لم أجدها، ولذلك ارتديت المخططة هذه، واعتقدت أنني سأجدك. لكن كيف تعرفت علي؟»

«بالطبع تعرفت عليك».

قالت ذلك وهي تضع حقيبتها الجلدية البيضاء على الطاولة. ثم نزعت قبعتها الحمراء ووضعتها على الحقيبة، وقد غطتها تماما. فراودني شعور بأنها على وشك أداء خدعة سحرية: عندما ترفع القبعة، لن أرى الحقيبة.

قلت بما يشبه الاحتجاج: «لكنني أرتدي ربطة العنق الخطأ».

«ربطة العنق الخطأ؟»

ألقت نظرة على ربطة عنقي وقد اعترت وجهها تعبيرات الحيرة، كأنها تقول: ما الذي يتحدث عنه غريب الأطوار هذا. ثم أومأت، وأردفتْ: «لا يهم، لا تدع الأمر يقلقك، رجاءً».

كان ثمة شيء غريب في عينيها. تفتقران للعمق على نحو غامض. عينان جميلتان، لكن بدتا كأنهما لا تنظران إلى أي شيء. مسطحتان، كالعيون الزجاجية. لكنهما لم تكونا عينان زجاجيتان بالطبع. كانتا تتحركان، وترمش جفونهما.

كيف تمكنت من تمييزي بين الحشد في هذا المكان المزدحم؟ لا توجد كراسي خالية في الصالة تقريباً، ويشغل العديد منها رجال في مثل سني. أردت أن أطلب منها تفسيراً، لكنني أحجمت. من الأفضل ألا أثير مواضيع عرضية.

نادت نادلاً عابراً، وطلبت بيريه. فقال إنهم ليس لديهم بيريه، لكن يمكنه أن يجلب لها مياه غازية. فكرت بذلك لحظة ثم قبلت اقتراحه. ولم تقل شيئاً أثناء انتظار وصول المياه الغازية، ولم أقل شيئاً بدوري.

في لحظةٍ ما، رفعت قبعتها وفتحت مشبك حقيبتها وأخرجت منها بطاقة عملها، وناولتني إياها. ومددت يدي إلى جيبي لأخرج واحدةً من بطاقاتي، وعندئذٍ أدركت أنني لا أحمل أياً منها معي.

كانت بطاقة اسمها مصنوعة من بلاستيك رقيق، وبدت كأنها تحمل رائحة بخور خفيفة. وعندما قربتها من أنفي، تأكدت من ذلك. وتحمل البطاقة سطراً واحداً، مكتوب بحروف فاحمة السواد:

مالطا كانـو

مالطا؟ قلبت البطاقة، لكنها كانت خالية.

أثناء جلوسي متسائلاً عن معنى بطاقة الاسم هذه، جاء النادل ووضع أمامها كأساً مليئاً بالثلج، وملأه بالمياه الغازية حتى نصفه،وعلى الكأس شريحة من الليمون. ثم

جاءت النادلة بإناء قهوة فضي على صينيتها ووضعت كوباً أمامي وملأته بالقهوة. وتركت الفاتورة على الطاولة كأنها تدس خلسة ورقة حظ سيء من معبد بوذي في يد أحدهم، وغادرت.

قالت مالطا كانو: «إنها خالية».

كنت ما أزال أحدق إلى ظهر بطاقة اسمها.

وتابعتْ: «تحمل اسمي فقط. لستُ بحاجة إلى إدراج عنواني أو رقم هاتفي. لأن لا أحد يتصل بي إطلاقاً. أنا التي أجري الاتصالات».

«فهمت».

ظل هذا التعليق عديم المعنى يحوم في الهواء فوق الطاولة مثل جزيرة طافية في 'رحلات غوليفر'.

أخذتْ رشفة صغيرة من الماصة وهي تمسك بالكأس بكلتيّ يديها. وعلت وجهها تكشيرة خفيفة، على إثرها أزاحت الكأس جانباً، كأنها فقدت كل اهتمام به.

قالت: «مالطا ليس اسمي الحقيقي. كانو حقيقي. لكن مالطا اسم مهني أخذته من جزيرة مالطا. هل سبق لك الذهاب إلى مالطا يا سيد أوكادا؟»

قلت إنني لم يسبق لي الذهاب إلى مالطا من قبل قط، ولا أخطط للذهاب إلى مالطا في المستقبل القريب. وحتى لم يخطر لي أن أذهب إليها. كل ما أعرفه عن مالطا هو أداء هيرب ألبرت لأغنية 'رمال مالطا'[5]. أغنية بغيضة.

قالت: «عشت في مالطا من قبل، ثلاث سنوات. المياه هناك سيئة جداً، ولا يمكن شربها، كمياه بحر مخففة. وحتى الخبز الذي يصنعونه هناك مالح. ليس لأنهم يضيفون إليه الملح، بل لأن الماء الذي يصنعونه به مالح. بيد أن الخبز ليس سيئاً، بل أحببت خبز مالطا.

[5] The Sands Of Malta

أومأتُ وارتشفت من قهوتي.

أردفتْ: «على الرغم من طعم المياه السيئ عموماً، هناك مكان واحد في مالطا مياهه ذات تأثير عظيم على عناصر الجسد، إنها مياه مميزة جداً، وروحية أيضاً.

وهي موجودة في مكان واحد في الجزيرة، في ينبوع أعلى الجبال. وعليك أن تتسلق عدة ساعات من قرية في السفح حتى تصل إليه. ولا يمكن نقل الماء من موقع الينبوع. وإذا نُقِل إلى مكان آخر، فسيفقد خواصه. والطريقة الوحيدة لشربه هي بالذهاب بنفسك. وهو مذكور في وثائق من زمن الحروب الصليبية، ويسمونها المياه الروحية. وقد جاء ألين غينسبيرغ مرة ليشرب منها، وكذلك كيث ريتشاردز. عشت هناك ثلاث سنوات، في قرية صغيرة بسفح الجبل. كنت أجمع الخضروات وتعلمت الحياكة. وكنت أتسلق إلى الينبوع وأشرب المياه المميزة يومياً، من عام 1976 إلى 1979. في إحدى المرات، كنت أشرب الماء فقط، ولم أتناول أي طعام أسبوعاً كاملاً. وهذا النوع من الانضباط مطلوب هناك. أعتقد أنه يمكن أن يُسمى تقشفاً دينياً. إنك تنقّي جسدك بتلك الطريقة. وكانت تجربة رائعة بالنسبة لي، ولهذا اخترت اسم مالطا لأغراض مهنية عندما عدت إلى اليابان».

«هل لي أن أسألك عن مهنتكِ؟»

هزت رأسها. «إنها ليست مهنتي، إن شئت الدقة. فأنا لا آخذ أموالاً مقابل ما أفعله. أنا مستشارة، أتحدث مع الناس عن عناصر الجسد. كما إنني أعمل على بحث عن المياه التي لها تأثيرات مفيدة لعناصر الجسد. كسب المال ليس مشكلة بالنسبة لي، ولديّ كل الموارد التي أحتاج إليها. والدي طبيب، وقد أعطاني وشقيقتي الصغرى أسهم وعقارات، يديرها لنا محاسب، وتدرُّ دخلاً محترما كل عام. كما ألّفت عدة كتب تُدر القليل من المال. عملي واهتمامي بعناصر الجسد هو نشاط غير ربحي تماماً. ولهذا لا تحمل بطاقتي عنواناً أو رقم هاتف. أنا التي أجري الاتصالات».

أومأتُ. لكنها كانت مجرد حركة من رأسي، إذ لم تكن لديّ أدنى فكرة عما تتحدث عنه. أمكنني فهم كل كلمة نطقت بها، لكن استحال عليّ فهم المعنى العام.

عناصر الجسد؟ ألين غينسبيرغ؟

بدأ يجتاحني شعور متزايد بالقلق. لست من أولئك الذين يملكون مواهب حدسية خاصة، لكن كلما أمضيت مزيداً من الوقت مع هذه المرأة، ازداد شعوري باقتراب المتاعب.

قلت: «عليك أن تعذريني، أتساءل إن كان يمكنني أن أطلب منك أن تشرحي لي هذه الأشياء، من البداية، خطوة بخطوة. تحدثت مع زوجتي منذ قليل، وكل ما قالته هو أنه ينبغي لي أن أقابلك للحديث عن قطنا المفقود. ولأكون صادقاً تماماً، لا أدرك المغزى مما كنت تقولينه لي. هل له علاقة بالقط؟»

قالت: «نعم، بالطبع. لكن قبل أن أخوض في هذا، ثمة شيء أريد منك أن تعرفه يا سيد أوكادا».

فتحت مشبك حقيبتها مجدداً وأخرجت ظرفاً أبيضاً، وأخرجت منه صورة فوتوغرافية وناولتني إياها قائلة: «شقيقتي». كانت صورة ملونة لامرأتين، إحداهما مالطا كانو، وفي الصورة أيضاً كانت تعتمر قبعة، قبعة صفراء منسوجة. ومجدداً، لم تكن متماشية إطلاقاً مع ما ترتديه. أما شقيقتها- افترضت أنها شقيقتها الصغرى التي ذكرتها- فكانت ترتدي بدلة فاتحة اللون وقبعة تناسبها من النوع الذي كان رائجاً في أوائل الستينيات. بدا لي أنني أتذكر أن مثل هذه الألوان تعرف بـألوان الباستيل. إلا أن أمراً واحداً كان مؤكداً: هاتين الشقيقتين مولعتين بالقبعات. تسريحة شعر الصغرى تطابق تسريحة شعر جاكلين كينيدي عندما كانت السيدة الأولى، مليء برذاذ الشعر. وتسرف قليلاً في وضع مساحيق التجميل، لكن يمكن وصفها بالجمال. وكانت في أول أو منتصف العشرينيات من عمرها.

أرجعت الصورة إلى مالطا كانو، فوضعتْها بداخل المظروف، وأعادت المظروف إلى حقيبة اليد، وأغلقت المشبك.

قالت: «تصغرني شقيقتي بخمس سنوات. وقد دنَّسها نوبورو واتايا. اغتصبها بعنف».

رائع. أردت أن أغادر. لكن لم يكن بوسعي أن أنهض وأسير مبتعداً ببساطة. أخرجت منديلاً من جيب سترتي، ومسحت به فمي،وأعدته إلى نفس الجيب. ثم تنحنحت.

قلت: «هذا فظيع. لا أعرف شيئاً عن هذا. لكن إن آذى شقيقتك بالفعل، فأنا أقدم تعازيّ من كل قلبي. لكن عليّ أن أخبرك أنه لا يوجد ما يجمعني بشقيق زوجتي إطلاقاً. لذلك إذا كنت تتوقعين...»

«لا، إطلاقاً يا سيد أوكادا. لا أحملك المسؤولية بأي طريقة، إن كان ثمة شخص ينبغي أن يتحمل المسؤولية، فهو أنا، لكوني غافلة، ولعدم حمايتي لها كما ينبغي. ولسوء الحظ، ثمة أحداث بعينها تسببت في استحالة حمايتي لها. هذه الأشياء تحدث يا سيد أوكادا. وكما تعرف، نحن نعيش في عالم فوضوي قاس. أتفهم ما أعنيه يا سيد أوكادا؟ ما حدث قد حدث، وسوف تتعافى شقيقتي من جراحها، ومن تدنّسها. لا بد. أنا ممتنة لأنه لم يكن قاتلاً. وكما قلت لشقيقتي، كانت هناك إمكانية حدوث شيء أسوأ بكثير. وأكثر ما يقلقني الآن هو عناصر جسدها».

قلت لنفسي: '*عناصر جسدها*' . لا بد أن مسألة عناصر الجسد هذه موضوع ثابت لديها.

«لا يمكنني أن أفسر لكَ بالتفصيل كيفية ترابط كل هذه الأحداث والظروف مع بعضها. سوف تكون قصة طويلة ومعقدة للغاية. ولا أقصد أن أقلل من احترامك عندما أقول إنه من المستحيل،بالنسبة لك، عملياً، في هذه المرحلة أن تستوعب بدقة معنى تلك القصة، وهي تتضمن عالماً نتعامل معه على أسس مهنية. لم أدعوك إلى هنا لأعبر لك عن شكوى بهذا الخصوص. أنت غير مسؤول بأي طريقة عما حدث، بطبيعة الحال. أريدك أن تعرف فحسب، مع إنها قد تكون حالة مؤقتة، أن السيد واتايا قد دنّس عناصر شقيقتي. أنت وهي سوف تتصلان ببعضكما بطريقة ما في

المستقبل. إنها مساعِدتي، كما ذكرت سابقاً. وعندما يحدث ذلك، سوف يكون من الأفضل لك،على الأرجح، أن تكون على دراية بما حدث بينها وبين السيد واتايا، وأن تدرك أن هذه الأشياء واردة الحدوث».

أعقب ذلك صمت قصير. نظرت مالطا كانو إلي كأنها تقول: رجاءً، فكر بما قلته لك. لذلك فكرت، باغتصاب نوبورو واتايا شقيقة مالطا كانو، وبالعلاقة بين ذلك وبين عناصر الجسد، والعلاقة بين كل ما سبق وبين اختفاء القط.

تجاسرت على القول: «هل أفهم من كلامك أنك وشقيقتك لا تنويان تقديم شكوى رسمية بهذا الصدد.. أن تذهبا إلى الشرطة..؟»

«لا. لن نفعل شيئاً كهذا بالطبع». قالت مالطا كانو ووجهها لا يحمل أي تعبيرات «إذا شئت الدقة، فنحن لا نحمّل المسؤولية لأي أحد. نودّ ببساطة أن نحصل على فكرة عما سبّب وقوع شيء كهذا. وحتى نجد إجابة عن هذا السؤال، من المحتمل وقوع ما هو أسوأ».

شعرت بشيء من الراحة لسماع ذلك. ليس وكأنني سأشعر بأقل قدر من الانزعاج إذا أدين نوبورو واتايا بالاغتصاب وزُجّ به في السجن، لن يحدث ذلك مع شخص ألطف منه. لكن شقيق كوميكو شخصية معروفة نوعاً ما. وسيصل خبر القبض عليه ومحاكمته إلى العناوين الرئيسة في الصحف، وسيكون ذلك صدمة قاسية لكوميكو. لفضّلت أن ينجلي الأمر برمّته، ولو من أجل راحة بالي فحسب.

قالت مالطا كانو: «اطمئن، طلبت لقاءك اليوم من أجل القط المفقود فحسب. وهو الموضوع الذي طلب السيد واتايا مساعدتي بشأنه. لجأت السيدة أوكادا إليه لمساعدتها في الموضوع، وهو بدوره طلب مشورتي».

هذا يفسر الكثير. مالطا كانو مستبصرة، أو وسيطة روحية، أو شيء من هذا القبيل. وقد لجأوا إليها لمساعدتهم على تحديد مكان القط. تؤمن عائلة واتايا بالعِرافة، والفراسة، وما شابهها. ولم تكن لدي مشكلة مع ذلك، الناس أحرار في ما يعتقدونه

أو يحبونه. لكن لماذا يغتصب الشقيقة الصغرى لمستشارة روحية؟ لماذا يثير مشكلات لا طائل منها؟

سألتها: «هل هذا هو مجال خبرتك؟ مساعدة الناس على العثور على الأشياء؟»

حدقت إلي بعينيها المسطحتين، اللتين تبدوان كما لو أنهما تحدقان إلى نافذة منزل مهجور. وبالنظر إلى التعبيرات التي ارتسمت على وجهها، بدت لي أنها لم تستوعب معنى سؤالي.

ودون أن تجيب عن سؤالي، قالت: «إنك تعيش في مكان غريب جداً، أليس كذلك يا سيد أوكادا؟»

«حقاً؟ غريب من أي ناحية؟»

وبدلاً من إجابتي، دفعت كأسها الذي مسّته بالكاد ست أو ثمان بوصات بعيداً عنها، وقالت: «القطط مخلوقات حساسة، أتعرف؟»

ران الصمت علينا مجدداً.

قلت: «إذاً، المكان الذي أعيش فيه غريب، والقطط حيوانات حساسة. حسناً، نعيش في منزلنا منذ مدة طويلة، نحن الاثنان والقط. لماذا قرر تركنا فجأة؟ لماذا لم يغادر من قبل؟»

«لا يمكنني إخباركَ بهذا. ربما تغير التيار، وربما يكون شيء ما قد أعاق التيار».

«التيار»

«لا أعرف ما إذا كان قطكم ما يزال حياً أم لا، لكنني متيقنة من شيء واحد، وهو أنه لم يعد في المنطقة المجاورة لمنزلكم. لن تجد القط في حيّكم أبداً».

رفعت كوبي وأخذت رشفة من قهوتي، التي صارت فاترة. كان مطر خفيف يتساقط خلف نوافذ صالة الشاي. والسماء مدلهمة بغيوم منخفضة قاتمة. وموكب حزين من الناس والمظلات يغدو ويروح على جسر المشاة بالخارج.

قالت: «اعطني يدك».

وضعتُ يدي اليمنى على الطاولة، وراحتها للأعلى، مفترضاً أنها تريد قراءة كفّي. لكن بدلاً من ذلك، مدت ذراعها ووضعت راحة يدها على يدي. ثم أغمضت عينيها، وظلت ساكنة تماماً، كأنها تعاتب عشيقاً غائباً بصمت. جاءت النادلة وأعادت ملء كوبي، متظاهرة بعدم ملاحظة ما نفعله. واختلس الجالسون إلى الطاولات المجاورة النظرات باتجاهنا. وكنت آمل ألا يكون أي أحد من معارفي في المكان.

قالت مالطا كانو: «أريدك أن تتصور شيئاً واحداً رأيته اليوم قبل مجيئك إلى هنا».

«شيئاً واحداً؟»

«شيء واحد فقط».

فكرت بالفستان المشجر الذي رأيته في صندوق تخزين ملابس كوميكو. وليست لدي فكرة عن سبب قفزه إلى ذهني من بين كل الأشياء. فكرت به فحسب.

ظلت أيدينا على ذلك الحال خمس دقائق، خمس دقائق بدت لي كدهر. ليس لأن الناس كانوا يحدقون إلي، بل لأن ملمس يد مالطا كانو كان مقلقاً نوعاً ما. يدها صغيرة، ليست ساخنة أو باردة. لم تكن تُشعِر بحميمية يد عشيق، أو تحمل الطابع العملي ليد طبيب. كان لها نفس أثر عينيها، محولة إياي إلى منزل مهجور. وشعرت بالخواء، ما من أثاث، أو ستائر، أو سجاد. مجرد حاوية فارغة. وفي النهاية، سحبت يدها وتنهدت بعمق. ثم أومأت عدة مرات.

«سيد أوكادا، أعتقد أنك سوف تدخل مرحلة في حياتك ستقع فيها أشياء مختلفة. اختفاء القط مجرد بداية».

قلت: «أشياء مختلفة، أشياء جيدة أم سيئة؟»

أمالت رأسها مفكرة، «أشياء جيدة وأشياء سيئة. أشياء سيئة تبدو جيدة في البداية، وأشياء جيدة تبدو سيئة في البداية».

«يبدو لي هذا كلاماً عاماً جداً. أليست لديك معلومات أكثر تحديداً؟»

«نعم، أفترض أن ما أقوله يبدو عاماً بالفعل. لكن في نهاية المطاف يا سيد أوكادا، عندما يتحدث المرء عن جوهر الأشياء، غالباً ما يتحدث حديثاً عاماً. الأشياء المحددة تتطلب التركيز، بيد أنها غالباً ما تكون مجرد تفاهات، وأشياء جانبية. كلما حاول المرء أن يرى ما في الأفق، أصبحت الأشياء أكثر عمومية».

أومأت بصمت. دون أن تكون لدي أدنى فكرة عما كانت تتحدث عنه.

سألتْ: «هل تسمح لي بالاتصال بكَ مجدداً؟»

قلت: «بالطبع». مع إنني في الواقع أتمنى ألا يتصل بي أي أحد. لكن «بالطبع» هي الإجابة الوحيدة التي يمكنني الرد بها.

خطفت قبعتها الحمراء من الطاولة، وأخذت حقيبتها التي كانت مخفية تحتها، ونهضت. وظللتُ جالساً غير متيقن مما علي فعله.

قالت مالطا كانووهي تنظر إلي بعدما اعتمرت قبعتها الحمراء: «لدي معلومة صغيرة يمكنني أن أشاركك إياها: سوف تجد ربطة العنق المرقطة، لكن ليس في منزلك».

4

أبراج عالية وآبار عميقة

(أو، بعيداً عن نومونـهان)

*

وجدت كوميكو في مزاج رائق عندما عدت إلى المنزل، رائق للغاية. بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى المنزل بعد لقاء مالطا كانو كانت الساعة قد شارفت على السادسة، وبالتالي لم يكن لدي وقت لإعداد عشاء لائق. فأعددت وجبة بسيطة مما وجدته في الثلاجة، وشرب كل منا جعة. تحدثتْ عن العمل، كعادتها عندما تكون في مزاج جيد: الذين التقتهم في المكتب، وما فعلته، وأي زملائها لديه الموهبة وأيّهم ليس لديه. وأشياء من هذا القبيل.

أصغيت، وأنا أدلي بتعليقات ملائمة بين الفينة والأخرى. لم أسمع أكثر من نصف ما كانت تقوله. ليس لأنني لم أكن أحب الاستماع إلى حديثها عن تلك الأشياء. فبغض النظر عن موضوع الحديث، كنت أحب مشاهدتها على طاولة العشاء وهي تتحدث عن عملها بشغف. قلت مخاطباً نفسي: ‘هذا هو البيت’. كنا نؤدي مسؤولياتنا والأدوار الموكلة إلينا في البيت كما ينبغي. هي تتحدث عن عملها، وأنا، بعد إعداد العشاء، استمع إلى حديثها. وقد كان هذا الوضع مختلفاً أشد الاختلاف عن صورة البيت التي تخيلتها لنفسي بغموض قبل الزواج. لكن هذا هو *البيت الذي اخترته*. كنت أعيش في بيت من قبل بالطبع، عندما كنت طفلاً، لكنه لم يكن بيتاً اخترته بنفسي. إنما وُلدت فيه، وقُدِّم إلي كحقيقة مسلَّمة. لكن الآن، أعيش في عالم اخترته بمحض إرادتي. إنه بيتي. قد لا يكون مثالياً، لكن الموقف الجوهري الذي تبنيته فيما يتعلق ببيتي هو أن أتقبّله، بمشكلاته وكل شيء، لأنه شيء اخترته بنفسي. وإذا كانت فيه مشكلات، فأنا قطعاً مساهم فيها.

سألتني: «إذاً، ماذا عن القط؟»

لخّصت لها لقائي بمالطا كانو في الفندق بشيناغاوا. وأخبرتها عن ربطة عنقي المرقطة، وأنني لم أجد لها أثراً في الخزانة. ومع ذلك تمكنت مالطا كانو من العثور عليّ في صالة الشاي المزدحمة. وعن ذوقها الغريب في اختيار الملابس، وطريقة حديثها الغريبة، وقدمت لها وصفاً لذلك.

استمتعت كوميكو بحديثي عن قبعة مالطا كانو الحمراء، لكنها أصيبت بخيبة أمل كبيرة عندما لم أستطع تقديم إجابة واضحة فيما يتعلق بمكان القط.

قالت محتجة: «إذاً فهي أيضاً لا تعرف مكان القط؟ وأفضل ما استطاعت فعله هو إخبارك أن القط لم يعد في حيّنا؟»

قلت: «هذا كل ما في الأمر». وقررت ألا أذكر شيئاً عن «التيار المعاق» في المكان الذي نعيش فيه، وأن هذا قد يكون له علاقة باختفاء القط. إذ كنت أعلم أن هذا سيزعج كوميكو، ومن ناحيتي، لم أكن أرغب في زيادة عدد الأشياء التي علينا القلق حيالها. سنواجه مشكلة كبيرة إذا أصرت كوميكو على الانتقال من المنزل لأنه «مكان سيئ». سيكون من المستحيل علينا أن ننتقل إلى منزل آخر نظراً لوضعنا الحالي.

قلت: «هذا كل ما أخبرتني به، لم يعد القط بالجوار».

«مما يعني أنه لن يعود أبداً؟»

«لا أدري. كانت غامضة بشأن كل ما قالته. ولم تقدم لي سوى تلميحات صغيرة. لكنها قالت إنها ستتصل بي عندما تكتشف المزيد».

«هل تصدقها؟»

«من يدري؟ لا أعرف شيئاً عن مثل هذه الأمور».

سكبت لنفسي مزيداً من الجعة. وأسندت كوميكو مرفقها إلى الطاولة وذقنها في يدها.

قالت: «لا بد أنها أخبرتك أنها لن تقبل أموالاً أو هدايا من أي نوع».

«أجل، وهذه حسنة بلا شك. ما المشكلة إذاً؟ لن تأخذ أموالنا، ولن تسرق أرواحنا، ولن تختطف الأميرة. ليس لدينا ما نخسره».

«أريد منك أن تفهم شيئاً واحداً، ذلك القط يهمني كثيراً، أو ينبغي أن أقول يهمنا. وجدناه بعد أسبوع من زواجنا، معاً، أتذكر؟»

«أذكر بالطبع».

«وجدناه صغيراً جداً، ومبتلاً تحت المطر المنهمر. كنت قد خرجت لمقابلتك في المحطة حاملة مظلة. يا للمسكين الصغير! رأيناه في طريقنا إلى المنزل. ألقاه أحدهم في صندوق جعة جوار متجر كحوليات. وهو أول قط أقتنيه، ومهم بالنسبة لي، ورمز من نوع ما. لا يسعني فقدانه».

«لا تقلقي، أعرف ذلك».

«إذاً أين هو؟ انقضت عشرة أيام منذ اختفائه. لهذا اتصلت بشقيقي، ظننت أنه ربما يعرف وسيطاً أو مستبصراً أو ما شابه، شخص يمكنه إيجاد قط مفقود. وأعرف أنك لا تحب أن تطلب من شقيقي أي شيء. لكنه سار على خطى والدي، ويعرف الكثير عن هذه الأشياء».

«آه، أجل. تقليد عائلة واتايا». قلت ذلك بهدوء ولطف كنسمة مسائية على شاطئ نهر. واستطردت: «لكن ما العلاقة بين نوبورو واتايا وهذه المرأة؟»

هزت كوميكو كتفيها «أنا متأكدة أنه قابلها صدفة، يبدو أن لديه كثير من المعارف هذه الأيام».

«أراهن على ذلك».

قالت: «يقول إنها تملك قوى مذهلة، لكنها غريبة قليلاً». ثم نقرت طبق المعكرونة الذي أمامها. «ما اسمها مجدداً؟»

«مالطا كانو. مارست نوعاً من التقشف الديني في مالطا».

«هذا هو، مالطا كانو. ما هو انطباعك عنها؟»

نظرتُ إلى يديّ المستلقيتين على الطاولة «يصعب القول. على الأقل لم تكن مملة. وهذا أمر جيد. أعني أن العالم مليء بأشياء لا يمكن تفسيرها، ولا بد أن يملأ أحدهم هذا الفراغ. ومن الأفضل ألا يكون شخصاً مملاً. صحيح؟ مثل السيد هوندا».

انفجرت كوميكو ضاحكة على ذكر السيد هوندا. «لقد كان عجوزاً رائعاً، أليس كذلك؟ أحببته كثيراً».

قلت: «أنا أيضاً».

*

كنا نذهب إلى منزل السيد هوندا العجوز مرة كل شهر لمدة عام بعد زواجنا، وهو أحد الذين يمارسون تقمص الأرواح، ومن المفضلين لدى عائلة واتايا فيما يتعلق بالاتصال الروحي. لكنه يعاني ضعف السمع. وكان بالكاد يسمع ما نقوله، حتى مع معينات السمع. وكنا نضطر للصياح بصوت عال لدرجة أن أصواتنا تتسبب في اهتزاز ورق الشوجي. كنت أتساءل ما إذا كان يمكنه سماع ما تقوله له الأرواح إن كان سمعه ضعيفاً لهذه الدرجة. لكن ربما يكون العكس هو الصحيح. كلما ضعف سمعك، ازدادت مقدرتك على سماع كلمات الأرواح. فقدَ سمعه في الحرب. كان ضابط صف في حامية اليابان في منشوريا، التابعة لجيش كوانتونغ. وأصيب بثقب في طبلة أذنه عندما انفجرت بجانبه قذيفة مدفعية أو قنبلة يدوية خلال معركة مع وحدة تابعة لجيش منغوليا الخارجية بدعم من السوفييت في نومونهان، الواقعة على الحدود بين منغوليا الخارجية ومنشوريا.

لم يكن دافع زياراتنا إلى منزل السيد هوندا إيمان من جانبنا بقواه الروحية. فلم أكن أهتم بهذه الأشياء إطلاقاً. ولم تكن كوميكو، مثل والدها وشقيقها، تثق كثيراً

بخوارق الطبيعة. بيد أنها كانت تؤمن قليلاً بالخرافات، ويمكن أن تنزعج من إحدى التكهنات المشؤومة. لكنها لم تتمادَ كثيراً في المسائل الروحية.

السبب الوحيد لذهابنا للقاء السيد هوندا هو أن والدها أمرنا بذلك. وقد كان ذلك هو الشرط الوحيد الذي اشترطه لزواجنا. صحيح أنه كان شرطاً غريباً، لكننا أذعنّا لتفادي أي تعقيدات. لم نكن نتوقع معاملة لطيفة من عائلتها. والدها مسؤول حكومي، والابن الأصغر لعائلة متواضعة تعمل بالزراعة في نيغاتا. التحق بجامعة طوكيو المرموقة بمنحة، وتخرج بمرتبة الشرف، وأصبح عضواً رفيعاً بوزارة النقل. وكل هذا مثير للإعجاب في رأيي. لكن كما هو الحال غالباً مع الرجال الذين نجحوا في الحياة بهذه الطريقة، كان متعجرفاً ويرى نفسه أقوم أخلاقاً من الآخرين. ومعتاد على إصدار الأوامر، ولا يخامره أدنى شك في قيم العالم الذي ينتمي إليه. والترتيب الهرمي يعني له كل شيء. ينحني لمن هم أعلى منه دون نقاش، ويسحق من هم دونه بلا تردد. لم نعتقد، أنا وكوميكو، أن رجلاً كهذا قد يقبل بنكرة فقير مثلي - في الرابعة والعشرين دون منصب أو نسب معروف أو حتى درجات محترمة أو مستقبل واعد - زوجاً لابنته. وقررنا -بعد أن يرفض والداها- أن نتزوج بطريقتنا الخاصة، ونعيش دون أن تربطنا بهما صلة.

مع ذلك، قمت بالتصرف الصحيح، وذهبت لطلب يد كوميكو من والديها رسمياً. القول بأن استقبالهم لي كان بارداً سيكون تعبيراً ملطفاً، بدا لي أن جميع ثلاجات العالم فُتحت في وقت واحد.

كانت موافقتهما في النهاية -على مضض وبعد تحول مثير في الأحداث أقرب لأعجوبة- بفضل السيد هوندا. الذي سألهم عن كل ما يعرفونه عني، وقال لهم أخيراً إنه إذا كانت ابنتهم ستتزوج، فأنا أفضل زوج لها. وفي حال رغبتها في الزواج بي، سوف تقع عواقب وخيمة إذا عارضا الزواج. كان والدا كوميكو يثقان ثقة مطلقة بالسيد هوندا حينئذٍ. وعليه لم يكن أمامهما خيار سوى أن يقبلا بي زوجاً لابنتهما.

لكن بعد كل هذا، لطالما شعرت بأنني دخيل، كضيف غير مدعو. كنا نزورهما ونتناول معهما العشاء مرتين شهرياً بانتظام ميكانيكي. وقد كانت تلك الزيارات

بالنسبة لي أوقاتاً بغيضة بحق، وعذاباً محضاً. فخلال الوجبة، أشعر بأن طاولة غرفة الطعام بطول محطة قطار. يأكلون ويتحدثون عن شيء ما بعيداً في الطرف الآخر، وأنا أبعد من أن يروني. استمر هذا الوضع عاماً. حتى نشبت بيني وبين والد كوميكو مشادّة عنيفة، وعلى إثرها لم نر بعضنا أبداً. وقد أشعرني ذلك بنشوة عارمة. لا شيء يرهق المرء أكثر من التزامات لا معنى لها.

مع ذلك، ألزمت نفسي بالحفاظ على علاقة مستقرة بيننا فترة بعد زواجنا. ومما لا شك فيه أن أقل إلتزاماتي إيلاماً كانت تلك اللقاءات الشهرية بالسيد هوندا.

تكفّل والد كوميكو بجميع مدفوعات السيد هوندا. وكل ما كان علينا فعله هو زيارة منزل السيد هوندا في ميغورو مرة في الشهر، حاملين معنا قنينة كبيرة من الساكي، والاستماع إلى ما يقوله، ثم العودة إلى المنزل. هكذا ببساطة.

أحببنا السيد هوندا على الفور. كان رجلاً عجوزاً لطيفاً، يُشرق وجهه كلما رأى الساكي الذي نجلبه له. أحببنا كل شيء فيه، ربما عدا صوت تلفازه المرتفع دوماً بسبب ضعف سمعه.

دائماً ما كنا نذهب إلى منزله صباحاً. صيفاً وشتاءً. يجلس وساقيه مطويتان تحته أمام مدفأته الغائرة. في الشتاء، يحيط خصره بلحاف كيما يحافظ على حرارة الفحم. وفي الصيف لا يلتحف بأي شيء. من الواضح أنه كان قارئ كف شهير، لكنه يعيش بتواضع وزهد. كان منزله صغيراً، ومدخله كبير بما يكفي شخصاً واحداً بالكاد أن يحل أو يربط حذاءه. وحصائر القش على الأرضية بالية، وألواح النوافذ المشققة مرقعة بشريط لاصق. وعلى الجانب الآخر من الشارع توجد ورشة صيانة آلية، حيث دائماً ما يكون أحدهم يصرخ بأعلى صوته. كان السيد هوندا يرتدي كيمونو أشبه برداء نوم ومعطف عمل تقليدي في الوقت نفسه، وليس ثمة ما يشير إلى أنه غُسِل في الماضي القريب. يعيش وحده، وتأتي امرأة لتقوم بأعمال الطبخ والنظافة. ولسبب ما، لا يدعها تغسل رداءه. وتتدلى شعيرات خشنة من وجنتيه الغائرتين.

إن كان ثمة شيء في منزل السيد هوندا يمكن أن يوصف بأنه مثير للإعجاب، فهو التلفاز الملون العملاق. لأن له حضور طاغ بفخامته في مثل ذلك المنزل الصغير. ودائماً ما يكون مضبوطاً على شبكة إن إتش كيه الحكومية. لم تكن لدي وسيلة لمعرفة إن كان ذلك لأنه يحب شبكة إن إتش كيه، أم لأنه لا يود أن يكلف نفسه عناء تغيير القناة، أم إن كان ذلك جهاز لا يستقبل سوى إن إتش كيه. كان التلفاز العملاق هو ما يشغل فجوة الجدار المخصصة للطقوس، بدلاً من باقة زهور أو لفافة خط. ودائماً ما يجلس السيد هوندا في مواجهته، وهو يحرك القضبان المنشعبة على الطاولة فوق مدفأته الغائرة، وإن إتش كيه تعرض برامج الطبخ، وتعليمات الاعتناء بالـ بونساي[6]، وتحديثات الأخبار، والنقاشات السياسية.

«مجال القانون قد لا يكون مناسباً بالنسبة لك يا بُني». قال السيد هوندا ذات يوم، إما لي أو لشخص آخر يقف خلفي بعشرين ياردة.

«حقاً؟»

«نعم، القانون يحكم الأشياء في هذا العالم، في النهاية. العالم حيث يكون الظل ظلاً والضوء ضوءاً، واليين يين واليانغ يانغ[7]. 'أنا أنا وإنه هو. أنا أنا و/إنه هو:/ عشية الخريف'. لكنك لا تنتمي إلى ذلك العالم يا بُني. العالم الذي تنتمي إليه فوق هذا أو تحته».

سألت بدافع الفضول فحسب: «أيهما أفضل؟ فوق أم تحت؟»

قال: «الأمر ليس أن أحدهما أفضل». وبعد نوبة قصيرة من السعال، بصق كتلة من البلغم في منديل ورقي وتفحصها من كثب قبل أن يجعّد المنديل ويلقيه في سلة المهملات. ثم تابع: «إنها ليست مسألة أفضل أو أسوأ. المغزى هو ألا تقاوم التيار، تصعد عندما يفترض بك أن تصعد، وتهبط عندما يفترض بك أن تهبط. عندما

6بونساي: فن ياباني يعني بغرس وتربية الشجيرات في أصص. يسميه البعض فن زراعة الأشجار المصغرة، أو تقزيم الأشجار.

7يين ويانغ: القوتان المؤديتان لحدوث أي شيء في الحياة، وتعبران عن الازدواجية الثنائية في الكون، وفقاً لمبادئ وفلسفة الطاويين. اليين يرتبط بالظلام، والبرودة، والسكون، والأرقام الأحادية، والمنحنيات...إلخ. واليانغ يرتبط بالنور والحرارة، والديناميكية، والأرقام الزوجية، والخطوط المستقيمة...إلخ. (المترجم).

يفترض بك أن تصعد، اعثر على أعلى برج وتسلق حتى تبلغ قمته. وعندما يفترض بك أن تهبط، اعثر على أعمق بئر وانزل إلى قاعها. عندما لا يوجد تيار، ابق ساكناً. إذا قاومت التيار، فسيجف كل شيء. وإذا جف كل شيء، فالعالم ظلام. 'أنا إنه و/هو أنا: غسق ربيعي'. اهجر نفسك، وستجدها».

سألته كوميكو: «هل نحن في أحد الأوقات التي لا تيار فيها؟»

«ماذا قلت؟»

زعقت كوميكو: «**هل نحن في أحد الأوقات التي لا تيار فيها؟**»

قال السيد هوندا وهو يومئ لنفسه: «ما من تيار الآن. الآن هو الوقت الذي تظل فيه ساكناً. لا تفعل أي شيء. كن حذراً من الماء فحسب. الماء غير الموجود حيث يفترض وجوده. والماء الموجود حيث لا يفترض وجوده. على أي حال، كن في غاية الحذر من الماء».

كانت كوميكو بجانبي تومئ بكل رصانة، لكنني لاحظت أنها تجاهد لتكتم ضحكتها.

سألتُه: «أي نوع من الماء؟»

«لا أدري. ماء».

كان أحد الأساتذة الجامعيين على التلفاز يقول إن استخدام الناس الفوضوي لقواعد اللغة اليابانية يتطابق بدقة مع مقدار الفوضى في أسلوب حياتهم. «لا يمكننا أن نسميها فوضى بالطبع، إن شئنا الدقة. القواعد مثل الهواء: قد يحاول أحدهم في الأعلى أن يضع قواعداً لاستخدامه، لكن الناس لن يلتزموا بها بالضرورة». بدا لي ذلك مثيراً للاهتمام، لكن السيد هوندا واصل حديثه عن الماء.

قال: «أقول لك الحقيقة، أنا عانيت مع الماء. انعدمت المياه في نومونهان. كان الخط الأمامي في حالة يرثى لها، وقُطعت الإمدادات. ما من مياه، أو مؤن، أو ضمادات، أو ذخيرة. كان وضعاً مريعاً. لم يهتم الرجال في المؤخرة سوى بشيء

واحد فقط، وهو احتلال المنطقة بأسرع ما يمكن. ولم يكن أي أحد يفكر بالإمدادات. وكنت بلا ماء تقريباً، ثلاثة أيام. إذا تركت قماشة في الخارج، فستجدها رطبة بالندى في الصباح، ويمكنك أن تعتصر منها بضع قطرات لترطب بها حلقك. وهذا كل شيء. لم يكن يوجد أي مصدر آخر للمياه. أردت أن أموت. فقد كان الوضع سيئاً للغاية. العطش بتلك الدرجة هو أسوأ شيء في العالم. كنت مستعداً للركض وتلقي رصاصة. وكان الرجال المصابون بالرصاص في بطونهم يصرخون طلباً للماء. وفقد بعضهم صوابهم بسبب العطش. كان جحيماً لا يطاق. كنا نرى نهراً كبيراً ينساب أمامنا، لكن لم يكن بمقدورنا بلوغه. إذ يحول بيننا وبينه رتل من الدبابات السوفييتية العملاقة ذات قاذفات اللهب، ورشاشات منتصبة بتحفز، ورماة مصطفين في منطقة عالية. ولم نكن نحمل سوى بنادق مشاة موديل 38 وخمس وعشرين رصاصة لكل جندي. ومع ذلك، لم يستطع رفاقي التحمل وذهبوا إلى النهر، ولم يعد أيٌ منهم. قُتِلوا جميعاً. إذاً، كما ترى، عندما يفترض بك أن تبقى ساكناً، ابق ساكناً».

استل منديلاً ورقياً، وتمخّط بصوت عال، وتفحص الحصيلة قبل أن يجعد المنديل ويلقيه في سلة المهملات.

تابع: «قد يكون من الصعب انتظار بدء التيار. لكن عندما يتعيّن عليك أن تنتظر، عليك أن تنتظر. وفي غضون ذلك، افترض أنك ميت».

سألته: «أتعني أنه ينبغي لي أن أظل ميتاً في الوقت الحالي؟»

«ماذا قلت؟»

«أتعني أنه ينبغي لي أن أظل ميتاً في الوقت الحالي؟»

«بالضبط يا بُني. ‘الموت هو السبيل الوحيد أمامك/ حتى تطفو حراً:/ نومونهان’»

ظل يتحدث عن نومونهان ساعة أخرى. وظللنا جالسين نستمع فحسب. فقد أُمِرنا بـ «تلقّي دروسه»، لكن خلال عام من الزيارات الشهرية إلى منزله، لم تكن لديه

«دروس» لنا لـ «نتلقاها». ونادراً ما كان يتكهّن أو يتنبأ لنا. الموضوع الوحيد الذي تحدث عنه هو واقعة نومونهان: كيف أن قذيفة مدفع فجّرت نصف جمجمة ملازم كان يقف جواره، وكيف أنه وثب على دبابة سوفييتية وأحرقها بقنبلة مولوتوف، وكيف أنهم حاصروا طياراً سوفييتياً على الأرض وأطلقوا عليه النار. كل هذه القصص كانت مثيرة للاهتمام ومشوقة، لكن كما هو الحال مع كل شيء آخر، عندما سمعت القصص سبع أو ثمانية مرات، فقدت إثارتها. كما إنه لم يكن «يحدثنا» بقصصه ببساطة، إنما كان «يصيح» بها. كما لو أنه يقف على حافة هاوية في يوم عاصف، ويصيح إلينا عبر هوة سحيقة. كان الأمر مثل مشاهدة فيلم لكوراساوا من الصف الأمامي بصالة سينما. ولم نكن نسمع جيداً لمدة بعد مغادرتنا منزله.

رغم ذلك، استمتعنا - أو على الأقل، استمتعت أنا- بالاستماع لقصص السيد هوندا. كانت معظمها دموية، لكنها صادرة من لسان عجوز يحتضر ويرتدي رداءً قديماً متسخاً. تفاصيل معركة فقدت سماتها الواقعية، وصارت كالقصص الخيالية.

قبل نصف قرن تقريباً، خاضت وحدة السيد هوندا معركة ضارية في منطقة قاحلة على الحدود المنشورية المنغولية. لم أكن أعرف شيئاً عن قصة معركة نومونهان قبل أن أسمعها من السيد هوندا. كانت معركة استثنائية، تحدّوا فيها القوات السوفييتية ذات الأسلحة المتفوقة، وهم عزّل تقريباً. وقد سُحقوا. أبيدت الوحدة تلو الأخرى. أمر بعض الضباط -بمبادرة منهم- جنودهم بالانسحاب حتى يتجنبوا الإبادة، فأجبرتهم القيادة العليا على الانتحار. ورفض معظم الجنود الذين أسرهم السوفييت المشاركة في تبادل الأسرى بعد الحرب، لأنهم كانوا يخشون أن يُحاكموا بتهمة الفرار من مواجهة العدو، وقد أمضى أولئك الرجال بقية حياتهم في منغوليا ودُفنوا في ترابها. أُرسِل السيد هوندا إلى الديار بتسريح مشرّف بعدما فقد سمعه، وأصبح عرّافاً.

قال: «كان كل ذلك لمصلحتي. إذا لم يتضرر سمعي، كنت سأموت في جنوب المحيط الهادي على الأرجح، حيث أرسلوا معظم الجنود الناجين من معركة نومونهان، التي كانت مصدر حرج بالغ للجيش الإمبراطوري. لذلك أرسلوا الناجين

منها إلى جبهات يحتمل أن يلاقوا فيها حتفهم. حصل قادة الوحدات الذين أخفقوا في نومونهان على وظائف رفيعة في القيادة المركزية، حتى إن بعض الأوغاد أصبحوا سياسيين بعد الحرب. لكن الرجال الذين جازفوا بحياتهم من أجلهم ماتوا جميعاً تقريباً».

سألته: «لماذا كانت نومونهان مصدر حرج للجيش؟ قاتل جميع الجنود ببسالة، ومات كثيرون منهم، صحيح؟ لماذا عومل الناجون تلك المعاملة السيئة؟»

لكن بدا لي أن السيد هوندا لم يسمع سؤالي، وراح يحرك قضبانه المنشعبة.

قال: «من الأفضل لك أن تحذر الماء».

وبهذا انتهت جلسة اليوم.

*

توقفنا عن الذهاب إلى منزل السيد هوندابعد شجاري مع والد كوميكو. كان من المستحيل أن أواصل زيارته مدركاً أن حماي هو من يدفع له، ولم تكن لدينا أي مقدرة على الدفع له بأنفسنا، إذ كنا نتدبر أمرنا بالكاد في تلك الأيام. وفي النهاية، نسينا أمر السيد هوندا، تماماً كما ينسى معظم الشبان أمر معظم العجائز.

*

مضجعاً في الفراش تلك الليلة، رحت أفكر بالسيد هوندا. حدثني، هو ومالطا كانو، عن الماء. طالبني السيد هوندا بالحذر منه، وانخرطت مالطا كانو في تجربة تقشف بجزيرة مالطا لها علاقة ببحثها المتعلق بالماء. ربما كانت مصادفة. لكن الاثنين أبديا اهتماماً شديداً بالماء. وبدأ الأمر يقلقني. تحولت بأفكاري إلى صور من أرض المعركة بنومونهان: الدبابات السوفييتية والرشاشات، والنهر ينساب خلفها، والعطش الذي لا يحتمل. وكنت أسمع صوت النهر في الظلام.

قالت كوميكو بصوت منخفض: «تورو، هل أنت مستيقظ؟»

«نعم».

«بالنسبة لربطة العنق. لقد تذكرت للتو، أخذتها إلى المغسلة في ديسمبر الماضي. كانت بحاجة إلى عناية، ونسيتها».

«ديسمبر؟ قبل ستة أشهر يا كوميكو!».

«أعرف. ليس من عادتي أن أنسى الأشياء هكذا، كما تعرف. إنها ربطة عنق جميلة». وضعت يدها على كتفي. «أخذتها إلى المغسلة التي بجوار المحطة. أتعتقد أنها ما تزال هناك؟»

«سوف أذهب غداً، ستكون موجودة على الأرجح».

«ما الذي يجعلك تعتقد هذا؟ ستة أشهر مدة طويلة. وتتخلص معظم المغاسل من الأشياء التي لم يأخذها أصحابها خلال ثلاثة أشهر. والقانون يسمح لهم بفعل ذلك. ما الذي يجعلك تعتقد أنها ما تزال موجودة؟»

«قالت مالطا كانو إنني سأجدها، في مكان خارج المنزل».

شعرتُ بنظراتها في الظلام.

«أتعني أنكَ تصدق ما تقوله؟»

«بدأتُ أصدق».

«ربما ستنسجم مع شقيقي قريباً». قالت وفي صوتها نبرة سرور.

«ربما».

ظللت أفكر بميدان معركة نومونهان بعد نوم كوميكو. جميع الجنود ينامون هناك، والسماء فوقهم مرقشة بالنجوم. ملايين الجداجد تصدر صريرها. وكان بإمكاني سماع صوت النهر، وغرقت في النوم منصتاً إلى هدير تياره.

5

مدمن على حلوى الليمون

*

طائر لا يطير وبئر جافة

بعدما غسلت أطباق الإفطار، ركبت دراجتي إلى المغسلة التي بجوار المحطة. كان المالك -وهو رجل نحيل في أواخر الأربعينات بتجاعيد عميقة على جبهته- يستمع إلى أوركسترا بيرسي فيث على مشغل موسيقى موضوع على رف. كان ضخماً من طراز جي في سي مع مكبرات صوت إضافية متصلة به، وإلى جانبه تل من أشرطة الكاسيت. كانت الأوركسترا تعزف مقطوعة 'تاراز ثيم'[8]، وكانوا يجيدون أداء الجزء الكبير الخاص بالآلات الوترية. كان المالك نفسه في الجزء الخلفي من المحل، يصفّر مع الموسيقى وهو يمرر مكواة بخارية فوق قميص بحركات نشطة. اقتربت من الخزينة وأوضحت، بعد تقديم اعتذارات مناسبة، أنني قد جلبت ربطة عنق في نهاية العام الماضي ونسيت أن آتي لأخذها. بالنسبة لعالمه الصغير الهادئ عند التاسعة والنصف صباحاً، لا بد أن ظهوري أمامه كان أشبه بوصول رسول يحمل أخباراً فظيعة في مسرحية تراجيدية إغريقية.

قال بصوت ساهم:«أفترض أنك ليس معك تذكرة أيضاً». لم يكن يتحدث إلي، بل إلى الرزنامة التي على الحائط إلى جانب الخزينة، تُظهِر صورة يونيو جبال الألب، ووداي أخضر، وأبقار ترعى، وسحب بيضاء معلقة فوق جبل مونت بلانك، أو ماترهون، أو ما شابه. ثم نظر إلي وتعابير وجهه تقول: 'إذا نسيت ذلك الشيء اللعين، فيجدر بك ان تنساه!'. كانت نظرة مباشرة وبليغة.

---

[8] Tara's Theme

«نهاية العام، هه؟ يصعب إيجادها. نحن نتحدث عن ستة أشهر. حسناً، سألقي نظرة، لكن لا تتوقع مني العثور عليها».

أطفأ المكواة، وأخذ ينقب بين الرفوف، وفي الخزانة الخلفية، وهو يصفر مع أغنية فيلم ‘مكان صيفي’[9].

عندما كنت في المدرسة الثانوية، اصطحبت صديقتي لمشاهدة ‘مكان صيفي’، بطولة تروي دوناهو وساندرا دي. شاهدناه في دار سينما تعيد عرض الأعمال القديمة في عرض مشترك مع فيلم ‘تابع الفتية’[10] لكوني فرانسيس، وقد كان سيئاً للغاية، حسبما أذكر، لكن سماع الموسيقى حينئذٍ في المغسلة بعد ثلاثة عشرة عاماً، أعاد لي ذكريات جميلة من ذلك الوقت.

«هل كانت ربطة عنق زرقاء مرقطة ؟باسم أوكادا؟»

«إنها هي».

«حالفك الحظ».

*

حالما وصلت إلى المنزل، اتصلت بكوميكو في العمل.

«وجدت ربطة العنق»

قالت: «عظيم. أحسنت، هنئياً لك».

بدا كلاهما مصطنعاً، كالإشادة بابن أحرز درجات جيدة، وقد أشعرني ذلك بالضيق. كان يجدر بي الانتظار حتي استراحة الغداء قبل أن أتصل.

---

[9] A Summer Place
[10] Follow The Boys

قالت: «لقد ارتحت كثيرا، لكن أحدهم ينتظرني الآن، آسفة، أيمكنك معاودة الاتصال عند الظهر؟»

«حسناً».

بعدما وضعت السماعة، قصدت الشرفة لأجلب الصحيفة. وكالعادة، تمددت على بطني ناشراً أمامي صفحة إعلانات الوظائف، متأنياً في قراءتها من بدايتها إلى نهايتها. الأعمدة مليئة بتلميحات وشفرات مستغلقة. تنوع مجالات العمل في هذا العالم مذهل، وكلٌ له مكانه في صفوف الصحيفة المنظمة، كأنها خريطة مقابر جديدة.

سمعت طائر الزنبرك يلف زنبركه على شجرة في مكان ما، كما يحدث كل صباح. طويت الصحيفة، وجلست مسنداً ظهري إلى عمود، ونظرت إلى الحديقة، وسرعان ما أطلق الطائر صيحته الحادة مرة أخري، صوت صرير ممتد جاء من أعلى شجرة صنوبر جاري، جاهدت لرؤيته من خلال الأغصان، لكن لم يكن ثمة ما يدل على وجود الطائر، لا شيء سوى صيحته، كالعادة. وهكذا حظي العالم بلفة الزنبرك الخاصة باليوم.

بدأت السماء تمطر قبيل العاشرة بقليل، لم يكن مطراً غزيراً، ويصعب الجزم بأنها تمطر حقاً. القطرات دقيقة للغاية، لكن إذا دققت النظر يمكنك معرفة ذلك. يوجد العالم في حالتين: ممطرة، وغير ممطرة. وينبغي أن يكون هناك خط فاصل يرسم الحدود بينهما. ظللت جالساً في الشرفة بعض الوقت، محدقاً إلى الخط الذي يفترض وجوده.

ما الذي ينبغي لي فعله حتى حلول موعد الغداء؟ أأذهب للسباحة في حوض السباحة المجاور؟ أم إلى الزقاق لأبحث عن القط؟ متكئاً على عمود الشرفة، أشاهد المطر يتساقط علي الحديقة، رحت أتأرجح جيئة وذهابا بين الاثنين. حوض السباحة. القط.

فاز القط. قالت مالطا كانو إن القط لم يعد في الحي، لكن واتتني رغبة ملحة في الخروج والبحث عنه.أصبحت مطاردة القط جزءاً من روتيني اليومي. وإلى جانب ذلك، قد تبتهج كوميكو بدرجة ما عندما تعلم أنني حاولت. ارتديت معطف المطر الخفيف، وقررت ألا أحمل مظلة. وانتعلت حذاء التنس وغادرت المنزل ومعي المفتاح وبضع قطع من حلوى الليمون في جيب المعطف. عبرت الباحة، وما إن وضعت يداً علي الجدار الخرساني، رن هاتف.فتجمدت في مكاني وأصِخت السمع، لكن لم أتمكن من معرفة ما إذا كان هاتفنا أم هاتف الجيران. في اللحظة التي تغادر فيها المنزل، تتشابه أصوات جميع الهواتف. تجاهلت الأمر وتسلقت فوق الجدار.

كنت أشعر بالعشب الناعم من خلال الأرضية الرقيقة لحذاء التنس. وكان الزقاق أهدأ من المعتاد. توقفت برهة حابساً أنفاسي محاولاً سماع شيء ما، لكنني لم أسمع شيئاً. توقف الهاتف عن الرنين. ولم أسمع زقزقة الطيور أو ضجيج الشارع. كانت السماء مصطبغة بلون رمادي بديع. في أيام كهذه، علي الأرجح تمتص الغيومُ الأصواتَ من سطح الارض. وليس الأصوات فحسب، بل وجميع أنواع الأشياء، مثل الإدراك.

سرت في الزقاق الضيق،مقحماً يديّ في جيبي معطفي، وانزلقت جانبياً بين الجدران، حيث تبرز أعمدة حبال الغسيل إلى الممر. وعبرت تحت إفريز نوافذ بعض المنازل مباشرة. بهذه الطريقة شققت طريقي بصمت خلال الممر الذي يذكّر بقناة مهجورة، ولم يصدر حذاء التنس على الأرض أي صوت.

الصوت الحقيقي الذي سمعته خلال رحلتي القصيرة كان صوت المذياع في أحد المنازل، كان مضبوطًاً على برنامج حواري يناقش مشاكل المتصلين. رجلٌ في منتصف العمر يتذمر للمضيف من حماته. ومن القليل الذي التقطته أذناي، كانت المرأة في الثامنة والستين ومهووسة بسباق الخيل. وما إن تخطيت المنزل، بدأ صوت المذياع يتلاشى حتى انقطع،كما لو أن ما تلاشى تدريجياً إلى عدم لم يكن صوت المذياع فحسب، بل الرجل الذي في منتصف عمره وحماته المهووسة بالخيول أيضاً. لا بد أن كليهما موجودان في مكان ما من العالم.

وصلت إلى المنزل المهجور أخيراً. وقفت عنده، ووجدته ساكناً كعهدي به.

لاح لي المنزل - على خلفية من الغيوم الرمادية المنخفضة، ومصاريع العواصف بالطابق الثاني مغلقة - كوجود من الظلال القاتمة. كان من الممكن أن يكون سفينة شحن عملاقة علقت في شعب مرجانية ذات ليلة عاصفة منذ أمد بعيد وتُرِكت لتتعفن. ولولا زيادة طول العشب منذ زيارتي الأخيرة، ربما كنت لأعتقد أن الزمن قد توقف في هذا المكان. وبفضل الأيام الممطرة الطويلة، توهجت أوراق العشب ببريق أخضر غامق، وعبقت منه رائحة البرية المميزة للأشياء التي تغرس جذورها في التربة. وفي منتصف هذا البحر من العشب، ينتصب تمثال الطائر، بنفس وضعيته التي رأيته عليها في المرة السابقة، فارداً جناحيه متأهباً للتحليق. وهذا طائر لا يستطيع الطيران بالطبع. كنت أعرف ذلك والطائر يعرفه أيضاً. سيظل قابعاً في المكان الذي نُصِب فيه حتي يُنتزع من مكانه أو يحطم إلى أشلاء،وليس أمامه خيارات أخرى لمغادرة الحديقة. الشيء الوحيد الذي يتحرك هناك كان فراشة بيضاء، ترفرف فوق العشب بعد بضعة أسابيع من انقضاء موسمها. كانت تتحرك بلا يقين، كباحث نسي ما كان يبحث عنه. وبعد خمس دقائق من الرفرفة العقيمة، طارت الفراشة إلى مكان ما.

اتكأت على السياج المعدني، وأنا أمص حلوي الليمون، ونظرت إلى الحديقة. ما من إشارة إلى وجود القط، وما من إشارة لأي شيء. بدا المكان كبركة ساكنة راكدة، فيها قوة هائلة احتجزت تيارها الطبيعي.

شعرت بوجود أحدهم خلفي فاستدرت بسرعة، لكن لم يكن هناك أحد، لا يوجد سوى السياج علي الجانب الاخر من الزقاق، وبوابة صغيرة في السياج، وهي البوابة التي كانت تقف عندها الفتاة، لكنها مغلقة. ولا أثر لأي شخص. كان كل شيء صامتا وكئيباً. اجتاحتني روائح العشب، والمطر، ومعطف المطر الذي ارتديه، وحلوي الليمون تحت لساني، نصف ذائبة - اجتاحتني جميعها في وقت واحد. تلفت لأمسح المكان المحيط بي مرة أخرى، لكن لم يكن ثمة أحد. أرهفت سمعي، فالتقطت

أذناي صوت مكتوم لمروحية بعيدة. هناك أناس بالأعلي، يحلقون فوق الغيوم. لكن حتى ذلك الصوت تلاشى، وأطبق الصمت على المكان مجدداً.

ثمة بوابة من سلاسل معدنية في السياج المحيط بالمنزل الخالي، المصنوع من سلاسل معدنية أيضاً بالطبع. دفعتها متردداً فانفتحت بسهولة خيبت ظني، كما لو كانت تحثني على الدخول. بدا أنها تقول لي: «لا مشكلة، سِر إلى الداخل فحسب». لست مضطراً للاستناد إلى معرفتي المفصلة بالقانون التي اكتسبتها خلال ثمانية سنوات طويلة لأدرك أنني قد أتورط في مشكلة كبيرة اذا لمحني أحد الجيران في المنزل المهجور وأبلغ الشرطة. سيأتون لمساءلتي، وكنت لأقول إنني كنت أبحث عن قطي، وإنه قد اختفي، وقد بحثت عنه في جميع أرجاء الحي. وسيطالبونني بالإفصاح عن عنواني وعملي، وكنت لأقول لهم إنني عاطل عن العمل. وهذا من شأنه أن يزيد شكوكهم. قد يكونون علي الأرجح قلقين حيال إرهابيين يساريين أو ما شابه، ويعتقدون أن إرهابيي اليسار يتحركون في جميع أنحاء طوكيو، ولديهم ترسانات مخبأة من الاسلحة، وقنابل منزلية الصنع. وكانوا ليتصلوا بكوميكو ليتحققوا من روايتي. وسوف تستاء.

أوه، فليكن. دخلت وأغلقت البوابة خلفي. إن كان هناك ما سيحدث، فليحدث. وإن كان هناك ما **يريد** أن يحدث، فليحدث.

عبرت الحديقة، وجُلت في المنطقة بناظريّ. كان حذاء التنس صامتاً كعهدي به. وكانت ثمة أشجار فاكهة قصيرة لا أعرف أسماءها، ومرجة فسيحة طال عشبها. نمَتْ نباتات متسلقة على شجرتي الفاكهة، اللتان بدتا كأنهما تعرضتا للخنق حتى الموت. تحول صف زهور الأوسمانثوس الذي بمحاذاة السياج إلى أبيض شاحب بسبب طبقة بيوض الحشرات. وظلت ذبابة صغيرة عنيدة تطن بالقرب من أذني بعض الوقت.

مررت جوار التمثال الحجري، واتجهت إلى كراسي المرجة البلاستيكية الموضوعة بعضها فوق بعض تحت الإفريز. كان الكرسي الاعلي متسخاً لكن الذي يليه لم يكن سيئاً. نفضت عنه الغبار بيدي وجلست عليه. جعلت الأعشاب الطويلة

التي بين مكان جلوسي وبين السياج رؤيتي مستحيلة من الزقاق، ووفر الإفريز حماية لي من المطر. جلست وأنا أصفّر وأشاهد الحديقة تتلقى نصيبها من قطرات المطر الدقيقة. في البداية لم أكن أعي اللحن الذي كنت أصفّره، ثم أدركت أنه استهلالية 'العقعق السارق' لروسيني، وهو اللحن نفسه الذي كنت أصفره عندما اتصلت بي المرأة الغريبة وأنا أطهو السباغيتي.

جالساً هناك في الحديقة وحدي، وأنا أنظر إلى العشب والطائر الحجري، وأصفر اللحن (على نحو سيئ)، راودني شعور بأنني عدت إلى طفولتي. كنت في مكان سري حيث لا يمكن لأحد أن يراني، وقد أشعرني ذلك بالسكينة. شعرت برغبة في إلقاء حجر -فليكن صغيراً- على هدفٍ ما. سيكون الطائر الحجري مناسباً. كنت لأصيبه بقوة كافية ليصدر صوتاً خافتاً. كنت ألعب هكذا وحدي كثيراً عندما كنت طفلاً. أضع علبة في مكان بعيد نسبياً وألقي فيها الحجارة حتى تمتلئ. كان يمكنني فعل ذلك ساعات. لكن الآن ليس لدي أي حجارة عند قدمي. آه، حسناً، ما من مكان يوجد به كل ما تريد.

رفعت قدميّ وأثنيت ركبتيّ، وأسندت ذقني إلى يدي. ثم أغمضت عيني. ما يزال المكان ساكناً. كان الظلام خلف جفنيّ مثل السماء الملبدة بالغيوم، لكن اللون الرمادي كان أعمق بشكل ما. يأتي أحدهم، كل بضع دقائق، ليطلي فوق اللون الرمادي بلون رمادي أخر بملمس مختلف به مسحة من اللون الذهبي أو الأخضر أو الأحمر. كنت معجباً بتنوع الألوان الرمادية الموجودة. البشر غريبون للغاية، كل ما عليك فعله هو الجلوس بسكون عشر دقائق، وسترى هذه التشكيلة الرائعة من الألوان الرمادية.

وأنا أتصفح كتابي الخاص بعينات اللون الرمادي، بدأت أصفر مجدداً، دون فكرة محددة في ذهني.

«مرحباً». قال أحدهم.

فتحت عينيبسرعة،ومِلت جانباً وتمددت لرؤية البوابة فوق العشب، كانت مفتوحة على مصراعيها. لقد تبعني أحدهم إلى الداخل. بدأ قلبي يخفق بقوة.

«مرحباً». قال الصوت مجدداً، صوت أنثوي، ظهرت فتاة من خلف التمثال، واتجهت نحوي. الفتاة نفسها التي كانت تستلقي تحت الشمس في الباحة على الجانب الآخر من الزقاق. كانت ترتدي تيشيرت أديداس الأزرق الفاتح والسروال القصير نفسه، كما كانت تمشي وهي تعرج قليلاً، الفرق الوحيد عن المرة السابقة هو أنها نزعت نظارتها الشمسية.

سألتني:«ما الذي تفعله هنا؟»

قلت: «أبحث عن القط».

«هل أنت متأكد؟ لا يبدو الأمر لي كذلك، إنك تجلس هنا فحسب وتصفر وعينيك مغمضتين. سيكون من الصعب نوعاً ما إيجاد أي شيء بهذه الطريقة. ألا تعتقد ذلك؟»

شعرت بنفسي أحمر خجلاً.

أردفتْ :«لايهمني ذلك، لكن قد يظن من لا يعرفك أنك منحرف من نوع ما». صمتت قليلاً، ثم قالت: «لستَ منحرفاً ، أليس كذلك؟»

قلت: «لا،على الأرجح».

اقتربتْ مني وتفحصت كراسي المرجة المرصوصة بعناية واختارت كرسياً غير متسخ كثيراً، وتفحصته مرة أخرى قبل أن تضعه على الأرض وتجلس عليه.

«صفيركَ شنيع. لا أعرف اللحن ولكنه غيرمتناغم إطلاقاً. إنك لست شاذاً أليس كذلك؟»

«علي الأرجح لا، لماذا؟»

«أخبرني أحدهم أن الشواذ لا يعرفون الصفير، أهذا صحيح؟»

«من يدري؟ هذا هراء علي الأرجح».

«على أي حال، لا يهمني إن كنت شاذاً أو منحرفاً أو أي شيء. بالمناسبة، ما اسمك ؟ لا أعرف بم أدعوك».

«تورو أوكادا».

رددت اسمي مع نفسها عدة مرات وقالت :«ليس اسما فخيماً، أليس كذلك؟»

قلت:«قد لا يكون كذلك. لطالما ظننت أنه يبدو كاسم وزير خارجية من فترة ما قبل الحرب. تورو أكادا. أترين؟»

«لا يعني لي ذلك شيئاً. أكره التاريخ على أي حال. لا عليك، ألديك لقب؟ شيء أسهل من تورو أوكادا؟»

لم أستطع تذكر أنه كان لدي لقب من قبل ولا مرة في حياتي، لمَ ذلك؟ قلت:«ليس لدي لقب».

«لا شيء؟ دب؟ أو ضفدع؟»

«لاشيء».

«أووه هيا، فكر بشيء؟»

قلت :«طائر الزنبرك».

«طائر الزنبرك؟» سألتني وهي تنظر إلي فاغرة فمها. «وما هذا؟»

«إنه الطائر الذي يلف الزنبرك كل صباح، في قمم الأشجار، إنه يلف زنبرك العالم. *كريييييييك*».

استمرت في التحديق إليَّ.

تنهدتُ وقلت: «إنه شيء خطر ببالي فحسب. وهناك المزيد، يأتي الطائر بالقرب من منزلي ويصيح *كريييييك* من شجرة الجيران، لكن لم يره أحد قط».

«هذا رائع. على أي حال، سأدعوك بالسيد طائر الزنبرك. وهذا ليس من السهل نطقه أيضاً، لكنه أفضل بكثير من تورو أوكادا».

«شكراً جزيلاً».

رفعت قدميها على الكرسي وأسندت ذقنها إلى ركبتيها.

«ماذا عن اسمكِ؟»

«ماي كاساهارا. ماي... مثل شهر مايو».

«هل وُلدتِ في مايو؟»

«أمن الضروري أن تسأل؟ أيمكنك تخيل الارتباك الذي يمكن أن يحدث إذا وُلد أحدهم في يونيو وسُمي ماي؟»

«إنك محقة. أعتقد أنك ما زلت لا تذهبين إلى المدرسة».

قالت متجاهلة سؤالي: «كنت أراقبك منذ وقت طويل، من غرفتي مستخدمة منظاري. ورأيتك تدخل من البوابة. لدي منظار صغير بمتناولي لمراقبة ما يجري في الزقاق. جميع أنواع الناس يمرون من هنا. أراهن أنك لم تكن تعرف هذا. وليس الناس فحسب، بل الحيوانات أيضاً. ما الذي كنت تفعله هنا وحدك طوال ذلك الوقت؟»

«أسرح بأفكاري، وأنسى العالم من حولي،وأفكر بالأيام الخوالي. أصفّر».

عضت ماي كاساها ظفر إبهامها.

قالت: «إنك غريب الأطوار نوعاً ما».

«لست غريب الأطوار.الناس يفعلون ذلك طوال الوقت».

«ربما، لكنهم لا يفعلون ذلك في منزل جار مهجور. يمكنك البقاء في باحتك إن كان كل ما تريد فعله هو الشرود والتفكير بالأيام الخوالي».

كانت محقة في ذلك.

قالت: «على أي حال، أعتقد أن نوبورو واتايا لم يعد إلى المنزل،هه؟»

هززت رأسي.

وسألتها: «وأعتقد أنك لم تريه أيضاً، منذ ذلك الوقت، أليس كذلك؟»

«لا، كنت أترقب ظهوره أيضاً. بني مخطط لديه إلتواء خفيف في طرف ذيله، صحيح؟»

أخرجتْ علبة سجائر من ماركة هوب من جيب سروالها القصير، وأشعلت واحدة بعود ثقاب.وبعدما مجَّت بضعة أنفاس، حدقت إلي مباشرة، وقالت:«شعرك يخف قليلا، أليس كذلك؟»

تحركت يداي آليا إلى مؤخر رأسي.

«ليس هناك، لا تكن سخيفاً. خط شعرك الأمامي، إنه أعلى مما ينبغي، ألا تعتقد هذا؟»

«لم ألاحظه قط».

«حسناً، *أنا* لاحظت. ستصاب بالصلع في مقدم رأسك. سوف تنسحب حدود شعرك للأعلي شئياً فشئياً هكذا». أمسكتْ بخصلة من شعرها الأمامي وأقحمت جبهتها العارية من الشعر في وجهي. «من الأفضل لكَ أن تكون حذراً».

لمستُ خط شعري. ربما تكون محقة. ربما يكون قد انحسر قليلاً. أم إنني أتخيل هذا؟ أمر جديد عليّ القلق بشأنه.

سألتُها: «ما الذي تعنيه؟ كيف يمكنني أن أكون حذراً؟»

«أظن أنه لا يمكنك. ليس ثمة ما يمكنك فعله، لا توجد طريقة للوقاية من الصلع. الرجال الذين سيصابون بالصلع، سيصابون بالصلع عندما يحين الوقت. هذا كل ما في الأمر. إنهم يصابون بالصلع فحسب، وليس هناك ما يمكنك فعله لإيقافه.

يخبرونك أنه يمكنك تفادي الصلع بالعناية المناسبة بشعرك، لكن هذا هراء. انظر إلى المشردين الذين ينامون في محطة شينجوكو، جميعهم لديهم رؤوس كثيفة الشعر، هل تعتقد أنهم يغسلونه يوميا بشامبو كلينيك أو فيدال ساسون، أو يمسحونه باللوشن الفلاني؟ هذا ما سيخبرك به صانعو مواد التجميل، ليستولوا علي أموالك».

قلت وقد أثارت إعجابي: «أنا متأكد أنك محقة، لكن كيف تعرفين الكثير عن الصلع؟»

«كنت أعمل بدوام جزئي لدى شركة تصنع الشعر المستعار قبل مدة. تعرفَ أنني لا أذهب إلىالمدرسة، ولدي كل الوقت لأبدده. كنت أجري الاستطلاعات والاستبيانات ومثل هذه الأشياء. لذلك أعرف كل شيء عن عن فقدان الرجال لشعرهم. إنني متخمة بالمعلومات».

«عظيم».

«لكن أتعرف». قالت وهي تلقي بعقب سيجارتها على الأرض وتسحقه. «في الشركة التي كنت أعمل بها، لا يسمحون لك بأن تقول لأحدهم **'أصلع'**، عليك أن تقول 'رجال يعانون خفة الشعر'، يعتبرون كلمة 'أصلع' لغة تمييزية. كنت أمزح ذات مرة واقترحت: 'السادة الذين يواجهون تحدياً جُرَيْبياً'، ويا للهول! لقد غضبوا أيما غضب. قالوا لي:'هذا ليس موضوعاً للمزاح أيتها الشابة'. إنهم متزمتون للغاية، أتعرف ذلك؟ الجميع في هذا العالم اللعين بأسره متزمتون للغاية».

أخرجت قطعة حلوى الليمون وألقيت واحدة في فمي. قدمت واحدة لماي كاساهارا،فهزت رأسها وأخرجت سيجارة.

«بالمناسبة، يا السيد طائر الزنبرك. كنت عاطلاً عن العمل، أما زلت عاطلاً؟»

«بالطبع».

«هل أنت جاد بشأن العمل؟»

«بالطبع أنا جاد».

ما إن خرجت الكلمات من شفتي، بدأت أتساءل عن مدى صدقها.

استطردتُ: «لست متأكداً في واقع الأمر، أعتقد أنني بحاجة إلى وقت لأفكر. لست متأكداً مما أريده. يصعب شرح ذلك».

نظرت ماي كاسهارا إلي هنيهة وهي تقضم أحد أظافرها «سأخبرك أمرا يا طائر الزنبرك، لِمَ لا تأتِ للعمل معي ذات يوم بشركة الشعر المستعار؟ إنهم لا يدفعون الكثير لكن العمل سهل، ويمكنك تحديد ساعات عملك. ما رأيك؟ لا تفكر كثيراً، وافق فحسب، لتغيير إيقاع حياتك. قد يساعدك العمل على اكتشاف جميع أنواع الأشياء».

كانت محقة.

قلت: «إنك محقة».

«عظيم! عندما أذهب المرة القادمة، سوف آتي لاصطحبك؟ أين قلت إنك تسكن؟»

«أممم، يصعب تحديد ذلك، أو ربما لا. واصلي السير في الزقاق وتابعي جميع التعرجات. إلى اليسار سترين منزلاً، توجد سيارة هوندا سيفيك مركونة خلفه، عليها واحدة من تلك الملصقات التي توضع علي المصد، 'فليعم السلام من أجل شعوب العالم أجمع'، منزلنا هو الذي يليه. لكن لا توجد به بوابة تطل على الزقاق، جدار خرساني فحسب. عليك تسلقه. إنه بارتفاع ذقني تقريباً».

«لا تقلق، يمكنني تسلق جدار بهذا الإرتفاع، لا مشكلة».

«ألم تعد ساقك تؤلمك؟»

نفثت الدخان بما يشبه التنهّد، وقالت:«لا تقلق، إنها بخير. أعرج عندما يكون والديَّ موجودان، لأنني لا أريد أن أذهب إلى المدرسة، أتظاهر فحسب، وقد تحول الأمر إلى عادة. صرت أعرج حتى عندما لا يوجد معي أحد، وعندما أكون في

الغرفة وحدي. أحرص علي بلوغ الكمال في كل ما أفعله.ماذا يقولون؟ اخدع نفسك لتخدع الآخرين؟ لكن على أي حال، يا طائر الزنبرك، قل لي، هل لديك الجرأة؟»

«ليست متأكداً، لا».

«ولم تكن لديك من قبل؟»

«لا، لم أكن يوماً من أصحاب الجرأة، ولن أتغير على الأرجح».

«ماذا عن الفضول؟»

«الفضول مسألة مختلفة، يساورني أحياناً».

«حسناً، ألا تعتقد أن الجرأة والفضول وجهان لعملة واحدة؟ حيث توجد الجرأة يوجد الفضول، وحيث يوجد الفضول توجد الجرأة. ألا تعتقد ذلك؟»

قلت:«امممم، ربما يكونا متشابهان نوعاً ما، قد تكونين محقة، ربما يتداخلان في بعض الأوقات».

«بعض الأوقات مثل عندما تتسلل إلى باحة أحدهم الخلفية».

«نعم، مثل هذه الأوقات». قلت وأنا أحرك حلوى الليمون بلساني. «عندما تتسللين إلى باحة أحدهم. يبدو أن الفضول والجرأة يعملان معاً، يمكن للفضول أن يُخرج الجرأة من مخبئها في بعض الأحيان أو يغذيها، لكن الفضول غالباً ما يتبخر ويتعين علي الجرأة أن تواصل الرحلة الطويلة وحدها، فالفضول مثل صديق مرح لا يمكنكِ أن تثقي به. يبدأ معك ثم يتركك لتكملي طريقك وحدك مستعينةً بالجرأة التي يمكنك استجماعها».

فكرَتْ بكلامي للحظة،وقالت: «أظن ذلك، أظن أن هذه وجهة نظر جيدة». نهضت ونفضت غبار الكرسي الذي علق بسروالها القصير، ثم نظرت إلي.«قل لي، يا طائر الزنبرك، أتود رؤية البئر؟»

«البئر؟»

«ثمة بئر جافة هنا، أحبها. أتريد رؤيتها؟»

عبرنا الباحة وسرنا إلى أحد جوانب المنزل. كانت بئر مستديرة، ربما بقطر أربعة أقدام ونصف، مغطاة بلوح خشبي سميك بحجم فوهة البئر، ووُضعت عليه كتلتين خرسانيتين حتي لا يتحرك. وحاجز البئر بارتفاع ثلاثة أقدام تقريباً، ونَمَت على مقربة منها شجرة عجوز وحيدة، كأنها تحرسها. كانت شجرة فاكهة، لكنني لم أستطع معرفة نوعها.

بدت البئر، كمعظم الأشياء المتصلة بهذا المنزل، كأنها مهجورة منذ وقت طويل، ثمة شيء فيها أشعرني بأنها يجب أن تسمَّى «خَدَر غامر». ربما تصبح الجمادات أكثر جموداً عندما يشيح الناس بأنظارهم عنها.

اكتشفت أن البئر، بعدما تفحصتها من كثب، في الواقع أقدم بكثير من الأشياء المحيطة بها. وأنها قد حُفرت في عصر آخر قبل بناء المنزل بمدة طويلة، حتي أن غطاءها الخشبي كان عتيقاً، وكان حاجز البئر مكسواً بطبقة سميكة من الخرسانة لتقوية البناء الذي بُني قبل ذلك بوقت طويل. وبدا أن الشجرة المجاورة تتفاخر بوقوفها في مكانهازمناًأطول من أي شجرة أخرى في المنطقة.

أنزلت كتلة الخرسانة إلى الأرض، ورفعت أحد نصفي القمر اللذين يشكلان الغطاء الخشبي. وضعت يدي على حافة البئر، وانحنيت ونظرت إلى الأسفل، لكنني لم أستطع رؤية القاع. من الواضح أنها بئر عميقة، ابتلع الظلام نصفها الأسفل وتنبعث منها رائحة عفونة خفيفة.

قالت ماي كاساهارا: «ليس بها أي ماء».

بئر بلا ماء ، طائر لا يطير ، زقاق بلا مخرج ، و...

التقطت ماي قطعة من القرميد وألقتها داخل البئر،وبعد لحظة سمعنا صوت ارتطام خافت وجاف. ولا شيء أخر. كان الصوت جافاً تماماً، كأنما يمكنك تفتيته بيديك. اعتدلت ونظرت إلى ماي كاساهارا، وقلت: «لماذا ليس بها ماء يا تُرى؟هل جفَّت؟ هل ردمها أحدهم؟»

هزت كتفيها «عندما يردم الناس بئراً، ألا يردمونها حتي فوهتها؟ لا يوجد معنى لترك حفرة جافة كهذه، من الممكن أن يسقط أحدهم ويتأذي، أليس كذلك؟»

قلت:«أعتقد أنك محقة، تسبب شيءٌ ما في جفاف البئر على الأغلب».

تذكرت فجأة ما قاله السيد هوندا منذ زمن *«عندما يفترض بك أن تتجه للأعلى، ابحث عن أعلى برج وتسلق حتى قمته. وعندما يفترض بك أن تتجه للأسفل، اعثر على أعمق بئر واهبط إلى قاعها».*

إذاً، الآن لدي بئر إذا احتجت إليها.

انحنيت على الحافة مجدداً ونظرت إلى الظلام بالأسفل، دون أن أتوقع شيئاً محدداً. خطر لي أنه في مكان كهذا، في منتصف النهار، يوجد ظلام بهذه الكثافة. تنحنحت وازدردت ريقي، فتردد الصدى في الظلام، كما لو أن أحداً آخر تنحنح. لم يزل لعابي بطعم حلوي الليمون.

أعدت الغطاء على البئر، ووضعت الكتلة عليه، ثم نظرت إلى ساعتي. تكاد تبلغ الحادية عشر والنصف، موعد مكالمة كوميكو خلال استراحة الغداء.

قلت:«من الأفضل أن أذهب إلى المنزل».

عبَست ماي كاساهارا قليلاً وقالت: «اذهب على الفور، يا طائر الزنبرك، حلّق إلى المنزل».

عندما عبرنا الباحة، كان الطائر الحجري ما يزال يرمق السماء بعينيه الجافتين، والسماء نفسها ما تزال مدلهمة بالغيوم الرمادية، لكن على الأقل توقف المطر. قطعت ماي كاساهارا حفنة من العشب وألقتها في السماء، ومع عدم وجود أي هواء ليحمله، تساقط العشب عند قدميها. قالت دون أن تنظر إلي:«فكر بكل الساعات المتبقية حتى غروب الشمس».

«بالفعل، ساعات طويلة».

6

عن ميلادَي كوميكو أوكادا

ونوبورو واتايا

*

يصعب عليّ، بما أنني نشأت طفلاً وحيداً، تخيل مشاعر الإخوة عندما يتصلون ببعضهم البعض وكل منهم يعيش حياة مستقلة عن الآخر. وفي حالة كوميكو، كلما جئنا على ذكر نوبورو واتايا، ترتسم على وجهها نظرة غريبة، كما لو أنها وضعت شيئاً غريب المذاق في فمها عن طريق خطأً. لكن لم تكن لدي وسيلة لمعرفة معنى تلك النظرة تحديداً. لا أكنُّ أي مشاعر إيجابية ناحية شقيقتها الأكبر، وتعلم كوميكو هذا ولا تستنكره، فهي نفسها لم تكن مولعة بالرجل. ومن الصعب تخيلهما يتحدثان مع بعضهما اذا لم تكن تربطهما علاقة دم. لكنهما في الواقع *شقيقان*، وهو ما جعل الأمور أكثر تعقيداً. بعد شجاري مع والد كوميكو، وانقطاع اتصالي بوالديها، لم تعد كوميكو تجد أي مناسبة لرؤية نوبورو واتايا. كانت المشاجرة عنيفة. ولم أخض شجارات كثيرة على امتداد حياتي. لست من ذلك النوع، لكن عندما أبدأ، لا أتراجع. لذلك كان قطع علاقتي بوالد كوميكو نهائياً.

تلاشى الغضب على نحو غامض إثر ذلك، بعدما نفّست عن كل ما يعتمل في صدري. ولم أشعر سوى بارتياح. إذ لم أعد مضطراً لرؤيته مجدداً أبداً. كان الأمر

كما لو أن عبئاً ثقيلاً كنت أرزح تحت وطأته مدة طويلة وقد رُفع عن كاهلي. لم يبق لدي شيءٌ من الغضب أو الكراهية. حتى إنني شعرت نحوه بشيء من التعاطف بسبب المشاكل التي يواجهها في حياته، على الرغم من التفاهة التي تبدو عليها حياته في نظري. قلت لكوميكو إنني لن أقابل والديها أبداً ويمكنها زيارتهما بدوني متى ما شاءت. لكنها لم تسع لزيارتهما. قالت: «لا عليك، لا أحب زيارتهما على أي حال».

كان نوبورو واتايا يعيش مع والديه في ذلك الوقت، لكن عندما نشبت المشادة بيني وبين والده، انسحب ببساطة دون توجيه كلمة لأي أحد. لم يفاجئني ذلك. إذ أنني لم أكن موضع اهتمام بالنسبة له. كان يبذل ما بوسعه لتفادي أي تواصل معي مالم يكن الأمر ضرورياً جداً. ولذلك عندما توقفت عن زيارة والدي كوميكو، لم يعد ثمة سبب لرؤية نوبورو واتايا. وكوميكو نفسها لم يكن لديها غرض من رؤيته. فهو مشغول، وهي مشغولة، ولم يكونا مقربين أصلاً.

مع ذلك، تتصل كوميكو به في مكتبه أحياناً، وهو يتصل بها في مكتب الشركة أحياناً (وليس في منزلنا إطلاقاً). تخبرني بتلك الاتصالات دون أن تخوض في تفاصيل فحوى محادثاتهما. لم أسألها قط، ولم تكن تخبرني بأي معلومة من تلقاء نفسها إن لم تكن ضرورية.

لم أكن أهتم بما يتحدثان عنه. وهذا لا يعني أنني أمتعض من حقيقة أنهما يتحدثان. لا أفهم الأمر فحسب. ما الذي يمكن أن يتحدث عنه كائنان بشريان يختلفان عن بعضهما ذلك الاختلاف؟ أم أنهما لا يتحدثان معاً إلا بسبب علاقة الدم التي تربطهما؟

*

مع أنهما شقيقان، إلا أن الفارق بين عمريهما تسع سنوات.ومن عوامل عدم التقارب الملموس بين الاثنين هو أن كوميكو عاشت عدة سنوات مع أسرة والدها.

لم يكن نوبورو وكوميكو الطفلان الوحيدان في منزل واتايا، بينهما أخت أكبر من كوميكو بخمس سنوات. أُرسلت كوميكو بعمر الثالثة من طوكيو إلى نيغاتا البعيدة، لتعيش فترة مع جدتها. أخبرها والداها لاحقاً أنهما فعلا ذلك لأنها كانت كثيرة المرض، واعتقدا أن هواء الريف النقي أفضل لها، لكنها لم تكن متأكدة من ذلك تماماً. حسبما تستطيع تذكره هي نفسها أن صحتها لم تعتل قط. ولم تعان أي أمراض خطرة، ولم يُبدِ أي ممن كانت تعيش معهم بنيغاتا قلقاً على صحتها على نحو خاص. قالت لي كوميكو ذات مرة: «أنا متأكدة أن ذلك مجرد عذر».

وقد سمعت أمراً من أحد أقربائها، هو ما عزز شكوكها. وهو أن هناك خصومة طويلة بين والدة كوميكو وجدتها، وكان قرار جلب كوميكو إلى نيغاتا نتيجة لهدنة توصلتا إليها. فبالتنازل عنها لبعض الوقت، أخمد والدا كوميكو غضب جدتها. ومع

وجود حفيدتها في حيازتها، تحصلت الجدة على تأكيد ملموس لروابطها مع ابنها (والد كوميكو). بعبارة أخرى، كانت كوميكو أشبه برهينة.

قالت كوميكو لي: «إلى جانب ذلك، كان لديهما طفلان آخرين، ولم يكن الثالث خسارة كبيرة لهما. ليس وكأنهما أرادا التخلص مني، أظن أنهما اعتقدا أن ابتعاد طفل في مثل سني عن والديه لن يكون صعباً جداً عليه. إنهما لم يفكرا في الأمر كثيراً على الأرجح. كان الحل الأسهل فحسب. أيمكنك تصديق ذلك؟ لا أدري لماذا، لكن لم تكن لديهما أدنى فكرة عما يمكن أن تفعله تجربة كتلك بطفل صغير».

ربّتها جدتها في نيغاتا منذ عمر الثالثة حتى السادسة. لم يكن ثمة ماهو حزين أو معقد بشأن حياتها في الريف. كانت جدتها تُحبها كثيراً، واستمتعت كوميكو باللعب مع أقربائها الذين كانوا في مثل عمرها، أكثر من استمتاعها بصحبة شقيقها وشقيقتها. ثم أُعيدت أخيراً إلى طوكيو في العام الذي دخلت فيه المدرسة الابتدائية. صار والداها قلقين من ابتعاد ابنتهما الطويل عنهما، وأصرّا على إرجاعها قبل فوات الأوان. لكن بطريقة ما، كان الأوان قد فات بالفعل. أصبحت جدتها،في الأسابيع التي تلت قرار إرجاعها،في حالة عصبية متزايدة. أضربت عن الطعام وكانت تنام بالكاد. في لحظة تحتضن كوميكو الصغيرة وتعتصرها بكل قوتها، وفي لحظة أخرى تضرب ذراعيها بمسطرة، بقوة كافية لتترك أثراً. في لحظة تقول إنها لا تريد أن تتركها، وأنها تفضل الموت على خسارتها، وفي اللحظة التالية تأمرها بالابتعاد، وأنها لا تريد رؤيتها أبداً، وتخبرها عن مدى سوء والدتها بأقذع الألفاظ التي يمكن تخيلها.

حتى إنها حاولت طعن رسغها بمقص. لم تستطع كوميكو فهم ما يجري حولها. إذ كان الوضع أعقد مما يمكنها استيعابه.

ما فعلته هو أنها زهدت في العالم الخارجي وانزوت على نفسها. أغمضت عينيها وسدّت أذنيها، وأوقفت عقلها،ووضعت نهاية لأي شكل من أشكال التفكير أو الأمل. كانت الشهور التي أعقبت ذلك أشبه بصفحة بيضاء في ذاكرتها، لا تتذكر أياً مما حدث في ذلك الوقت. وعندما استعادت وعيها بما حولها، وجدت نفسها في منزل جديد. كان المنزل الذي ينبغي أن تكون فيه منذ البداية، وفيه والداها، وشقيقها وشقيقتها. لكنه لم يكن منزلها. كان ببساطة بيئة جديدة.

أصبحت كوميكو طفلة صموتة، وصعب التعامل معها في تلك البيئة الجديدة. لم يكن هناك شخص تثق به، أو تعتمد عليه اعتماداً غير مشروط. لم تكن تشعر بالطمأنينة التامة حتى في أحضان والديها. ولم تكن تعرف رائحتهما، وتُشعرها بالضيق، بل وتكرهها أحياناً. ثم بدأت تنفتح لشقيقتها ببطء،من بين جميع أفراد أسرتها. يئس والداها من فهمها وكسب ثقتها. وكان شقيقها يكاد لا يدرك وجودها. لكن شقيقتها فهمت الارتباك والشعور بالوحدة الكامنان خلفسلوكياتها العنيدة. ووقفت بجانبها في كل الأحوال. كانت تنام معها في نفس الغرفة، وتتحدث معها، وتقرأ لها، وتسير معها إلى المدرسة، وتساعدها على أداء فروضها المنزلية. إذا أمضت كوميكو ساعات متكوّمة في ركن الغرفة غارقة في دموعها، تكون شقيقتها معها، تحتضنها. وفعلت كل ما يمكنها فعله لتجد طريقاً إلى قلب كوميكو.ولكان الوضع

مختلفاً أشد الإختلاف إذا لم تَمُت بسبب التسمم الغذائي بعد عام من عودة كوميكو من نيغاتا.

قالت كوميكو: «إذا عاشت شقيقتي لكانت الأحوال أفضل في المنزل، كانت مجرد فتاة صغيرة، بالصف السادس. لكنها كانت القلب النابض بالمنزل. ولربما صارت أحوالنا جميعاً أقل غرابة مماهي عليه الآن.لو لم تمت، على الأقل ما كنت لأصبح حالة ميؤوس منها هكذا. أتفهم ما أعنيه؟ شعرت بالذنب بعد ذلك. لماذا لم أمت بدلاً من شقيقتي؟ لم أكن ذات نفع لأي شخص. ولم أكن أستطع أن أجعل أي شخص سعيداً، لماذا ليس أنا؟ كانت والدتي وشقيقي يعرفان ما أشعر به تماماً، لكنهما لم يقولا شيئاً لمواساتي، ولم يحاولا. كانا يتحدثان عن شقيقتي الميتة متى ما سنحت لهما الفرصة. عن مدى جمالها وذكائها، وحب الجميع لها، وعطفها، وبراعتها في عزف البيانو. ثم أجبراني على تلقي دروس البيانو! معتقدين أنه لا بد أن يستخدم أحدهم البيانو الكبير بعد موتها. لم يكن لدي أدنى اهتمام بالعزف، وكنت أعرف أنني لن أعزف بمثل براعتها أبداً، ولم أكن بحاجة إلى طريقة أخرى لأبين دونيَّتي مقارنة بها. لم يكن بمقدوري أن أحل محل أحدهم، لاسيما محلها، ولم أحاول. لكنهما رفضا أن يصغيا إلي رفضاً باتاً. لذلك أكره منظر البيانو إلى يومنا هذا. وأكره مشاهدة أي شخص يعزف عليه».

شعرت بغضب عارم عندما أخبرتني كوميكو بهذا.لما فعلوه بها، ولمالم يفعلوه لها. حدثتني بهذا قبل زواجنا، ونحن نعرف بعضنا لأكثر من شهرين بقليل فحسب،

كنا في الفراش،في صبيحة يوم أحد هادئ،وتحدثت مطولاً عن طفولتها كما لو أنها تحل خيوطاً متشابكة، وتتوقف لتقييم صلاحية كل حدث قبل ذكره. كانت أول مرة تحدثني بالكثير عن نفسها، بالكاد كنت أعرف شيئاً عن أسرتها أو طفولتها، حتى ذلك الصباح. كنت أعرف أنها هادئة، وأنها تحب الرسم، وأن لديها شعر طويل وجميل، وشامتين على لوح كتفها الأيمن، وأن أول تجربة جنسية لها كانت معي.

بكت قليلاً أثناء حديثها. وتفهمت حاجتها إلى البكاء. فاحتضنتها وداعبت شعرها. قالت: «لأحببتها إذا عاشت، أحبها الجميع حالما عرفوها».

«ربما. لكنكِ أنتِ التي أحب. الأمر في غاية البساطة، كما تعلمين. شقيقتك لا علاقة لها بالأمر».

ظلت كوميكو مستلقية بعض الوقت، تفكر. السابعة والنصف من صبيحة يوم أحد، الوقت الذي يبدو فيه كل شيء ناعماً ومجوفاً. استمعت إلى الحمام يخفق بأجنحته على سقف شقتي، وإلى أحدهم ينادي كلباً في مكان بعيد. ظلت كوميكو تحدق إلى نقطة واحدة على السقف مدة طويلة، وقالت أخيراً: «أخبرني، هل تحب القطط؟»

«أحبها بجنون، دائماً ما كانت لدي قطة عندما كنت صغيراً. كنت ألعب معها طوال الوقت، وأنام معها حتى».

«يا لك من محظوظ. كنت أتوق بشدة لاقتناء قطة. لكنهم لم يسمحوا لي. كانت أمي تكره القطط. لم أتمكن من الحصول على أي شيء أريده، ولو مرة في حياتي. ولو مرة. أيمكنك تصديق هذا؟ لا يمكنك فهم معنى أن تعيش بتلك الطريقة. عندما تعتاد على مثل تلك الحياة –التي لا تحصل فيها على ما تريد– ثم لا تعود تعرف ما تريده».

أمسكت يدها وقلت: «ربما كان الأمر معكِ كذلك حتى الآن. لكنك لم تعودي طفلة. لديك حق اختيار حياتك الخاصة بك. ويمكنك البدء مجدداً. إذا كنت تريدين قطة، كل ما عليك فعله هو اختيار حياة يمكنك فيها اقتناء قطة. الأمر بسيط. إنه حقك... أليس كذلك؟»

ظلت عيناها مشتبكتان بعيني، وقالت: «اممم. صحيح». وبعد بضعة أشهر لاحقاً، كنا نتحدث عن الزواج.

*

إذا كانت الطفولة التي عاشتها كوميكو في ذلك المنزل بائسة وعسيرة، فإن طفولة نوبورو واتايا كانت مشوهة على نحو غريب من ناحية أخرى. كان الوالدان مولعان بابنهما الوحيد، لكنهما لم يمطروه بالعطف فحسب، بل طالباه بأشياء معينة أيضاً.

كان الأب مقتنعاً قناعة راسخة بأن السبيل الوحيد لحياة كريمة في المجتمع الياباني هو إحراز أعلى الدرجات وإزاحة كل من يعترض الطريق إلى القمة.

سمعت هذه الكلمات من الرجل شخصياً، بعد زواجي بابنته بوقت وجيز. قال لي إن جميع البشر لم يُخلقوا متساوين، وأن هذا لا يعدو كونه كلام أخلاقي فارغ علمونا إياه في المدرسة. ربما يكون اليابان لديه هيكل سياسي لشعب ديمقراطي، لكنه في الوقت نفسه مجتمع طبقي صارم، القوي فيه يأكل الضعيف. وما لم تصبح أحد أعضاء النخبة، فليس ثمة معنى للعيش في هذا البلد، وسوف تُسحق حتى تتلاشى. عليك أن تقاتل لتشق طريقك للأعلى. هذا النوع من الطموح أمر طبيعي تماماً. إذا فقد الناس طموحهم فسيفنى اليابان. لم أدلِ بأي رأي رداً على وجهة نظر والد زوجتي. إذ لم يكن يتطلع لمعرفة رأيي، إنما كان يقول ما يعتقده فحسب. قناعة ستظل راسخة للأبد. نشأت والدة كوميكو في أرقى أحياء طوكيو، لا يعوزها شيء. وهي ابنة مسؤول رفيع. ولم تكن لديها الرأي أو الشخصية لمعارضة آراء زوجها. وحسبما رأيته، لم يكن لديها رأي في أي شيء لا تُواجه به، ويوضع أمامها مباشرة (في الواقع، كانت تعاني من قصر نظر حاد). وكلما دعت الحاجة لإبداء رأيها في أمر يتعلق بالعالم الأوسع، تستعير آراء زوجها. إن كان هذا كل ما في الأمر بالنسبة لها، ما كانت لتزعج أحداً. لكن كما هو الحال مع مثل هؤلاء النساء، كانت تعاني من حالة مستعصية من الإدعاء. وتفتقر لأي قيم ذاتية خاصة بها. ويكوّن أمثال هؤلاء وجهات نظرهم بتبنّي معايير ورؤى الآخرين. المبدأ الوحيد الذي يحكم تفكيرهم

هو السؤال: «كيف أبدو؟». وبالتالي أصبحت السيدة واتايا امرأة عصبية ضيقة الأفق لا يهمها شيء سوى مكانة زوجها في الحكومة، أو مسيرة ابنها الأكاديمية. وكل ما لا يدخل مجال رؤيتها الضيق، لا معنى له بالنسبة لها.

وهكذا غرس الوالدان فلسفتهما المشكوك فيها ورؤيتهما الضيقة للعالم في رأس الشاب نوبورو واتايا. كانا يشجعانه موفرين له أفضل الأساتذة. وعندما حصل على مرتبة الشرف العليا، كافأا ابنهما بأن اشتريا له كل ما كان يريده. كانت طفولته غارقة في الترف المادي. بيد أنه عندما دخل المرحلة الأكثر حساسية من حياته، لم يكن لديه وقت للفتيات، أو الفرصة للتصرف بجموح مع الفتية الآخرين. كان عليه أن يكرس كل طاقاته ليحافظ على مكانته في القمة. لم أكن أعرف ما إذا كان نوبورو واتايا سعيداً بالعيش بتلك الطريقة أم لا. وكذلك كوميكو لم تكن تعرف. إذ لم يكن نوبورو واتايا من الذين يظهرون مشاعرهم. حتى لكوميكو أو لوالديه أو لأي أحد. لم يكن لديه خيار على أي حال. بدا لي أن أنماطاً معينة من التفكير في غاية البساطة وأحادية الجانب لدرجة تصعب معها مقاومتها. مهما يكن، تخرج نوبورو واتايا في مدرسة نخبة إعدادية خاصة. ثم تخصص في الاقتصاد بجامعة طوكيو، وتخرج فيها بأعلى الدرجات.

توقع والده منه أن يعمل بالحكومة أو إحدي الشركات الكبرى بعد تخرجه، لكن نوبورو واتايا اختار أن يبقى في العالم الأكاديمي ويصبح باحثاً. كان يعرف أفضل ما يناسبه، ولم يكن مغفلاً.

ولم يكن ما يناسبه هو العالم الحقيقي حيث العمل الجماعي، بل العالم الذي يتطلب الاستخدام المنهجي للمعرفة، والذي يثمِّن المهارات الفردية والذكاء.

أمضى عامين في الدراسات العليا بجامعة ييل قبل عودته لكلية الدراسات العليا بجامعة طوكيو. ونفذ مشيئة والديه بعد ذلك بوقت قصير ووافق على زواج مرتَّب، الذي لم يستمر أكثر من عامين. وبعد طلاقه، عاد إلى منزل والديه ليقيم معهما. وبحلول الوقت الذي قابلته فيه، كان شخصاً غريب الأطوار يتعذر التوافق معه.

نشر نوبورو واتايا كتاباً ضخماً، بعدما تزوجت كوميكو بقرابة عامين. كان دراسة اقتصادية مليئة بالمصطلحات المتخصصة. ولم استطع استيعاب شيئاً واحداً كان يحاول قوله. حاولت، لكن لم أستطع مواصلة القراءة لأن كتابته معقدة يصعب فك شفرتها. لم أعرف ما إذا كان ذلك مرده إلى تعقيد وصعوبة المحتوى أم أن الكتابة نفسها سيئة. إلا أن أصحاب المجال اعتقدوا أنه كتاب عظيم. قال عنه أحد النقاد: «إنه علم اقتصاد جديد كلياً مكتوب من منظور جديد كلياً». لكن هذا هو كل ما استطعت فهمه مما كتبه ذلك الناقد. وسرعان ما بدأت وسائل الإعلام تقديمه باعتباره «بطل عصر جديد». وظهرت كتب كاملة لتفسير كتابه. واثنان من المصطلحات التي صاغها «علم الاقتصاد الجنسي»، و«علم الاقتصاد الإفراغي» أصبحا من الكلمات الطنانة في ذلك العام. وأفردت الصحف والمجلات أقساماً خاصة به بوصفه أحد مفكري العصر الجديد. لم أستطع تصديق أن كل الذين كتبوا تلك المقالات فهموا ما كتبه نوبورو واتايا في كتابه. أشك في أنهم قد فتحوه حتى.

لكن مثل هذه الأشياء لا تهمهم. كان نوبورو واتايا شاباً عازباً وذكياً بما يكفي لكتابة كتاب لا يستطيع أحد فهمه.

وقد اشتهر بفضل كتابه. ظهر على التلفاز معلقاً على المواضيع السياسية والاقتصادية. وسرعان ما أصبح عضو لجنة تحكيم في أحد برامج المناظرات السياسية. الذين كانوا يعرفون نوبورو واتايا (بما فيهم أنا وكوميكو)، لم يتخيلوه أبداً يصلح لعالم وسائل الإعلام والأضواء. اعتقد الجميع أنه من أولئك الأكاديميين المتزمتين الذين لا يهتمون سوى بمجالات تخصصاتهم. لكنه ما إن تذوق عالم وسائل الإعلام، كدنا نراه وهو يلعق شدقيه. كان بارعاً. ولم يكن يمانع تصويب الكاميرا باتجاهه، بل إنه كان يبدو مسترخياً أمام الكاميرات أكثر مما يبدو بعيداً عنها. شاهدنا تحوله المفاجئ بذهول. كان نوبور واتايا الذي نراه على التلفاز يرتدي بدلات غالية مع ربطات عنق تتماشى معها تماماً. ويضع نظارات بإطارات من عظم ظهر السلحفاة. ولديه قصة شعر حديثة. كان من الواضح أنه تلقى مساعدة محترف. لم أره ينضح بالترف هكذا من قبل. وحتى إذا كانت المؤسسة الإعلامية هي التي تختار أزياءه، فإنه كان يرتديها بعفوية وارتياح كأنه يتأنق بتلك الطريقة طوال حياته. تساءلت أول مرة رأيته، من هذا الرجل؟ أين نوبورو واتايا الحقيقي؟

كان يؤدي دور الرجل قليل الكلام عندما يكون أمام الكاميرات. فعندما يُسأل عن رأي، يعبر عنه ببساطة ووضوح وإيجاز. وعندما تلتهب أجواء المناظرة ويبدأ الجميع بالصياح، كان يحافظ على هدوءه. وعندما يُواجه بتحدٍ، يتريث ويدع خصمه يقول ما

لديه، ثم يهدم حجة خصمه بعبارة واحدة. وأتقن فن توجيه الضربة القاضية بضحكة خفيفة وابتسامة. كان يبدو أكثر موثوقيةً وذكاءً على شاشة التلفاز من نوبورو واتايا الحقيقي. لست متأكداً من كيفية فعله لذلك. فهو لم يكن وسيماً قطعاً. لكنه كان طويلاً ورشيقاً وعليه سيما حسن الخلق. وجد نوبورو واتايا المكان الذي ينتمي إليه في وسائل الإعلام المرئية. رحبت به وسائل الإعلام بأذرع مفتوحة، وقابلها هو بشغف مماثل.

أما أنا، من ناحية أخرى، فلم أكن أطيق رؤيته. سواء على المطبوعات أو التلفاز، كان رجل ذو موهبة وكفاءة بلا ريب. أعترف بذلك. كان يعرف كيف يوقع خصمه بسرعة وفاعلية بأقل كلمات ممكنة. ويملك غريزة حيوان في استشعار اتجاه الريح. لكن إذا انتبهت بتركيز إلى ما كان يقوله أو ما كتبه، فستدرك أن كلماته تفتقر للاتّساق، ولا تعكس رؤية شاملة قائمة على قناعات ومبادئ راسخة، وأن أفكارهعبارة عن عالم اختلقه بالمزج بين عدد من المسارات الفكرية ذات البعد الواحد. وكان قادراً على إعادة ترتيب هذه المسارات في أي لحظة، وفقاً للحوجة. لكن المزج والتعديل الذي يدخله على الأفكار المختلفة عبقري، ولا يخلو من لمسة فنية. لكنه بالنسبة لي لا يعدو كونه مجرد لعبة. إن كان ثمة أي اتساق في آراءه فهو اتساق الافتقار للاتساق. وإن كانت لديه رؤية شاملة، فهي الرؤية التي تدل على افتقاره للرؤية الشاملة. بيد أن هذه العيوب نفسها هي التي مثلت مكامن قوته الفكرية. فالاتساق والرؤية الشاملة العميقة يمثلان عبئاً إضافياً في الحروب الفكرية المتقلبة التي تدور

رحاها في وسائل الإعلام. وقد كان في صالحه أن يكون متحرراً من مثل هذا العبء.

لم يكن لديه ما يحميه، مما يعني أنه يمكنه أن يحشد كامل تركيزه في أساليب القتال. ولم يكن بحاجة سوى إلى الهجوم، وأن يصرع خصمه أرضاً. إنه حرباء فكرية، يغير لونه وفقاً للون خصمه، ويرتجل حججه المنطقية بفعالية قصوى، ويحشد كل ما لديه من بلاغة. لم تكن لدي فكرة عن كيفية اكتسابه هذه المهارات، لكن من الواضح أنه كانت لديه ملكة ملامسة مشاعر المشاهدين. كان يعرف كيفية استخدام المنطق الذي يؤثر في الأغلبية. وليس بالضرورة أن يكون منطقاً، بل أن يبدو كذلك فحسب، مادام إنه يثير مشاعر الجمهور.

استعراض المصطلحات المتخصصة كان موطن قوة آخر لديه. لم يكن أحد يعرف ما تعنيه، بطبيعة الحال، لكنه كان يستطيع تقديم تلك المصطحات بطريقة تجعلك موقناً أن الخطأ خطأك إذا لم تفهمها. ودائماً ما كان يستشهد بالإحصائيات، التي كانت محفورة في دماغه، وهي تحمل قوة إقناع هائلة. لكن إذا توقفت لتفكر في الأمر لاحقاً،فستدرك أن لا أحد شكك في مصادره أو مدى موثوقيتها.

كانت أساليبه الذكية هذه تدفعني للجنون، لكنني لم أكن قادراً على أن أوضح لأي أحد ما يثير حنقي تحديداً. كما لم يكن بمستطاعي بناء حجة لدحض أياً مما كان يقوله. كان الأمر أشبه بملاكمة شبح، تصدر ضرباتك حفيفاً في الهواء فحسب،

وما من شيء صلب لتضربه. صُدمت عندما رأيت حتى أبرز المثقفين يتجاوبون معه. الأمر الذي ضاعف شعوري بالضيق.

وهكذا صار نوبورو واتايا أحد ألمع الشخصيات في أيامه. إذ يبدو أن أحداً لم يعد يهتم بالاتساق، كل ما يبحث عنه الناس في القنوات هو جولات القتال بين المجالدين الفكريين، وكلما كان الدم الذي يسفكونه قانياً، ازداد تعطشهم له. لا يهم إذا قال شخص شيئاً يوم الاثنين وعكسه يوم الثلاثاء.

*

قابلت نوبورو واتايا للمرة الأولى عندما قررت أنا وكوميكو أن نتزوج. أردت أن أتحدث معه قبل مقابلة والدها. ظننت، بما أننا متقاربان في السن، ربما يمكنني إقناعه ليمهد لي الطريق إلى والده.

«لا أعتقد أنه ينبغي لك أن تعتمد على مساعدته»، قالت لي كوميكو بصعوبة بادية. «لا أستطيع شرح السبب تحديداً لكنه ليس من ذلك النوع فحسب».

قلت: «حسناً، عليّ أن أقابله عاجلاً أو آجلاً».

«أظن ذلك».

«الأمر يستحق المحاولة. لا يمكن أن تكوني متأكدة».

«أظن ذلك، ربما».

لم يتحمس نوبورو واتايا كثيراً لمقابلتي عندما اتصلت به عبر الهاتف. قال، إذا أصررتُ، يمكنه أن يوفر لي نصف ساعة. وقررنا أن نلتقي بمقهى بالقرب من محطة أوشانوميزو، كان مجرد محاضر بالجامعة وقتذاك، قبل أن يكتب كتابه، وقبل أن يعرف معنى الأناقة. جيوب معطفه الرياضي منتفخة بسبب إقحامه لقضبتيه فيها مدة طويلة. وشعره بحاجة إلى تشذيب، ويتنافر قميصه الذي بلون الخردل مع بدلته الصوفية الزرقاء والرمادية. كان لديه مظهر أستاذ مساعد يعتبر المال شيئاً غريباً. وعلى عينيه تلك النظرة الناعسة لشخص خرج لتوه من المكتبة بعد يوم من التنقيب بين أرففها. لكنتشع منهما نظرة ثاقبة باردة،إذا دققت النظر فيهما.

قلت له، بعد تقديم نفسي، إنني أخطط للزواجبكوميكو في المستقبل القريب. وحاولت توضيح كل شيء بدقة ما أمكنني. قلت إنني أعمل في شركة محاماة، لكنني أعرف أنه ليس العمل المناسب لي. وأنني ما أزال أبحث عن نفسي. وأن مجازفة شخص مثلي بالزواج قد يبدو عملاً متهوراً، لكنني أحب شقيقته. وأعتقد أنني يمكنني أن أجعلها سعيدة. ويمكن لكلينا أن يمد الآخر بالقوة والسكينة.

بدا لي أن كلماتي ضلّت طريقها إلى نوبورو واتايا. ظل جالساً عاقداً ذراعيه، يستمع بصمت. حتى بعدما أنهيت خطابي الصغير، ظل ساكناً تماماً، وبدا كأنه يفكر بشيء آخر.

شعرت بشيء من الحرج في وجوده منذ البداية، وافترضت أن هذا بسبب الوضع الذي كنت فيه. أي شخص سيشعر بالحرج وهو يقول لشخص غريب تماماً «أريد أن أتزوج شقيقتك». لكن أثناء جلوسي قبالته، بدأ شعور كريه يجتاحني، كما لو أن مادة لزجة غريبة حمضية الرائحة تتكون في معدتي. لم يكن هناك شيء محدد قاله أو فعله هو ما سبّب لي هذا الضيق، إنما هو وجهه، وجه نوبورو واتايا نفسه، الذي أوحى لي بأنه مكسو بطبقة أخرى من شيء ما، شيء خاطئ، لم يكن وجهه الحقيقي. ولم أستطع التخلص من ذلك الشعور.

راودتني رغبة في المغادرة، في الواقع فكرت في النهوض والمغادرة، لكن كان علي أن أصل لنهاية الأمر. ظللت جالساً في مكاني، أرتشف قهوتي الفاترة منتظراً إياه ليقول شيئاً.

وعندما تحدث، بدا كأنه يُبقي صوته منخفضاً عمداً ليوفر طاقته. قال: «لأكون صادقاً معك، لا يمكنني أن أفهم أو أهتم بما كنت تقوله لي، فالأشياء التي أهتم بها ذات طبيعة مختلفة تماماً، أشياء لا أتوقع منك فهمها أو الاهتمام بها. ولأقول لك ما لدي بأقصر الطرق الممكنة، إذا كنت ترغب في الزواج بكوميكو وهي ترغب في الزواج بك، فليس لدي حق أو أي سبب يجعلني أقف في طريقكما. ولذلك، لن أقف في طريقكما. ولن أفكر في ذلك حتى. لكن لا تتوقع مني أكثر من هذا. والأهم من هذا، لا تتوقع مني أن أهدر مزيداً من وقتي في هذا الموضوع أكثر مما أهدرته».

نظر إلى ساعته ونهض. كان كلامه موجزاً وفي محله، لا تشوبه أي زوائد، ولم يهمل أي شيء كان عليه ذكره. فهمت بوضوح تام ما أراد قوله وانطباعه عني.

وهكذا افترقنا ذلك اليوم.

بعد زواجي بكوميكو، حتّمت عدد من المناسبات عليَّ وعلى نوبورو واتايا، نظراً لعلاقة النسب التي تربطنا، أن نتبادل الكلمات. حتى إذا لم نتجاذب أطراف حوار فعلي. وكما قال، لم تكن ثمة أرضية مشتركة بيننا. لذلك أيضاً كان مقدار الكلمات التي يتلفظ بها أحدنا في حضور الآخر لا يمكن أن يرتقي لما يمكن أن يُسمى حواراً. كما لو كنا نتحدث مع بعضنا بلغات مختلفة. إذا كان الدلاي لاما على فراش موته، وموسيقي الجاز إيريك دولفي يحاول أن يشرح له أهمية اختيار المرء لزيت المحرك وفقاً للتغيرات في صوت كلارينت الباص، قد تكون تلك المحادثة أكثر فائدةً وفعاليةً بكثير من حواراتي مع نوبورو واتايا.

نادراً ما أعاني كرْباً عاطفياً طويل المدى بسبب احتكاكي مع الناس الآخرين. قد يغضبني أحدهم أو يزعجني، لكن ليس لفترة طويلة. يمكنني أن أفصل بين نفسي وبين شخص آخر كأنني وهو كائنين من عالمين مختلفين. إنها موهبة من نوعٍ ما. (لا أقصد التباهي بها. إنه ليس أمراً يسهل فعله، لذلك إن كان يمكنني فعل ذلك، فإنها موهبة، أو مقدرة خاصة). عندما يثير أحدهم أعصابي، فإن أول ما أفعله هو نقل موضوع مشاعري السلبية إلى نطاق آخر، ليس له علاقة بي. ثم أقول لنفسي،

حسناً، تجتاحني مشاعر سلبية، لكنني وضعت مصدر هذه المشاعر في منطقة أخرى، بعيداً عن هنا، حيث يمكنني أن أتفحصها وأتعامل معها لاحقاً عندما أكون في مزاج رائق. بعبارة أخرى، أجمّد مشاعري. وعندما أذيبها لأتفحصها لاحقاً، نادراً ما أجدها في حالة كرْب. عادةً ما يستخلص مرور الوقت السموم من معظم الأشياء، ويجعلها غير مؤذية. ثم أنسى أمرها، إن عاجلاً أم آجلاً.

خلال مسار حياتي حتى الآن، تمكنت من الإبقاء على عالمي في حالة مستقرة نسبياً بتجنب أغلب المشاكل عديمة الفائدة عن طريق تفعيل نظام التحكم العاطفي هذا. ونجاحي في الحفاظ على مثل هذا النظام الفعال طوال هذا الوقت هو مصدر فخر لي.

لكن عندما يتعلق الأمر بنوبورو واتايا، يتوقف هذا النظام عن العمل. لم أتمكن من إبعاد نوبورو واتايا إلى مكان لا علاقة لي به. وهذه الحقيقة في حد ذاتها أزعجتني أيّما إزعاج. والد كوميكو رجل متعجرف بغيض، لاشك في ذلك، لكنه في النهاية مجرد شخصية محدودة الأفق، يعيش متشبثاً بمجموعة صغيرة من المعتقدات الضيقة. يمكنني نسيان شخص كذلك، لكن ليس نوبورو واتايا. كان يعرف أي نوع من الرجال هو. كما كانت لديه فكرة جيدة عن طريقة تفكيري وما يمكن أن يثير حفيظتي. إن كانت لديه رغبة، لأمكنه أن يسحقني حتى لا يتبقى مني شيء. والسبب الوحيد لعدم فعله لذلك هو أنه لم يكن يكترث بي البتة. لا أستحق الوقت والجهد

اللذان سيتطلبهما سحقي. وهذا ما أغضبني بشأنه بحق. كان إنساناً دنيئاً مغروراً ومجرداً من أي مشاعر. لكنه صاحب مواهب ومقدرات تفوق ما لديّ بكثير.

انفضّ لقاؤنا الأول وقد ترك طعماً سيئاً في فمي لم أستطع التخلص منه. شعرت كما لو أن أحدهم قد أقحم حفنة من الحشرات ذات الرائحة الكريهة في فمي بالقوة. وبصْقها لم يساعدني كثيراً، كنت ما أزال أشعر بها في فمي. كان نوبورو واتايا هو كل ما أفكر فيه،يوماً بعد يوم. جرّبت الذهاب إلى الحفلات الموسيقية ومشاهدة الأفلام، حتى إنني ذهبت إلى مباراة بيسبول مع زملائي بالمكتب. شربت، وقرأت الكتب التي كنت أؤجل قراءتها حتى أجد الوقت. لكن نوبورو واتايا دائماً ما يكون حاضراً في ذهني، عاقداً ذراعيه، يرمقني بعينيه الخبيثتين، اللتان تهددان بابتلاعي كمستنقع لا قاع له. وهذا ما أثار أعصابي إلى أقصى الحدود، وأوصل رعشات غضبي إلى الأرض التي أقف عليها.

سألتني كوميكو، عندما قابلتها في المرة التالية، عن انطباعي عن شقيقها. لم أتمكن من إخبارها بصدق. أردت أن أسألها عن القناع الذي كان يضعه وعن «الشيء» المخبول خلفه. أردت أن أخبرها عن كل ما أعتقده بشأن شقيقها. لكنني لم أقل شيئاً. شعرت بأن هذه الأشياء لا يمكنني إيصالها لها، وأنني إذا لم أكن قادراً على التعبير عن نفسي بوضوح، فيجدر بي ألا أعبر عن نفسي إطلاقاً. ليس الآن.

قلت : «إنه.. مختلف، هذا مما لا يرقى إليه الشك». وأردت أن أضيف شيئاً آخراً، لكنني لم أعثر على الكلمات المناسبة. كما أنها لم تضغط عليَّ لأدلي بالمزيد. أومأتْ بصمت فحسب.

لم تتغير مشاعري ناحية نوبورو واتايا بعد ذلك إطلاقاً، استمر في إثارة أعصابي بنفس الطريقة، كحمّى لا شفاء منها. لم يكن لدي تلفاز في المنزل يوماً. لكن من عجائب الصدف، كلما ألقيت نظرة على تلفاز في مكان ما، أراه يدلي برأيٍ ما. وإذا تصفحت مجلة في صالة انتظار طبيب، أجد بها صورة لنوبورو واتايا، مع مقال كتبه. شعرت كأنما نوبورو واتايا يكمن متربصاً بي في جميع أركان العالم.

حسناً، عليّ أن أقر، إنني أمقت الرجل.

7

أصحاب المغاسل السعداء

*

وظهـور كانـو

*

أخذت بلوزة لكوميكو وتنورة إلى المغسلة التي بالقرب من المحطة. عادةً ما آخذ ملابسنا إلى المغسلة المجاورة لنا، ليس لأنني أفضّلها، إنما لأنها أقرب. تتعامل كوميكو أحياناً مع المغسلة التي بجوار المحطة في طريقها من وإلى العمل. تترك شيئاً في طريقها إلى المكتب صباحاً، وتأخذه في طريقها إلى المنزل مساءً. كان هذا المكان غالياً قليلاً، لكنهم، وفقاً لكوميكو، يقومون بعمل أفضل من عمل مغسلة الحي. ودائماً ما تأخذ إليها أفضل فساتينها. ولهذا قررت في ذلك اليوم أن أذهب بدراجتي إلى المحطة، ظناً مني أنها تفضل غسل ملابسها هناك.

غادرت المنزل حاملاً التنورة والبلوزة، مرتدياً سروالاً قطنياً أخضراً خفيفاً، وحذاء التنس المعتاد، وتيشيرت فان هيلن ترويجي أصفر، تلقته كوميكو من شركة تسجيلات. كان صاحب المحل يشغل مشغل الموسيقى ماركة جي في سي بصوت عال، كما كان الحال في زيارتي السابقة. هذا الصباح كان يضع شريطاً لآندي

ويليامز، انتهت أغنية ‘أغنية زفاف هاوايي’[11] مع دخولي. وبدأت أغنية ‘غروب شمس كَنَدي’[12]، كان المالك يكتب في دفتر ملاحظاته بقلم حبر جاف، وهو يصفر مع الأغنية وحركاته مفعمة بالحيوية كما في المرة السابقة. بين مجموعة الأشرطة على الرف، لمحت أسماء مثل سيرغيو مينديز، وبيرت كامبفرت، و101 سترينغر. إذاً فهو كان مهووساً بالموسيقى الهادئة. خطر لي فجأة أن محبي موسيقى الجاز الصاخبة، أمثال ألبرت آيلر، ودون شيري، وسيسيل تايلر لا يمكنهم أن يصبحوا أصحاب مغاسل في المراكز التجارية المقابلة لمحطات القطار. أو ربما يمكنهم ذلك، لكنهم لن يكونوا سعداء.

عندما وضعت البلوزة المشجرة والتنورة التي بلون عشبة المريمية على المنضدة، فردهما أمامه سريعاً، وكتب على الإيصال «بلوزة وتنورة». كان خطه واضحاً. يروقني أصحاب المغاسل الذين يكتبون بوضوح، ويروقونني أكثر إذا كانوا يحبون آندي ويليامز.

«السيد أوكادا، صحيح؟» قلت له صحيح. فكتب اسمي، ومزق النسخة الكربونية، وناولني إياها قائلاً: «ستكون جاهزة يوم الثلاثاء المقبل، لاتنس أن تأتي لأخذها هذه المرة. هل الملابس تخص السيدة أوكادا؟»

«نعم».

---

[11] Hawaiian Wedding Song
[12] Canadian Sunset

«جميلة للغاية».

كان الوقت بعد التاسعة والنصف. والسماء ملبدة بطبقة من الغيوم،وقد تنبأت نشرة أحوال الطقس بهطول أمطار، لكن ما يزال هناك كثير من الرجال يحملون حقائب ومظلات مطوية يهرعون ناحية المحطة. كان الصباح حاراً ورطباً لكن ذلك لم يشكل فرقاً بالنسبة لأولئك الرجال. جميعهم كانوا يرتدون بدلات وربطات عنق وأحذية سوداء. ورأيت كثيرين منهم في مثل عمري. لكن لا أحد منهم يرتدي تيشيرت فان هيلن. كل منهم كان يضع شارة شركته، ويحمل نسخة من صحيفة نيكي نيوز تحت ذراعه. رن الجرس وأسرع عدد منهم إلى أعلى السلالم. لم أرَ رجالاً كهؤلاء منذ فترة طويلة. ووجدت نفسي أصفّر أغنية ‘غروب شمس كندي’ في طريقي إلى المنزل على دراجتي.

*

اتصلت مالطا كانو عند الحادية عشرة. سألتني: «مرحباً. أتساءل ما إذا كان هذا منزل السيد تورو أوكادا».

«نعم، أنا تورو أوكادا». علمت أنها مالطا كانو من «مرحباً» الأولى.

«اسمي مالطا كانو. كنتَ لطيفاً بما يكفي لمقابلتي ذلك اليوم. هل لديك أي خطط اليوم بعد الظهر؟»

ليس لدي. قلت: «ليس لدي خطط أكثر مما لدى الطيور المهاجرة من عقارات».

«في هذه الحالة، ستزورك شقيقتي الصغرى، كانو، عند الساعة الواحدة».

«كانو؟» قلت بصوت مسطح.

«نعم، أعتقد أنني أريتك صورتها ذلك اليوم».

«أتذكرها، بالطبع. كل ما في الأمر...»

«اسمها كانو. ستأتي لزيارتك ممثلةً لي. هل الساعة الواحدة تناسبك؟»

«لا بأس».

قالت: «ستكون عندك». وأنهت المكالمة.

كانو؟

نظفت الأرضيات ورتبت المنزل. وقمت بربط الصحف القديمة في حزمة وألقيتها في الخزانة. وضعت أشرطة الكاسيت المبعثرة في صناديقها ورتبتها بجوار الستريو. وغسلت الأواني المتراكمة في المطبخ. ثم غسلت نفسي: حمام، شامبو، ملابس نظيفة. أعددت قهوة، وتناولت الغداء المكون من شطيرة لحم خنزير وبيض مسلوق. ثم جلست على الأريكة أقرأ مجلة هوم جورنال، وأتساءل عما علي إعداده للعشاء. اخترت وصفة لإعداد أعشاب البحر وسلطة التوفو، ودوّنت المكونات في قائمة

تسوق. ثم شغلت راديو إف إم. كان مايكل جاكسون يغني ‘بيلي جين’[13]. فكرت بالشقيقتين مالطا كانو وكانو، اسمان غريبان لشقيقتين! تبدوان كفرقة كوميدية. مالطا كانو. كانو.

كانت حياتي تتخذ منعطفاً جديداً، هذا مما لا ريب فيه. هرب القط، وتلقيت مكالمات غريبة من امرأة غريبة. والتقيت بفتاة غريبة الأطوار، وبدأت أزور منزلاً مهجوراً. واغتصب نوبورو واتيا كانو. وتنبأت مالطا كانو بأنني سأجد ربطة العنق. وقالت لي كوميكو إنني لست مضطراً للعمل.

أغلقت الراديو، وأعدت مجلة هوم جورنال إلى رف الكتب، وشربت كوباً آخر من القهوة.

*

ضغطت كانو جرس الباب عند الواحدة تماماً. كانت تبدو كما رأيتها في الصورة تماماً. امرأة صغيرة الحجم في أوائل أو منتصف العشرينيات من عمرها، من النوع الهادئ. تحافظ على المظهر الذي كان سائداً أوائل الستينيات على نحو لافت. بتسريحة الشعر المنفوخة التي رأيتها في الصورة، نهايات الشعر منثنية للأعلى، وشعر مقدم الرأس مثبت للخلف بمشبك لامع ضخم. وحاجباها محددان بدقة، وظلال

[13] Billy Jean

رموشها تضفي غموضاً على عينيها. وأحمر شفاهها باللون نفسه الذي كان رائجاً في ذلك الوقت. بدت مستعدة لغناء أغنية ‘جوني آنجل’ إذا ما وضعت مايكرفوناً في يدها.

كانت ملابسها أكثر بساطة بكثير من مكياجها. عملية وليس ثمة ماهو غريب بشأنها. بلوزة بيضاء، وتنورة خضراء ضيقة. ولا إكسسوارات تذكر. وتحت ذراعها حقيبة من الجلد اللامع، وتنتعل حذاءً أبيضاً مستدق الطرف. كان الحذاء صغيراً للغاية وكعبيه حادّين كسن قلم رصاص، وبدا كحذاء دمية. كدت أهنئها على وصولها بسلام مرتديةً إياه.

تلك هي كانو إذاً. أرشدتها إلى الداخل، ودعوتها للجلوس على الأريكة. وسخنت القهوة، وقدمت لها كوباً. هل تناولتْ الغداء؟ سألتها، فقد بدت لي جائعة. قالت: لا.

وأردفتْ بسرعة: «لكن لا تشغل بالك بي، فأنا لا أتناول الكثير على الغداء».

سألتها: «هل أنت متأكدة؟ يمكنني أن أعد شطيرة بسهولة. لا تتمسكي بالشكليات. أعد الوجبات الخفيفة وهذه الأشياء طوال الوقت، ليست مشكلة إطلاقاً».

أجابت بهزات صغيرة من رأسها «هذا لطف منك، لكنني لا أرغب، حقاً. لا تكلف نفسك. كوب القهوة أكثر من كاف».

مع ذلك، جلبت طبقاً من الكعك المحلى، تحسباً. فالتهمت كانو أربعة منها بتلذذ واضح، وتناولتُ اثنين واحتسيت قهوتي.

بدت لي أكثر استرخاءً بعد تناولها الكعك والقهوة، وقالت: «اسمي كريتا كانو، أنا هنا اليوم ممثلة لشقيقتي الكبرى مالطا كانو. كريتا ليس اسمي الحقيقي بالطبع، اسمي الحقيقي هو سيتسوكو. اتخذت الاسم بعدما بدأت العمل مساعدة لشقيقتي، لأسباب مهنية. إنه الاسم القديم لجزيرة كريت لكن ليست لي علاقة بكريت،ولم أذهب إليها قط. اختارت شقيقتي مالطا الاسم ليتماشى مع اسمها. هل ذهبت إلى جزيرة كريت من قبل يا سيد أوكادا؟»

قلت: «لا للأسف، لم أذهب إلى كريت قط، وليست لدي خطط لزيارتها في المستقبل القريب».

قالت كانو وهي تومئ ونظرة جادة تعلو وجهها: «أود الذهاب إليها ذات يوم. كريت هي الجزيرة اليونانية الأقرب إلى إفريقيا. إنها جزيرة كبيرة، وقد ازدهرت فيها حضارة عظيمة قبل وقت طويل. ذهبت شقيقتي مالطا إلى كريت أيضاً. وتقول إنها مكان رائع. الرياح قوية. والعسل شهي، أحب العسل».

أومأتُ. لست مولعاً بالعسل.

تابعتْ: «جئت اليوم لأطلب منك معروفاً، أريد أن آخذ عينة من الماء الذي في منزلك».

سألتها: «الماء؟ أتعنين ماء الصنبور؟»

«سيكون ذلك جيداً. وفي حال وجود بئر على مقربة من هنا، أود أن آخذ عينة منها أيضاً».

«لا أعتقد هذا. توجد بئر في الحي، لكنها في منزل شخص آخر، وهي جافة».

رشقتني كانو بنظرة معقدة المعنى، وسألتني: «هل أنت متأكد؟ هل أنت متأكد أنها خالية من أي ماء؟»

استدعيت في ذهني الصوت الجاف الذي أصدرته قطعة القرميد عندما ألقتها الفتاة في البئر بالمنزل الخالي. «نعم إنها جافة، أنا متأكد تماماً».

«حسناً، لا بأس. سآخذ عينة من ماء الصنبور. إن لم تكن تمانع».

قدتها إلى المطبخ. فأخرجتْ قنينتين صغيرتين من حقيبتها الجلدية البيضاء، من النوع الذي يُستخدم للأغراض الطبية. وملأت واحدة بالماء، وأحكمت إغلاق غطائها بعناية بالغة. ثم قالت إنها تريد أن تأخذ عينة من الأنبوب الذي يزود حوض الحمام. فقدتها إلى الحمام.فتحت كانو الصنبور، دون أن يتشتت انتباهها بكل الملابس الداخلية والجوارب التي تركتها كوميكو، وملأت القنينة الثانية. وبعد إعادة غطاءها، قلبتها رأساً على عقب لتتأكد من أنها لا تسرب. كانت أغطية القنينتين بألوان مختلفة: الأزرق لماء الحمام، والأخضر لماء المطبخ.

عدنا إلى أريكة صالة الجلوس. وضعت القنينتين بداخل كيس بلاستيكي، ثم وضعت الكيس داخل حقيبتها البيضاء بحرص، التي أصدر مشبكها المعدني صوتاً

جافاً عندما أغلقته. كانت يداها تتحركان بسلاسة وتمرس. من الواضح أنها قامت بهذا العمل مرات عديدة من قبل.

قالت: «شكراً جزيلاً لك».

«أهذا كل شيء؟»

«نعم، بالنسبة لليوم». شدّت تنورتها، ودسّت حقيبتها تحت ذراعها، واستعدت للنهوض.

«مهلاً لحظة». قلت بشيء من الارتباك. ولم أتوقع أن تغادر فجأة هكذا. «تمهلي دقيقة فحسب. تريد زوجتي معرفة ما حدث مع القط. مر أكثر من اسبوعين الآن، إن كنت تعرفين أي شيء فأود لو تشاركيه معي».

نظرت كانو إلي هنيهة، وهي ما تزال ممسكة بحقيبتها تحت ذراعها، ثم أومأت إيماءات سريعة. عندما حركت رأسها، اهتزت نهايات شعرها المنثنية لأعلى بخفة أوائل الستينيات. وعندما رمشت، تحركت رموشها المزيفة للأعلى والأسفل ببطء مثل المراوح ذات العصي الطويلة التي يحركها العبيد في الأفلام التي تدور أحداثها في مصر القديمة.

«لأكون صادقة معك، تقول شقيقتي إن هذا الموضوع ستكون قصته أطول مما بدت عليه في بادئ الأمر».

«قصة أطول مما بدت؟»

أوحت لي عبارة «قصة أطول» بوتد مغروس في الصحراء، حيث لا يوجد شيء على مد البصر، ومع غروب الشمس يصير ظل الوتد أطول فأطول، حتى تصبح نهاية الظل أبعد من أن تُرى بالعين المجردة.

تابعت كانو: «هذا ما تقوله، سوف تتضمن هذه القصة أكثر من مجرد اختفاء قط».

قلت: «أنا مشوش. كل ما نطلبه منكما هو مساعدتنا على ايجاد القط، ولا أكثر من هذا. إن كان القط ميتاً، فنريد معرفة ذلك على وجه التأكيد. لماذا يجب أن تكون 'قصة أطول'؟ لا أفهم».

«أنا أيضاً لا أفهم». رفعت يدها إلى مشبك شعرها اللامع ودفعته للخلف قليلاً، «لكن رجاءً، ضع ثقتك في شقيقتي. لا أقول إنها تعرف كل شيء، لكن إن قالت إنها ستكون قصة أطول، فتأكد أنها ستكون قصة أطول».

أوماتُ دون أن أقول شيئاً، ولم يكن ثمة ما يمكنني قوله.

سألتني كريتا كانو، وهي تتحدث بجدية، وتنظر داخل عيني مباشرة: «هل أنت مشغول يا سيد أوكادا؟ هل لديك أي خطط لبقية فترة ما بعد الظهر؟»

لا، قلت إنني ليست لدي خطط.

قالت: «إذاً أتمانع إذا أخبرتك بعض الأشياء عن نفسي؟» ووضعت الحقيقة الجلدية البيضاء التي كانت تحملها على الأريكة، وأراحت يديها، واضعةً واحدة على الأخرى، على تنورتها الخضراء الضيقة، على الركبتين. أظافرها مطلية بلون زهري جميل، ولم تكن تضع خواتم.

قلت: «رجاءً، قولي ما تودين قوله».

وهكذا أخذ مسار حياتي، كما تنبأتُ، في اللحظة التي ضغطت فيها كريت كانو جرس الباب، منعطفاً أكثر غرابة.

8

قصة كانو الطويلة

*

تحقيق في طبيعة الألم

بدأت كانو رواية قصتها: «وُلدت في التاسع والعشرين من مايو. وفي ليلة عيد ميلادي العشرين، قررت إنهاء حياتي».

وضعتُ كوباً آخراً من القهوة أمامها. فأضافت إليها الكريمة وحركتها ببطء، ولم تضيف السكر. شربتُ قهوتي سوداء، كالعادة. وكانت الساعة على الرف تواصل دقاتها الجافة على جدار الزمن.

أمعنت كانو النظر إليّ وقالت: «أتساءل ما إذا كان ينبغي لي أن أبدأ من البداية. مكان الميلاد، والحياة الأسرية، وهذه الأشياء».

قلت: «كما تشائين، أياً كان ما تجدينه مريحاً».

«كنت الثالثة بين ثلاثة أطفال. أنا ومالطا لدينا شقيق أكبر. كان والدي يدير عيادته الخاصة بمقاطعة كاناغاوا. ولم يكن لدينا ما يمكن أن تسميه مشكلات منزلية. نشأت في منزل عادي، من النوع الذي تجده في أي مكان. كان والداي جادّين للغاية ويؤمنان بقيمة العمل الجاد. وكانا متشددان معنا إلى حد ما، لكن يبدو لي أنهما منحانا درجة معقولة من الاستقلال فيما يتعلق بالأمور الصغيرة. كنا أثرياء، بيد أن والديّ كانا يفضلان عدم منح أطفالهما أموالاً تفيض عن حاجاتهم الضرورية.

تكبرني مالطا بخمس سنوات. كان ثمة شيء مختلف بشأنها منذ البداية، ولديها مقدرة على تخمين الأشياء. مثلاً تعرف أن المريض في الغرفة كذا مات للتو، أو مكان محفظة مفقودة، أو أياً كان. استمتع الجميع بالأمر في بادئ الأمر، ودائماً ما كانوا يجدون في مقدرتها عوناً كبيراً. لكن سرعان ما بدأت تسبب ازعاجاً لوالدي، فأمرها بألّا تتحدث مطلقاً أمام الناس الآخرين عن أشياء لا تسندها أسس واضحة من الحقائق. فقد كان قلقاً على مكانته باعتباره مدير المستشفى، ولم يرغب في أن يسمع الناس أن ابنته تملك قوى خارقة للطبيعة. وضعت مالطا قفلاً على فمها بعد ذلك. لم تكف عن الحديث عن الأشياء التي لا تسندها أسس واضحة من الحقائق فحسب، بل صارت نادراً ما تشارك في أبسط المحادثات.

لكنها فتحت قلبها لي. ونشأنا مقربتين جداً من بعضنا. كانت تقول 'لا تخبري أحداً بأنني قلت لك هذا'، ثم تقول شيئاً مثل: 'سينشب حريق في نهاية الشارع'، أو 'سوف تسوء حالة العمّة في سيتاغاتا'، ودائماً ما تكون محقة. كنت ما أزال طفلة صغيرة، لذلك كنت أجد في الأمر متعة كبيرة، ولم يخطر لي أنه مخيف أو غريب. وحسبما أذكر، دائماً ما كنت أتبع شقيقتي إلى كل مكان وأتوقع سماع 'نبوءاتها'.

أصبحت قواها الخاصة أقوى مع تقدمها في السن، لكنها لم تكن تعرف كيفية استخدامها أو رعايتها. وقد سبب لها هذا كرْباً عظيماً. لم يكن ثمة شخص يمكنها أن تطلب إرشاده، فصارت مراهقة وحيدة ومنطوية على نفسها. تعيّن عليها أن تجد جميع الأجوبة والحلول بنفسها. لم تكن سعيدة في منزلنا، ولم يحدث أن مرت لحظة وجدت فيها السكينة في قلبها. تعيّن عليها أن تخمد قواها وتبقيها طي الكتمان. كان الأمر مثل زراعة نبتة قوية وعملاقة داخل وعاء صغير. كان أمراً غير طبيعي. كان خطأً. كل ما كانت تعرفه هو أنها عليها أن تغادر المنزل بأسرع ما يمكنها. وكانت تعتقد أنه في مكانٍ ما، هناك عالم يناسبها، وأسلوب حياة يلائمها. لكن حتى يحين موعد تخرجها في المدرسة الثانوية، تعيّن عليها أن تذعن لواقعها.

كانت عازمة على عدم دخول الجامعة. وفضّلت السفر إلى الخارج بعد نهاية المرحلة الثانوية. عاش والديّ حياة تقليدية، وبطبيعة الحال، لم يكونا مستعدان

لتركها تفعل شيئاً كهذا. لذلك عملت شقيقتي جاهدة لتوفير المال الذي قد تحتاج إليه، ثم هربت. ذهبت إلى هاواي أولاً. وعاشت في كاواي عامين. كانت قد قرأت في مكان ما أن بالساحل الشمالي من كاواي توجد منطقة بها ينابيع مياه رائعة. حتى قبل ذلك الوقت، كانت شقيقتي تولي الماء اهتماماً خاصاً. معتقدةً أن الوجود البشري تتحكم به عناصر الماء بدرجة كبيرة. ولذلك ذهبت لتعيش في كاواي. كان ما يزال يوجد تجمع للهيبيين في الجزء الداخلي من الجزيرة في ذلك الوقت، فعاشت كواحدة منهم. وقد كان للماء هناك أثر عظيم على قواها الروحية. وبإدخال ذلك الماء إلى جسدها، تمكنت من اكتساب 'تناغم أعمق' بين قواها وذاتها المادية. كانت تكتب لي، وتخبرني عن مدى روعة ما يحدث لها. وقد جعلتني رسائلها سعيدة للغاية. لكن سرعان ما لم تعد المنطقة تلبي طموحاتها. صحيح أنها كانت أرض جميلة وهادئة، وكان الناس هناك لا يبحثون سوى عن السلام الروحي، ومتحررين من الرغبات المادية. بيد أنهم كانوا شديدو الميل إلى الجنس والمخدرات. ولم تكن شقيقتي بحاجة إلى مثل هذه الأشياء. لذلك غادرت كاواي، بعدما أمضت فيها عامين.

ومن هناك اتجهت إلى كندا. وبعد تنقلها في المناطق الشمالية من الولايات المتحدة، واصلت رحلتها إلى أوربا. كانت تختبر المياه في كل مكان تذهب إليه، ونجحت في العثور على مياه رائعة في عدة أماكن، لكن لم تكن من بينها المياه المثالية. فواصلت الترحال. وكلما نفد ما معها من مال، كانت تمارس ما يشبه قراءة الحظ. ويكافئها الناس على مساعدتها لهم على العثور على الأشياء الضائعة، أو الأشخاص المفقودين. كانت تفضّل ألا تأخذ المال. فالقوى التي تهبها السماء لها، ينبغي أن لا تُستبدل بأشياء دنيوية. لكن في ذلك الوقت، كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي يمكنها أن تبقي بها نفسها على قيد الحياة. يسمع الناس بمقدراتها التنبؤية حيثما تذهب، فكان من السهل عليها كسب المال. حتى إنها ساعدت الشرطة في تحقيق بإنجلترا. كانت هناك فتاة صغيرة مفقودة، ووجدت المكان الذي خُبئت فيه الجثة، وعثروا على قفاز القاتل بالجوار. فأُعتقِل الرجل واعترف بجرمه. وقد انتشر الخبر في جميع الصحف. سوف أريك القصاصات ذات يوم. على أي حال، واصلت التجول في أرجاء أوربا هكذا حتى انتهى بها المطاف في مالطا. وقد مضت خمس

سنولت على مغادرتها اليابان. واتضح أن ذلك المكان كان وجهتها النهائية في بحثها عن المياه. أعتقد أنها أخبرتك بهذا بنفسها».

أومأتُ.

«استمرت مالطا في مراسلتي خلال طوال الفترة التي كانت تتجول فيها حول العالم. وبالطبع هناك أوقات لم تتمكن فيها من الكتابة. لكن كنت أتلقى منها رسالة، كل أسبوع تقريباً، عن أحوالها وما تفعله. كنا ما نزال مقربتين. حتى عبر المسافات البعيدة، كان بمقدورنا مشاركة مشاعرنا عبر الرسائل، ولكم كانت رسائلها رائعة! إذا تمكنتَ من قراءتها فسترى كم هي إنسانة رائعة. وعبر رسائلها تمكنتُ من التعرف على عوالم كثيرة مختلفة، والكثير من الأشخاص المميزين! ومنحتني رسائلها الكثير من التشجيع، وساعدتني على النضج. ولذلك سأكون دوماً ممتنة لشقيقتي. لا أنكر بأي طريقة ما فعلته شقيقتي من أجلي، لكن الرسائل تظل مجرد رسائل. فهي دائماً ما كانت في مكان بعيد جداً عندما كنت في أصعب سنوات مراهقتي. وعندما كنت في أمس الحاجة إليها، لم استطع أن أمد يدي وأجدها بالقرب مني. كنت وحيدة في أسرتنا، ومعزولة. كانت سنوات مراهقتي مليئة بالألم، وسوف أخبرك لاحقاً عن ذلك الألم. لم يكن ثمة من أذهب إليه طلباً لنصيحته. من هذه الناحية، كنت وحيدة كما كانت مالطا. إذا كانت بقربي في ذلك الوقت لاختلفت حياتي عما هي عليه اليوم، ولأمدتني بالنصح والتشجيع والخلاص. لكن ما فائدة ذكر هذه الأشياء الآن؟ مثلما تعيّن على مالطا أن تشق طريقها بنفسها، تعين عليّ أيضاً أن أشق طريقي بنفسي. وعندما بلغت العشرين، قررت أن أنتحر».

حملت كريتا كانو كوبها وشربت ما تبقى من قهوتها. وقالت: «يا لها من قهوة رائعة!»

قلت عرَضياً: «شكراً. أيمكنني أن أقدم لك شيئاً تأكلينه؟ سلقت بعض البيض قبل قليل».

بعدما ترددت قليلاً، قالت إنها ستتناول واحدة. أحضرت البيض والملح من المطبخ وسكبت لها مزيداً من القهوة. وشرعنا في تقشير البيض وأكله وشرب القهوة بتمهل. في غضون ذلك، رن الهاتف، لكنني لم أجبه. وتوقف بعد خمس عشرة أو ست عشرة رنة. وطوال ذلك الوقت، بدت كانو غير مدركة لرنين الهاتف.

بعدما فرغت من بيضتها، أخذت كانو منديلاً من حقيبتها الجلدية البيضاء ومسحت فمها، ثم شدت تنورتها.

«حالما قررت قتل نفسي، أردت أن أترك خلفي رسالة. فجلست إلى طاولتي ساعة، محاولةً كتابة أسباب موتي. أردت أن أوضح أنني لا ألوم أحداً، وأن الأسباب مصدرها داخلي. إذ لم أرغب في أن تشعر أسرتي بالمسؤولية.

لكنني لم أستطع إنهاء الرسالة. حاولت مراراً، لكن كل مسودة بدت لي أسوأ من سابقتها. عندما أقرأ ما كتبته، يبدو لي سخيفاً وهزلياً. وكلما حاولت الكتابة بجدية، بدا لي ما أكتبه أكثر سُخفاً. وفي النهاية، قررت ألا أكتب شيئاً إطلاقاً.

شعرت بأنها مسألة بسيطة. كنت محبطة من حياتي، ولم أعد أستطيع تحمل كل أنواع الألام التي ظلت الحياة تنزلها بي. تحملت الألم عشرين عاماً. ولم تكن حياتي سوى مصدر دائم للألم، بيد أنني حاولت الاحتمال بقدر مستطاعي. كانت ثقتي مطلقة في فعالية مجهوداتي لتحمل الألم. يمكنني أن أصرّح هنا بفخر أن مجهوداتي لا مثيل لها. ما كنت لاستسلم دون مقاومة. لكن في اليوم الذي بلغت فيه العشرين من عمري، توصلت إلى خلاصة بسيطة: إن الحياة لا تستحق كل هذا. الحياة لاتستحق الاستمرار في معاناة كهذه».

توقفتْ عن الحديث، وأمضت بعض الوقت وهي تطابق زوايا منديلها الأبيض على حجرها. عندما نظرت إلى الأسفل، ألقت رموشها الطويلة المزيفة ظلالاً خفيفة على وجهها.

تنحنحتُ، شاعراً بأنني يجب أن أقول شيئاً، لكنني لم أدرِ ما أقوله. فلزمت الصمت. وسمعت صوت طائر الزنبرك من بعيد.

قالت كانو: «كان الألم هو ما جعلني أقرر الانتحار. وعندما أقول ‹ألم›، فهذا ما أعنيه تحديداً. ليس ألماً نفسياً أو مجازياً، إنما ألم جسدي، بمعنى الكلمة. جميع أنواع الآلام الممضّة: الصداع، ألم الأسنان، تقلصات الحيض، آلام أسفل الظهر، الحمى، تقلص الكتفين، آلام العضلات، الحروق، تيبّس الأطراف بسبب الصقيع، الإلتواءات، الكسور، الضربات. اختبرت الألم الجسدي بكل ألوانه طوال حياتي بدرجة أشد وأكثر تكراراً من الآخرين. فلنأخذ أسناني، على سبيل المثال،تؤلمني طوال العام، وتبدو كأن بها عيباً خلقياً. لا يهم إذا نظفتها بعناية أو نظفتها أكثر من مرة في اليوم، ولا يهم إذا تجنبت جميع أنواع الحلويات، لا فائدة، تنتهي جميع جهودي إلى التسوس. والأسوأ من ذلك، يبدو أن المسكنات عديمة المفعول معي. ودائماً ما كان الذهاب إلى طبيب الأسنان كابوساً. كان الألم لا يوصف، وقد أفزعني حتى الموت. ثم بدأت دوراتي الشهرية الفظيعة، التي كانت مُجهدة على نحو لا يمكن تصديقه، وتستمر أسبوعاً كل مرة. وأشعر بآلام لا تطاق، كما لو أن أحدهم يلوي مثقاباً بداخلي. وينبض رأسي. على الأرجح لا يمكنك تخيل الأمر يا سيد أوكادا. كانت عيناي تدمعان من شدة الألم. وظل هذا الألم الذي لا يحتمل يعذبني أسبوعاً من كل شهر.

وإذا ركبت طائرة، أشعر برأسي كأنه ينفلق بسبب تغيرات ضغط الجو. قال الطبيب إن للأمر علاقة بتركيب أذني، وأن مثل هذه الحالات تحدث عندما يكون شكل الأذن الداخلية حساس لتغيرات الضغط الجوي. وغالباً ما يحدث الأمر نفسه في المصاعد. لا يمكنني أن أستقل المصاعد في المباني العالية، حيث أشعر بأن رأسي على وشك أن ينشق وتنبجس منه الدماء في عدة أماكن. أما بطني، فكانت تسبب لي ألماً حاداً مرة واحدة أسبوعياً على الأقل، لدرجة إنني لا أستطيع النهوض في الصباح. ولم يتمكن الأطباء من معرفة السبب قط. اقترح بعضهم أن السبب نفسي. لكن حتى لو كان كذلك فلا يزال ممضاً. ومع كل تلك المعاناة، لم يكن بوسعي المكوث في المنزل وعدم الذهاب إلى المدرسة. إذا لم أذهب إلى المدرسة كلما آلمني عضوٌ ما، فما كنت لأذهب إطلاقاً.

كلما ارتطمت بشيء ما، يخلف كدمة على جسدي. ودائماً ما يجعلني النظر إلى نفسي في المرآة أرغب في البكاء. كانت الرضوض والكدمات تغطي جسدي لدرجة إنني كنت أبدو كتفاحة متعفنة. كرهت أن أدع أي أحد يراني مرتدية ملابس السباحة. بقدر ما تسعفني ذاكرتي، لا أذكر أنني ذهبت للسباحة إطلاقاً لهذا السبب. ثمة مشكلة أخرى كنت أعانيها، وهي اختلاف حجميّ قدميّ. فكلما اشتريت حذاءً جديداً، تسبب لي القدم الأكبر ألماً مبرحاً حتى يتكيف الحذاء مع حجم القدم.

لم أمارس أي رياضة تقريباً بسبب كل هذه المشكلات. عندما كنت في المدرسة الثانوية المتوسطة، سحبتني صديقاتي عنوة ذات مرة إلى حلبة للتزلج على الجليد. فسقطت وآذيت وركي بشدة وصرت أحس بألم حاد في موضع السقطة كل شتاء. شعرت كما لو أن أحدهم وخزني بإبرة كبيرة غليظة. كما سقطت عدة مرات وأنا أحاول النهوض من كرسي.

عانيت الإمساك كذلك. لم تكن حركة الأمعاء كل بضعة أيام سوى ألم بالنسبة لي. كما كان كتفاي يتصلبان بشدة، وتتقلص عضلاتي وتتيبس حتي تصير كالصخر. لم أكن أستطيع الوقوف، لكن الاستلقاء لم يكن يساعد أيضاً. تخيلت أن معاناتي لا بد أن تكون أشبه بعقاب صيني قرأت عنه. كانوا يحشرون الشخص المعاقَب في صندوق عدة سنوات. كنت أتنفس بالكاد عندما يكون كتفاي في أسوأ حالاتهما.

يمكنني أن أواصل ذكر جميع الآلام المختلفة التي عانيتها في حياتي، لكن هذا لن يشعرك سوى بالملل يا سيد أوكادا، لذا سأكتفي بهذا القدر. ما أريد قوله هو أن جسدي كان بمثابة كتاب عينات خاص بالألم. اختبرت كل ألم يمكن اختباره. وبدأت أعتقد أنني ملعونة، وأن حياتي غير عادلة. ربما كنت لأستطيع تحمل الألم إذا كان الآخرون يعيشون الألم مثلي، بيد أنهم لم يكونوا يعيشونه، ولم استطع تحمله. لم يكن الألم شيئاً وُزع على الناس بالتساوي. حاولت أن أسأل الناس عن الألم، لكن لا أحد كان يعرف ماهية الألم الحقيقي. يعيش غالبية الناس في العالم دون الشعور بكثير من الآلام، على الأقل ليس يومياً. وعندما أدركت هذا أخيراً (كنت قد دخلت

المدرسة الثانوية المتوسطة حينئذٍ)، حزنت أيما حزن، ولم أستطع التوقف عن البكاء. لماذا أنا؟ لمذا يجب أن أكون *أنا* التي تتحمل مثل هذا العبء الرهيب؟ أردت أن أموت في مكاني في تلك اللحظة.

لكن في الوقت نفسه، خطرت لي فكرة أخرى. لا يمكن أن يستمر هذا الوضع للأبد. سوف أستيقظ ذات صباح وسيكون الألم قد اختفى فجأة، دون أي تفسير، وسوف تنبسط أمامي حياة جديدة خالية من الألم. بيد أنها لم تكن فكرة يمكنني أن أعقد عليها آمالاً كبيرة.

وشاركت أفكاري هذه مع شقيقتي، أخبرتها أنني لا أرغب في مواصلة العيش في مثل هذا الألم، فما الذي علي فعله؟ بعدما فكرتْ بالأمر قليلاً، قالت: ‘ثمة خطب بك، لكنني لا أعرف ماهيته، ولا أعرف ما ينبغي لك فعله إزاءه. ليست لدي المقدرة على إطلاق مثل هذه الأحكام بعد. وكل ما أعرفه هو أنه ينبغي لك أن تنتظري حتى تبلغي العشرين على الأقل. تحمّلي حتى تبلغي العشرين، ثم اتخذي قرارك. سيكون هذا أفضل’.

وهكذا قررت أن أعيش حتى أبلغ العشرين. لكن مهما انقضى من وقت، لم يتحسن الوضع، ولو قليلاً. بل أصبح الألم أكثر حدة. وعلمني ذلك أمراً واحداً، وهو أن حدة الألم تزيد مع نمو الجسد. مع ذلك، تحملت الألم ثمانية سنوات. وواصلت العيش كل ذلك الوقت محاولةً أن أرى الجانب المشرق من الحياة. ولم أشكُ لأي أحد. بل جاهدت لأظل مبتسمة، حتى عندما يكون الألم في أشد درجاته. وروَّضت نفسي على الظهور بمظهر خارجي هادئ حتى عندما يكون الألم شديداً لدرجة أستطيع معها الوقوف بالكاد. لن يقلل البكاء والتشكي من حدة الألم، بل سوف أصبح أكثر تعاسة من ذي قبل. ونتيجة لجهودي، أحبني الناس، وكانوا يرونني فتاة هادئة حسنة التربية. وحظيت بثقة الكبار وصداقات من هم في مثل سني. ربما كنت لأعيش حياة مثالية ومراهقة مثالية، لولا الألم، الذي كان يلازمني كظلي. وإذا نسيته لحظة، يهاجم عضواً آخراً من جسدي.

ارتبطت بأحدهم في الجامعة، وفقدت عذريتي، في صيف السنة الثانية. وحتى هذا - كما توقعت- لم يسبب لي سوى الألم. طمأنتني إحدى صديقاتي الأكثر تمرساً قائلة إن الألم سوف يختفي عندما اعتاد الأمر. لكنه لم يختف. في كل مرة، يجعل الألم الدموع تطفر من عينيّ. فأخبرته ذات يوم أنني لم أعد أرغب في ممارسة الجنس. قلت له: 'أحبك، لكنني لا أريد اختبار هذا الألم مجدداً'. فقال إنه لم يسمع بمثل هذا السُخف من قبل. قال: 'تعانين مشكلة عاطفية، استرخي فحسب، ولن تشعري بالألم، بل سوف تستمتعي. فالجميع يفعل هذا، لذلك يمكنكِ الاستمتاع أيضاً. إنك لا تحاولين بجدية، وتتصرفين كالأطفال. وتستخدمين مسألة 'الألم'هذه لتغطي على مشاكلك. كفّي عن التذمر، فلن يفيدك بشيء'.

عندما سمعت ذلك، بعد كل ما عانيته خلال كل تلك الأعوام، انفجرت وصحت به: 'ما الذي تعرفه عن الألم!؟ الألم الذي أشعر به ليس ألماً عادياً. أعرفُ ما هو الألم، وقد اختبرت جميع أنواع الآلام. وعندما أقول إن شيئاً يؤلمني، فهو يؤلمني حقاً!'. وحاولت أن أوضح له هذا بذكر كل ألم اختبرته، لكنه لم يفهم شيئاً. إذ يستحيل أن تفهم ماهية الألم الحقيقي ما لم تختبره بنفسك. وبذلك كانت نهاية علاقتنا.

حل عيد ميلادي العشرين بعد ذلك بمدة قصيرة. تحملت الألم عشرين سنة بكاملها، وأنا يحدوني أمل حدوث تغيير ما، لكنه لم يحدث. وشعرت بالهزيمة التامة. وتمنيت لو مت قبل ذلك. إذ لم يجلب لي صبري سوى مزيداً من الألم».

أخذت كريتا كانو نفساً عميقاً عندما وصلت هذا الحد. كان طبق قشر البيض وكوب القهوة الفارغ يقبعان على الطاولة أمامها، وعلى حجرها المنديل الذي طوته بعناية. ألقت نظرة على الساعة التي فوق الرف، كأنها تذكرت الوقت فجأة، وقالت بصوت جاف: «آسفة. لم أقصد أن أسهب في الحديث هكذا، لقد أخذت الكثير من وقتك. ولن أثقل عليك أكثر من هذا. لا أعرف كيف أعتذر لأنني أضجرتك لهذه الدرجة».

أمسكتْ يد حقيبتها الجلدية البيضاء ونهضت من الأريكة.

فوجئتُ بذلك. لم أرغب في أن تقطع قصتها في منتصفها، وقلت متلعثماً: «مهلاً لحظة. إن كنت قلقة بشأن وقتي، فلا داعي للقلق. ليس لدي ما أفعله طوال فترة بعد الظهر. وبما أنك أخبرتني بكل هذا القدر، لمَ لا تكملي القصة حتى النهاية؟ هناك المزيد، أنا متأكد».

«بالطبع هناك المزيد». قالت وهي تنظر إلي واقفة، ويداها تقبضان على حقيبتها بإحكام. «يمكنكَ اعتبار ما أخبرتك به حتى الآن مجرد مقدمة».

طلبت منها أن تنتظر لحظة، وذهبتُ إلى المطبخ. تنهّدت بعمق مرتين وأنا أقف أمام المغسلة، ثم أخذت كأسين من الخزانة، ووضعت فيهما الثلج، وملأتهما بعصير برتقال من الثلاجة. ثم وضعت الكأسين على صينية صغيرة وذهبت بها إلى صالة الجلوس. قمت بكل ذلك ببطء متعمد، لكنني وجدتها واقفة كما تركتها. وبدت مترددة عندما وضعت كأسي العصير على الطاولة. جلست على الأريكة مجدداً ووضعت حقيبتها بجانبها.

«أتريد مني أن أروي لك القصة حتى نهايتها؟ هل أنت متأكد؟»

«متأكد تماماً».

شربت نصف كأسها وتابعت قصتها:

«فشلت في قتل نفسي، بالطبع. وإلا لما كنت هنا الآن أشرب معك عصير البرتقال، يا سيد أوكادا». نظرتْ إلى داخل عيني، فابتسمتُ لها ابتسامة موافقة. «إذا متّ وفقاً للخطة، لكان موتي هو الحل النهائي بالنسبة لي. يعني الموت نهاية الوعي، وما كنت لأشعر بالآلام مجددا أبداً، وهذا ما كنت أريده بالضبط. لكن لسوء الحظ، اخترت الطريقة الخاطئة للموت.

عند التاسعة من ليلة التاسع والعشرين من مايو، ذهبت إلى غرفة شقيقي وطلبت منه أن يعيرني سيارته، كانت تويوتا إم آر تو جديدة. لم يكن متحمساً لإعارتي إياها،

لكنني لم أكترث له. ولم يكن يستطيع الرفض لأنني أقرضته المال لمساعدته على شرائها. أخذت المفتاح وقدتها نصف ساعة. كانت السيارة قد قطعت ألف ميلاً بالكاد. وتطير بمجرد لمسة على دواسة البنزين. ووجدتها مثالية لغرضي. قدت حتى بلغت نهر تاما في ضواحي المدينة، وهناك وجدت جداراً حجرياً ضخما من النوع الذي كنت أفكر به. كان الجدار الخارجي لمجمع سكني كبير، وينتصب في نهاية طريق مسدود. منحت نفسي مسافة مناسبة لأبلغ السرعة الكافية. ثم ضغطت دواسة البنزين على أرضية السيارة. لا بد أنني كنت أسير بسرعة مئة ميل في الساعة عندما اصطدمت بالجدار وفقدت وعيي.

لكن اتضح أن الجدار، لسوء حظي، أقل صلابة بكثير مما بدا عليه. لم يشيدوه كما ينبغي، لتوفير المال. تهاوى الجدار ببساطة، وتهشمت مقدمة السيارة. هذا كل ما حدث. امتص الجدار الصدمة نظراً لهشاشته. وكأنما حظي لم يكن سيئاً بما يكفي، فقد نسيت، في غمرة تشوشي، أن أحل حزام الأمان.

وهكذا نجوت من الموت، وقد تأذيت بالكاد. والأغرب من كل ذلك، لم أشعر بأي ألم تقريباً. نُقلت إلى المستشفى، وعالجوا ضلعي المكسور الوحيد. ثم جاءت الشرطة للتحقيق، لكنني قلت لهم إنني لا أتذكر شيئاً، وإنني على الأرجح ضغطت دواسة البنزين بالخطأ وكنت أحسبها الكوابح. وصدقوني. كنت قد بلغت العشرين للتو، ولم تمض أكثر من ستة أشهر منذ حصولي على رخصة القيادة. علاوة على أنني لم أكن أبدو من النوع الإنتحاري. مَن قد يحاول قتل نفسه وهو يضع حزام الأمان؟

ما إن خرجت من المستشفى، وجدت أمامي عدة مشكلات علي مواجهتها. أولاً كان علي دفع رهن السيارة التي صارت قطعة من الخردة. إذ لم تكن السيارة مؤمّنة بالكامل بسبب خطأ ما مع شركة التأمين.

أدركت حينئذٍ، وقد فات الأوان، أنه كان ينبغي لي أن أؤجر سيارة مؤمّنة. كان التأمين آخر ما قد يجول بذهني في ذلك الوقت، بطبيعة الحال. لم يخطر لي أن سيارة أخي ليست مؤمنة بالكامل أو إنني سأفشل في قتل نفسي. من المذهل أنني نجوت بعدما اصطدمت بجدار حجري بسرعة مئة ميل في الساعة.

وبعد ذلك بوقت قصير، تلقيت فاتورة من المجمع السكنى بقيمة إصلاح الجدار. طالبوني بـ 294 364 1 يناً، على الفور، نقداً. وكل ما كان يمكنني فعله هو اقتراض المبلغ من والدي، الذي أصرّ على أن أسدد له المبلغ. كان والدي صارماً فيما يتعلق بشؤون المال. قال لي إن الحادث مسؤوليتي، وأنه يتوقع مني أن أسدد له المبلغ في الموعد المحدد. في الواقع، كان لديه مبلغ احتياطي قليل، ويعمل على توسيع عيادته ويعاني في جمع المال اللازم لذلك.

فكرت بقتل نفسي مجدداً. هذه المرة كنت لأفعلها كما ينبغي. كنت لأقفز من الطابق الخامس عشر بمبنى إدارة الجامعة. لن يكون ثمة مجال للخطأ بهذه الطريقة. وكنت لأموت بلا شك. اتخذت عدة تحوطات، ثم اخترت النافذة الأمثل، وتأهبت للقفز.

لكن شيءٌ ما جعلني أُحجِم عن القفز. كان ثمة خطب ما، شيء يلحّ علي وينهشني. وفي اللحظة الأخيرة، جذبني ذلك 'الشيء'-حرفياً تقريباً- بعيداً عن الحافة. ثم مرّت برهة قبل أن أدرك ماهية ذلك 'الشيء'.

وهو إنني لم أكن أشعر بأي ألم.

لم أشعر بأي ألم تقريباً منذ الحادث.لم تتسن لي الفرصة لأتوقف وألاحظ في خضم تلك الأحداث المتتالية، لكن الألم تلاشى من جسدي. صارت حركة إمعائي طبيعية. واختفت تقلصات الدورة الشهرية وآلام البطن والصداع. حتى ضلعي المكسور لم يسبب لي أي ألم تقريباً. ولم تكن لدي أدنى فكرة عن السبب. صرت فجأة خالية من أي ألم.

قررت أن أعيش، ولو فترة قصيرة. أردت أن أكتشف معنى أن أعيش حياة بلا ألم. فبإمكاني أن أموت في أي وقت.

لكن الاستمرار في العيش يعني أن أسدد ما علي من ديون. وإجمالي المبلغ الذي أدين به أكثر من ثلاثة ملايين يناً. وكيما أتمكن من سداده، صرت عاهرة».

«عاهرة؟!»

«صحيح». قالت كانو بلا اكتراث. «كنت بحاجة إلى المال خلال فترة قصيرة. وأردت أن أسدد ديوني بأسرع ما يمكن. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي أعرفها لجني المال. لم أتردد ولو لحظة. كنت عازمة على الموت بجدية، ولا زلت، إن عاجلاً أم آجلاً. الفضول الذي تملكني تجاه الحياة بلا ألم هو ما كان يبقيني حية، لكن لفترة مؤقتة فحسب. ومقارنة بالموت، لا يعني بيع جسدي شيئاً بالنسبة لي».

قلت: «أفهم ما تعنيه».

ذاب الثلج الذي في كأسها. وحركته قبل أن تأخذ منه رشفة.

سألتها: «أتمانعين إذا سألتك سؤالاً؟»

«لا، إطلاقاً. تفضل»

«ألم تستشيري شقيقتك في هذا الأمر؟»

«كانت تمارس تقشفها في مالطا حينئذٍ، ورفضت أن ترسل إلي عنوانها حتى تفرغ من التقشف. لم تكن تريدني أن أشوش تركيزها. فكان من المستحيل مراسلتها خلال السنوات الثلاث التي قضتها في مالطا».

«فهمت. أتريدين مزيداً من القهوة؟»

«نعم، من فضلك».

ذهبت إلى المطبخ لتسخين القهوة. وأثناء انتظاري، حدقت إلى مروحة شفط الهواء، وأخذت عدة أنفاس. ثم سكبت القهوة في كوبين وذهبت بهما إلى صالة الجلوس، مع طبق من كعك الشوكولاتة. وأكلنا وشربنا بعض الوقت.

سألتها: «متى حاولت قتل نفسك؟»

«كنت في العشرين من عمري، قبل ستة أعوام، في مايو 1978»

مايو 1978 هو الشهر الذي تزوجنا فيه أنا وكوميكو. إذاً، في الشهر الذي تزوجنا فيه، حاولت كانو قتل نفسها، وكانت مالطا كانو تمارس تقشفها في مالطا.

قالت كانو: «ذهبت إلى حي به كثير من البارات، وقصدت أول رجل يبدو كزبون محتمل. تفاوضنا بشأن السعر، وذهبنا إلى فندق، ونمت معه. لم يعد الجنس يسبب لي أي ألم جسدي، كما لم يكن ممتعاً أيضاً. مجرد حركات جسدية. ولم أشعر بالذنب لأنني أمارس الجنس مقابل المال. كان يكتنفني خدر ما، وغياب تام لأي مشاعر.

حصلت على قدر كبير من المال بهذه الطريقة. قرابة مليون يناً خلال الشهر الأول وحده. وبذلك المعدل كان يمكنني سداد ما علي من ديون بسهولة خلال ثلاثة أو أربعة أشهر. كنت أعود من الجامعة إلى المنزل، وأخرج في المساء، ثم أعود إلى المنزل بحلول العاشرة على أبعد تقدير. قلت لوالدي إنني أعمل نادلة، ولم يرتاب أي أحد في الحقيقة. بطبيعة الحال، كانوا ليرتابوا في الأمر إذا سددت ذلك المبلغ الكبير دفعة واحدة. لذلك قررت أن أعطي والدي 100000 يناً شهرياً وادّخر الباقي.

لكن ذات ليلة، عندما كنت أتصيّد الرجال بالقرب من المحطة، أمسك رجلان بي من الخلف. وظننت أنهما من الشرطة في بادئ الأمر، ثم أدركت أنهما فردي عصابة. وجرّاني إلى شارع خلفي، وأشهرا أمام وجهي مدية من نوع ما، وأخذوني إلى مقرهم المحلي. ألقوا بي في غرفة خلفية، وجردوني من ملابسي، وقيدوني من معصميّ، وشرعوا في اغتصابي المرة تلو الأخرى أمام كاميرا فيديو. ابقيت عيني مغمضتين طوال الوقت وحاولت ألا أفكر، الأمر الذي لم يكن عسيراً بالنسبة لي لأنني لم أكن أشعر بألم أو بمتعة.

أروني الفيديو بعد ذلك، وقالوا لي إذا لم أرغب في أن يراه أي أحد، فينبغي لي الإنضمام إلى منظمتهم والعمل لحسابهم. ثم أخذوا بطاقتي الجامعية من حقيبتي، وقالوا إذا رفضت فعل ما يريدونه، فسوف يرسلوا نسخة من الشريط إلى والديّ ويبتزّوا كل ما لديهما من أموال. لم يكن أمامي خيار. فقلت لهم إنني سأفعل ما

يريدونه وأن الأمر لا يهمني. لم يكن ذلك يهمني حقاً. ولم يكن يهمني أي شيء في ذلك الوقت. أوضحوا لي أن دخلي سينخفض إذا انضممت للمنظمة لأنهم سيأخذوا سبعين في المئة منه، بيد أنني لن أعود مضطرة لتجشم عناء العثور على الزبائن بنفسي أو القلق بشأن الشرطة. وسوف يرسلوا لي زبائن رفيعي المستوى. إذا واصلت تصيّد الرجال عشوائياً، فسينتهي بي المطاف ميتة خنقاً في غرفة فندق ما.

بعد ذلك، لم أعد مضطرة للوقوف في أركان الشوارع. كل ما كان علي فعله هو الذهاب إلى مكتبهم في المساء، وهم يخبروني بالفندق الذي علي الذهاب إليه. كانوا يرسلون لي زبائن جيدين، كما وعدوني. كنت أتلقى معاملة خاصة، ولست متأكدة من السبب. ربما لأنني كنت أبدو بريئة للغاية. كنت أبدو فتاة حسنة التنشئة، تنحدر من أسرة كريمة المحتد. الأمر الذي كانت تفتقر إليه الفتيات الأخريات. وعلى الأرجح هناك العديد من الزبائن الذين يفضّلون الفتيات غير المحترفات. تذهب الفتيات الأخريات إلى ثلاثة زبائن أو أكثر في اليوم، لكنني كنت أذهب إلى زبون واحد أو اثنين كحد أقصى. وباقي الفتيات كن يحملن معهن أجهزة استدعاء، وعليهن أن يسرعن إلى فندقٍ متداعٍ ما عندما يتصل المكتب بهن للذهاب إلى رجل مشكوك في خلفيته. لكن في حالتي، لطالما كنت أحصل على موعد في فندق راق، وأحياناً في شقة. وعادة ما يكون زبائني من الرجال الأكبر سناً، ونادراً ما يكونون شباباً.

كان المكتب يدفع لي مرة في الأسبوع، ليس بقدر ما كنت أجنيه وحدي، لكنه كان مبلغاً لا بأس به مع مبالغ البقشيش التي كنت أتلقاها من الزبائن. بعض الزبائن كانوا يطلبون مني أن أفعل لهم بعض الأشياء الغريبة، بطبيعة الحال، لكنني لم أكن أمانع. كلما كان الطلب غريباً، كان البقشيش أكبر. وبدأ بعض الزبائن يطلبونني بانتظام. وهؤلاء عادة ما يكونون أسخياء. ادّخرت أموالي في عدة حسابات مختلفة. لكن بحلول ذلك الوقت، لم يعد المال يهمني. صار، بالنسبة لي، مجرد أرقام بعضها جوار بعض. وكنت أعيش لأجل شيء واحد فقط، وهو أن أؤكد عدم قدرتي على الإحساس بأي شيء.

كنت أستيقظ في الصباح، وأظل ممددة في الفراش، أتفقد جسدي لأرى ما إذا كنت أشعر بأي شيء يمكن أن يسمى ألماً. أفتح عينيَّ، مستجمعةً أفكاري ببطء، وأتحقق من جسدي عضواً عضواً، من رأسي إلى أخمص قدمي. ولم أكن أشعر بأي ألم إطلاقاً. هل يعني هذا أن لا شيء يؤلمني؟ أم أن الألم موجود، لكنني لا أشعر به؟ لم يكن بمقدوري معرفة الفرق. في كلتا الحالتين، لم أكن أشعر بألم. وفي الواقع، لم يكن لديّ إحساس بأي شيء. بعد هذه الطقوس، أغادر الفراش، وأتجه إلى الحمام، أنظف أسناني، ثم أنزع بيجامتي، وآخذ حماماً دافئاً. كنت أشعر بجسدي خفيفاً للغاية، خفيفاً وهوائياً، كأنه ليس جسدي. شعرت كما لو أن روحي حلّت في جسدٍ ليس بجسدي. أنظر إليه في المرآة، لكن بين نفسي والجسد الذي كنت أراه في المرآة، شعرت بوجود مساحة شاسعة تفصل بينهما.

لم أكن أحلم سوى بحياة بلا ألم، لسنوات. أما وقد حصلت عليها، لم أستطع أن أجد لنفسي مكاناً فيها. إذ تحول هوة سحيقة بيني وبينها. الأمر الذي سبب لي ارتباكاً. وشعرت أنه ليس ثمة جذور تربطني بالعالم، هذا العالم الذي كنت أمقته بكل جوارحي حتذاك، هذا العالم الذي كنت ألعنه بسبب الظلم المتفشي بين جوانبه، هذا العالم حيث كنت، على الأقل، أعرف من أنا. والآن لم يعد العالم هو العالم، ولم أعد أنا أنا.

غدوت أبكي كثيراً. وفي أوقات العصر، أذهب إلى المنتزهات - حدائق شينجوكو الإمبراطورية أو منتزه يويوغي- لأقتعد العشب وأبكي. أحيانا أبكي ساعة أو ساعتين في كل مرة، وأنا أنشج بصوت عال. يحدق إلي العابرون لكنني لم أكن أعبأ لهم. تمنيت لو أنني مت، لو أنني انهيت حياتي في ليلة التاسع والعشرين من مايو. لأصبحت أفضل حالاً! لكن عندئذٍ لم أعد قادرة على الموت. فقدت القوة التي تمكنني من قتل نفسي بسبب الخدر الذي يسربلني. لم أعد أشعر بأي شيء. لا ألم، ولا بهجة. تلاشت كل المشاعر. وفقدت هويتي».

تنهدت كريتا كانو بعمق. ثم حملت كوب القهوة، وحدقت إليه قليلاً، وهزت رأسها هزة صغيرة، وأعادت الكوب إلى مكانه.

قالت: «كان ذلك في وقت قريب من الوقت الذي قابلت فيه نوبورو واتايا».

قلت: «نوبورو واتايا؟! زبوناً؟!»

أومأت كريتا كانو بصمت.

«لكن...» بدأتُ، ثم توقفت لأفكر بكلماتي قليلاً. «ثمة شيء لا أفهمه. قالت شقيقتك يومها إن نوبورو واتايا اغتصبك. هل كانت تلك حادثة منفصلة عما تقولينه لي الآن؟»

أخذت كريتا كانو منديلها من حجرها ومسحت فمها مجدداً. ثم نظرت إلي. ثمة شيء في عينيها وخز قلبي وأشعرني بالضيق.

قالت: «آسفة لإزعاجك، لكنني أتساءل عما إذا كان لديك كوب آخر من القهوة».

«بالطبع».

وضعتُ كوبها على الصينية وحملتها إلى المطبخ. وإتكأت على لوح التجفيف، في انتظار غليان القهوة، ويداي في جيبي. وعندما حملت القهوة وعدت إلى صالة الجلوس، كانت كريتا كانو قد اختفت من الأريكة. واختفى كل أثر مرئي لها: حقيبتها، ومنديلها. اتجهت إلى المدخل الأمامي، الذي اختفى منه حذاؤها أيضاً.

رائع.

9

مجارير وقصور حاد في الكهرباء

*

تحقيق ماي كاساهارا في طبيعة الشعر المستعار

*

بعدما ودّعت كوميكو في الصباح التالي، ذهبت إلى حوض السباحة، إذ أنني أفضّل فترات الصباح لتجنب الزحام. ثم عدت إلى المنزل، وأعددت لنفسي قهوة وجلست أحتسيها في المطبخ، ورحت أفكر بقصة كانو الغريبة التي لم تنته، محاولاً استحضار جميع أحداث حياتها وفقاً لتسلسلها الزمني. فكانت القصة تبدو لي أكثر غرابة مع كل محاولة. لكن سرعان ما تباطأ دوران دماغي، وبدأت أشعر بالنعاس. ذهبت إلى صالة الجلوس، واضجعت على الأريكة، وأغمضت عيني. وفي غضون لحظات، كنت نائماً وأحلم.

حلمت بكريتا كانو. لكن قبل ظهورها، حلمت بمالطا كانو. رأيتها تعتمر قبعة تيرولية عليها ريشة كبيرة بألوان برّاقة. المكان مزدحم (صالة كبيرة من نوع ما). لكن قبعة مالطا كانو لفتت انتباهي على الفور. كانت تجلس وحدها عند المشرب، وأمامها مشروب إستوائي من نوع ما، لكنني لست متأكداً مما إذا كانت تشربه بالفعل أم لا.

كنت أرتدي البدلة وربطة العنق المرقطة. وما إن لمحت مالطا كانو، حاولت التحرك بإتجاهها، لكن الزحام أعاقني. ولم أجد لها أثراً عندما وصلت إلى المشرب، والمشروب الإستوائي ما يزال منتصباً في مكانه على المشرب أمام مقعدها الشاغر. جلست على المقعد المجاور له، وطلبت ويسكي مع الثلج. سألني الساقي عن نوع

الويسكي الذي أريده، فقلت له ‘كَتي سارك’. لم أكن مهتماً حقاً بنوع الويسكي الذي سيقدمه لي، لكن كَتي سارك أول ما خطر لي.

وقبل أن يقدم لي مشروبي، شعرت بيد تأخذ بذراعي من الخلف، بلمسة رقيقة، كما لو أن صاحب اليد يمسك شيئاً هشاً قد يسقط ويتهشم في أي لحظة. التفت، فرأيت رجلاً بلا وجه. لست متأكداً مما إذا كان لديه وجه أم لا، لكن المكان حيث يجب أن يوجد وجهه كان محاطاً بظل قاتم، ولم يكن بمقدوري رؤية ما يكمن خلفه. قال: «من هنا يا سيد أوكادا». حاولت أن أتكلم، لكن قبل أن أفتح فمي، أردف: «تعال معي من فضلك، ليس أمامنا متسع من الوقت. أسرِع». اقتادني،ويده لا تزال على ذراعي، بخطوات سريعة بين الحشد حتى بلغنا دهليزاً. فتبعته إلى الدهليز، دون مقاومة. كان يعرف اسمي، رغم كل شيء. ليس وكأنني أدع شخصاً غريباً يأخذني إلى حيث يريد. كان ثمة سبب وهدف لكل هذا.

بعد سيرنا في الدهليز بعض الوقت، توقف الرجل الذي بلا وجه أمام باب، رقم اللوحة المثبته عليه 208. «ليس موصداً، أنتَ من ينبغي له فتحه». فعلت ما أُمِرت به، فتحتُ الباب. تمتد خلفه غرفة كبيرة، بدت جزءاً من جناح من الغرف في فندق قديم الطراز. سقفها عال، وتتدلى منه نجفة قديمة الطراز، ولم تكن مضاءة. يصدر مصباح حائط صغير ضوءاً كئيباً، وهو مصدر الضوء الوحيد في الغرفة. كما كانت الستائر مغلقة بإحكام.

قال الرجل الذي بلا وجه: «إذا أردت الويسكي، يا سيد أوكادا، فهو متوفر لدينا. كتي سارك، أليس كذلك؟ اشرب بقدر ما تشاء». وأشار إلى خزانة بجانب الباب. ثم أغلق الباب بهدوء، تاركاً إياي وحدي. ظللت واقفاً في منتصف الغرفة مدة طويلة، متسائلاً عما علي فعله.

ثمة لوحة زيتية عملاقة معلقة على الجدار، تصوّر نهراً. نظرت إليها هنيهات، آملاً أن أهدئ نفسي. القمر فوق النهر يُرسل ضوءه الشاحب على الضفة المقابلة، لكنه شاحب للغاية، فلم أستطع تبيّن المشهد هناك. كانتالخطوط باهتة ومتداخلة مع بعضها.

سرعان ما شعرت بتوق شديد للويسكي. فكرت بفتح الخزانة لأتناول شراباً، كما اقترح الرجل الذي بلا وجه. لكن الخزانة لم تفتح. ما بدا كباب، كان في الواقع تقليد متقن لباب. حاولت دفع الأجزاء البارزة وسحبها، لكن الخزانة ظلت مغلقة بصرامة.

«ليس من السهل فتحها». قالت كانو. أدركت أنها تقف في الغرفة، مرتدية ملابسها التي تعود موضتها لحقبة أوائل الستينيات. «لا بد من مرور بعض الوقت قبل أن تفتح، وهذا غير وارد اليوم. من الأفضل أن تتخلى عن الأمر».

نزعت ملابسها، وأنا أشاهدها، بسهولة إزالة قشرة بازلاء، ووقفت أمامي عارية، دون تحذير أو تفسير. «أمامنا وقت قصير جداً، يا سيد أوكادا، دعنا نفرغ من هذا بأسرع ما يمكن. آسفة للعجلة، لكن لدي أسبابي. مجرد الوصول إلى هنا كان صعباً بما فيه الكفاية». ثم اقتربت مني، وأنزلت سحّابي و- كما لو أنه أمر طبيعي تماماً- أخرجت عضوي. وخفضت عينيها، برموشها الصناعية، وأطبقت على عضوي بشفتيها. كان فمها أكبر بكثير مما تخيلته. انتصبت بداخلها على الفور. وعندما حركت لسانها، ارتعشت نهايات شعرها المنحنية للأعلى كأنما هبت عليها نسمة رقيقة. وراحت تداعب فخذيّ. كل ما كنت أستطيع رؤيته هو شعرها ورموشها الصناعية. جلستُ على الفراش، وجثت على ركبتيها، ووجهها مدفون في منفرجي. قلت: «توقفي. سيكون نوبورو واتايا هنا في أي لحظة. ولا أريد أن أراه هنا».

أبعدت كانو فمها عن عضوي، وقالت: «لا تقلق. لدينا متسع من الوقت، لهذا على الأقل».

مررت طرف لسانها على عضوي. لم أرد أن أقذف، لكن لم تكن باليد حيلة. شعرت كما لو أنه يتم امتصاصه مني. شفتيها ولسانها يتشبثان بي كمخلوقات دبقة. قذفت. وفتحت عينيّ.

رائع.

ذهبت إلى الحمام، وغسلت لباسي الداخلي الملطخ، وأخذت حماماً دافئاً، ونظفت نفسي بعناية لأتخلص من آثار الحلم. كم سنة انقضت منذ آخر احتلام؟ حاولت أن أتذكر لكن لم أستطع، فقد مرت مدة طويلة.

خرجت من الحمام. فرن الهاتف، وأنا لا أزال أجفف نفسي. كانت كوميكو. وبما أنني حلمت للتو بامرأة أخرى حلماً جنسياً، شعرت بشيء من التوتر وأنا أتحدث معها.

«صوتكَ غريب، ما الخطب؟» حساسيتها مخيفة إزاء مثل هذه الأشياء.

«لا شيء. كنت غافياً، وقد أيقظتني».

قالت: «آه، حقاً؟» شعرت بشكوكها تطل برأسها عبر السماعة، فصرت أكثر توتراً.

«على أي حال، آسفة. سوف أتأخر قليلاً اليوم، ربما حتى التاسعة. لذا سأتناول عشائي بالخارج».

«لا بأس، سأتدبر أمري. لا تقلقي».

«أنا آسفة للغاية». بدا اعتذارها كفكرة وليدة اللحظة. صمتت قليلاً وأنهت المكالمة.

نظرت إلى السماعة بضع ثوان. ثم توجهت إلى المطبخ وقشرت تفاحة.

خلال ستة أعوام، منذ زواجي بكوميكو، لم أنم مع امرأة أخرى قط. وهذا لا يعني أنني لم أشعر برغبة تجاه امرأة أخرى أو لم تسنح الفرصة. كل ما في الأمر هو أنني لا أسعى بجد خلف الفرص التي تتاح لي. لا يمكنني إيضاح السبب تحديداً، لكن على الأرجح للأمر علاقة بأولويات الحياة.

حدث أن أمضيت ليلة مع امرأة أخرى، كنت استلطفها. وكنت أعلم أنها من الممكن أن تنام معي. لكنني، في النهاية، لم أفعلها.

كنا نعمل معاً في شركة المحاماة عدة سنوات. تصغرني بعامين أو ثلاثة أعوام. يتمثل عملها في استقبال المكالمات وتنسيق جداول أعمال الجميع، وقد كانت بارعة للغاية. سريعة، ولديها ذاكرة استثنائية. لك أن تسألها عن أي شيء وستجد عندها الإجابة: من كان يعمل، وأين، ولماذا، وأي الملفات كانت في أي خزانة، وأشياء على هذه الشاكلة. وكانت تتولى ترتيب جميع المواعيد. أحبها الجميع وكانوا يعتمدون عليها. كنت مقرباً منها بصفة شخصية. وخرجنا عدة مرات لتناول مشروباً. لا يمكنني القول بأنها جميلة على نحو خاص، لكنني كنت معجباً بمظهرها.

عندما حان وقت تركها العمل لتتزوج (كان عليها أن تنتقل إلى كيوشو حيث يعمل زوجها)، دعوتها ومعي عدد من الزملاء لنتناول مشروباً للمرة الأخيرة معاً. وفي طريقنا إلى منازلنا، استقللت معها القطار نفسه. وأوصلتها إلى شقتها لأن الوقت كان متأخراً. فدعتني للدخول لتناول كوب من القهوة. كنت قلقاً لئلا يفوتني القطار الأخير، لكنني كنت أعلم أننا قد لا نرى بعضنا أبداً مجدداً، كما أحببت أن أنعش نفسي بالقهوة. لذلك قررت الدخول. كان المكان كما يتوقع المرء أن تكون عليه شقة امرأة عزباء. وبها ثلاجة أكبر من أن تكون لشخص واحد. غيرت ملابسها بأخرى مريحة في غرفة مجاورة وأعدّت القهوة. ثم جلسنا نتحدث على الأرضية.

وعندما نفدت المواضيع التي يمكننا الحديث عنها، سألتني، كما لو أن السؤال خطر لها فجأة، «أيمكنك أن تذكر شيئاً -شيئاً ملموساً- تخافه على نحو خاص؟»

قلت بعد لحظة من التفكير: «ليس تماماً». أخاف العديد من الأشياء، وليس شيئاً محدداً. «ماذا عنكِ؟»

«أخاف المجارير». قالت وهي تحتضن ركبتيها: «تعرف ما هو المجرور، أليس كذلك؟»

«نوع من المصارف، أليس كذلك؟» لم يكن لدي تعريف محدد للكلمة.

«نعم، لكنه تحت الأرض. مصرف مائي تحت الأرض. مجرى لتصريف المياه عليه غطاء».

«فهمت. مجرور».

«ولدت ونشأت في الريف، بفوكوشيما. يوجد مجرى مائي صغير بالقرب من منزلنا، تتجمع فيه المياه من الحقول وتصب في مجرور. أظنني كنت ألعب مع صبية أكبر مني سناً عندما وقعت الحادثة. وكنت في الثانية أو الثالثة من عمري فحسب. وضعني الآخرون في قارب صغير وأطلقوه في المجرى، وهذا ما كانوا يفعلونه طوال الوقت على الأغلب. لكن ذلك اليوم كان ماطراً، ومستوى المياه مرتفعاً. أفلت القارب منهم وحملني مباشرة ناحية فتحة المجرور. كان المجرور ليبتلعني إذا لم يصادف وجود أحد المزارعين. وأنا متأكدة أنهم ما كانوا ليجدوني أبداً».

مررت سبابتها اليسرى على شفتيها كأنها تتحقق من أنها ما تزال على قيد الحياة.

«ما أزال أستطيع تصور كل ما حدث. أتمدد على ظهري. تجرفني المياه. جانبي المجرى فوقي كجدران حجرية، وفوقها السماء الزرقاء، زرقة صافية. يجرفني التيار، وأسمع خرير الماء. أنجرف بسرعة متزايدة. لكنني لا أفهم ما يعنيه كل ذلك. وفجأة وجدت نفسي أفهم ما يحدث. هنالك ظلمة تنتظرني أمامي، ظلمة حقيقية. وقريباً ستأتي وتحاول ابتلاعي. وشعرت بظل بارد بدأ يغلفني. هذه هي أولى ذكرياتي».

أخذتْ رشفة من القهوة.

«إنني خائفة للغاية، لدرجة لا تحتمل. أشعر الآن بخوف مثل خوفي عندئذٍ، كما لو أنني أنجرف باتجاه مجرور ولا يمكنني الإفلات منه».

أخرجت سيجارة من حقيبتها ووضعتها بين شفتيها، وأشعلتها بعود ثقاب. ثم عبّت نفساً طويلاً وبطيئاً. كانت تلك أول مرة أراها تدخن.

سألتها: «هل تتحدثين عن زواجك؟»

«صحيح، زواجي».

«هل توجد مشكلة معينة؟ شيء ملموس؟»

«لا أعتقد ذلك، ليس تماماً. العديد من الأشياء الصغيرة فحسب».

لم أعرف ما علي قوله، لكن الوضع يتطلب أن أقول شيئاً.

فقلت: «أعتقد أن الجميع يختبر هذه المشاعر بدرجة ما عندما يكونون مقبلين على الزواج، 'آه، لا. أنا أرتكب خطأً فادحاً!'. لستِ طبيعية إذا لم تراودك هذه الأفكار. اختيار شخص ما لتمضي حياتك معه قرار مصيري. لذا من الطبيعي أن تشعري بالخوف. لكن يجب ألا تكوني خائفة لهذه الدرجة».

قالت: «يسهل قول هذا. الجميع يمر بهذا، جميعنا متشابهون».

أشارت عقارب الساعة إلى الحادية عشرة، وتخطتها. فكان عليّ أن أجد طريقة للوصول بهذه المحادثة إلى نهاية مُرضية وأغادر. لكن قبل أن أتمكن من قول أي شيء، فجأة طلبت مني أن أضمّها. «لماذا؟» سألتها متفاجئاً. قالت: «لأشحن بطارياتي».

«تشحني بطارياتك؟»

«فرغ جسدي من الكهرباء. ولم أتمكن من النوم منذ بضعة أيام. حالما أنام، استيقظ. ثم لا أتمكن من العودة للنوم مجدداً. لا يمكنني التفكير عندما أصبح بهذه الحالة. وعلى أحدهم أن يشحن بطارياتي. وإلا فلن أتمكن من العيش. أنا جادة».

أمعنت النظر إلى داخل عينيها، متسائلاً عما إذا كانت ما تزال ثملة، لكنهما كانتا عيناها الهادئتان الذكيتان المعتادتان. ولم تكن ثملة إطلاقاً.

«لكنك سوف تتزوجي الأسبوع القادم، ويمكنك أن تجعليه يضمك كما تشائين، كل ليلة. هذا هو الهدف من الزواج. ولن تنفد منك الكهرباء مجدداً أبداً».

«المشكلة هي *الآن*، ليس غداً، أو الأسبوع المقبل، أو الشهر المقبل. إنني فارغة من الكهرباء الآن».

حدقتْ، بشفتين مزمومتين، إلى قدميها المضمومتين إلى بعضهما، كانتا صغيريتين وبيضاوين، بعشرة أظافر جميلة. بدت لي أنها حقاً بحاجة إلى أن يضمها أحدهم. لذلك أحطتها بذراعيّ. كان الأمر برمّته غريباً. فبالنسبة لي، كانت مجرد زميلة كفؤة ولطيفة، نعمل في المكتب نفسه، ونتبادل النكات، ونخرج لنتناول شراباً من وقت لآخر. لكن هناك في شقتها، بعيداً عن العمل، وذراعاي يحيطان بها، لم نكن سوى كتلتين دافئتين من اللحم. كنا نؤدي الأدوار الموكلة إلينا على مسرح المكتب. لكن بعد النزول عن المسرح، والتخلي عن الصور المؤقتة التي نرسمها لأنفسنا هناك، كنا مجرد كتلتين مضطربتين ومرتبكتين من اللحم، قطع دافئة من اللحم مزودة بجهازين هضميين، وقلبين، ودماغين، وعضوين تناسليين. يداي تلتفّان حول ظهرها، ونهداها يضغطان على صدري بشدة، وكانا أكبر وأنعم مما تخيلتهما. كنت أقتعد الأرضية مستنداً بظهري إلى الجدار، وهي متكومة علي. ظللنا على تلك الوضعية مدة طويلة، متعانقين، دون أن نتفوه بكلمة.

«هل كل شيء على ما يرام؟». سألتها، بصوت لم يبدُ لي كصوتي. كما لو أن شخصاً آخراً يتحدث بالنيابة عني.

لم تقل شيئاً، لكنني شعرت بإيماءتها.

كانت ترتدي كنزة، وتنورة خفيفة تبلغ ركبتيها، بيد أنني سرعان ما أدركت أنها لا ترتدي شيئاً تحتها. فأدى إدراكي هذا إلى انتصابي آلياً، وبدت مدركه لهذا. كنت أشعر بأنفاسها الدافئة على عنقي.

وفي النهاية، لم أنم معها. لكن كان علي مواصلة ‘شحن بطارياتها’ حتى الثانية صباحاً. توسلت إليّ لأبقى معها حتى تنام. فاصطحبتها إلى الفراش، لكنها ظلت مستيقظة ردحاً من الزمن. بدلتْ ملابسها ببيجاما. وواصلتُ احتضانها و‘شحنها’. أحسست بارتفاع حرارة خديها، وبخفقان قلبها وهي بين ذراعي. لم أكن متأكداً من

أن ما أفعله صحيح، لكن لم أكن أعرف طريقة أخرى للتعامل مع الوضع. كان أبسط شيء هو أن أنام معها، لكنني تمكنت من إبعاد هذه الإحتمالية من ذهني. أوحت لي غرائزي بألا أفعل ذلك.

قالت: «لا تكرهني بسبب هذا، رجاءً. كهربائي منخفضة للغاية، وليست بيدي حيلة».

«لا تقلقي، أتفهم ذلك».

كنت أعرف أنه يجدر بي أن أتصل بالمنزل، لكن ما الذي كنت لأقوله لكوميكو؟ لم أرد أن أكذب، لكنني كنت أعرف أنه يستحيل علي أن أوضح لها ما حدث. وبعد لحظات، رأيت أن ذلك لا يهم. فليحدث ما يحدث. غادرت شقتها عند الثانية، ولم أصل المنزل حتى الثالثة، بعدما عثرت على سيارة أجرة بصعوبة.

وجدت كوميكو تلتهب غضباً، بطبيعة الحال، جالسة إلى طاولة المطبخ، ومستيقظة تماماً، في انتظاري. قلت لها إنني كنت أشرب وألعب ماه-جونغ مع زملائي من المكتب. سألتني: «لماذا لم تتصل؟» فقلت إن ذلك لم يخطر لي إطلاقاً. لم تقتنع، واتضحت كذبتي على الفور. فأنا لم ألعب ماه-جونغ منذ سنوات، ولست بارعاً في الكذب على أي حال. انتهى بي المطاف بالاعتراف بالحقيقة. أخبرتها بالقصة بحذافيرها، من البداية حتى النهاية. باستثناء جزئية الانتصاب، بالطبع. مؤكداً أنني لم أفعل شيئاً مع المرأة.

رفضت كوميكو الحديث معي ثلاثة أيام، ولا كلمة. وكانت تنام في الغرفة الأخرى وتتناول وجباتها وحدها. تلك هي أكبر أزمة واجهت زواجنا. كانت غاضبة بحق. وتفهمت شعورها تماماً.

نطقت أولى كلماتها بعد ثلاثة أيام من الصمت. سألتني: «ما الذي كنت لتعتقده لو كنت في مكاني؟ ماذا لو عدت إلى المنزل عند الثالثة من صباح يوم الأحد، حتى دون مكالمة هاتفية؟ 'كنت في الفراش مع رجل طوال ذلك الوقت، لكن لا تقلق، لم

أفعل شيئاً، أرجوك صدقني . كنت أشحن بطارياته فحسب. حسناً، عظيم. لنتناول الإفطار ونخلد إلى النوم'. أتقول لي إنك ما كنت لتغضب، وتصدقني ببساطة؟»

لذتُ الصمت.

«وما فعلته أسوأ من ذلك. لقد كذبت علي! قلت إنك كنت تشرب وتلعب ماه-جونغ. كذبة خالصة. كيف تتوقع مني أن أصدق أنك لم تنم معها؟»

«آسف لأنني كذبت. ما كان ينبغي لي الكذب. لكن سبب كذبي الوحيد هو أن الحقيقة يصعب شرحها. أريدك أن تصدقيني، لم أفعل شيئاً خاطئاً».

وضعت كوميكو رأسها على الطاولة. وشعرتُ كما لو أن الهواء من حولنا يخف تدريجياً.

قلت: «لا أدري ما عليّ قوله، لا يسعني سوى أن أطلب منك تصديقي».

«حسناً، إن كنت تريدني أن أصدقك، فسأصدقك. لكن أريد منك أن تتذكر هذا: على الأرجح سوف أفعل بك الأمر نفسه ذات يوم. وعندما يحين ذلك الوقت، أريد منك أن تصدقني. هذا من حقي».

لم تلجأ كوميكو لهذا الحق إطلاقاً. أتخيل، من وقت لآخر،شعوري إذا لجأت إليه. كنت لأصدقها على الأرجح. لكن ردة فعلي ستكون، بلا شك، بمثل صعوبة وتعقيد ردة فعلها.

*

«السيد طائر الزنبرك!». سمعت صوتاً من الحديقة. كانت ماي كاساهارا.

ذهبت إلى الشرفة، وأنا ما أزال أجفف شعري. كانت جالسة على حافتها، تقضم ظفر إبهامها. وترتدي النظارة الشمسية عينها التي كانت ترتديها عندما قابلتها أول

مرة، مع سروال قطني كريمي وقميص بولو أسود، وتحمل بيدها لوح في أعلاه مشبك لتثبيت الأوراق.

«تسلقته» قالت وهي تشير إلى الجدار الخرساني، ثم نفضت الغبار العالق بسروالها. «ظننت أنني وجدت المكان الصحيح، وإنني سعيدة لأنه منزلك! تخيل إذا ما تسلقت الجدار وهبطت في المنزل الخطأ!»

أخرجت علبة سجائر من ماركة هوب وأشعلت واحدة.

«على أي حال، يا طائر الزنبرك، كيف حالك؟»

«بخير، على ما أعتقد».

«إنني ذاهبة إلى العمل الآن، لمَ لا ترافقني؟ نعمل في فِرق مكونة من شخصين، وسيكون من الأفضل لي بكثير أن يرافقني شخص أعرفه. سوف يسألني أي شخص غريب تلك الأسئلة التي لا نهاية لها. 'كم تبلغين من العمر؟ لماذا لا تذهبين إلى المدرسة؟' ويا لها من مشقة! أو قد يتضح أنه منحرف. هذا يحدث، كما تعرف. هلا رافقتني يا طائر الزنبرك؟»

«هل هو ذلك العمل الذي أخبرتِني عنه؟ مسح ميداني من نوع ما لشركة تصنيع الشعر المستعار؟»

«إنه هو. كل ما عليك فعله هو إحصاء الرؤوس الصلعاء في شارع غينزا من الساعة الواحدة حتى الرابعة. إنه عمل سهل. وستستفيد منه. سوف تصبح أصلعاً ذات يوم، مما تبدو عليه، لذا من الأفضل لك أن تُلِم بهذه الأمور بينما لا يزال لديك شعر».

«أجل، لكن ماذا عنكِ؟ ألن يُسائلك ضابط التغيّب إذا رآك تقومين بهذا العمل في شارع غينزا في منتصف النهار؟»

«لا، سأقول له إنه عمل ميداني خاص بالدراسات الاجتماعية. ودائماً ما تنجح هذه الكذبة».

وبما أنني ليس لدي أي خطط لفترة ما بعد الظهر، قررت الذهاب.

اتصلت ماي كاساهارا بشركتها لتخبرهم بأننا قادمون. وأثناء حديثها عبر الهاتف، تحولت إلى فتاة في غاية التهذيب: ‘نعم سيدي، أود أن أشكل معه فريقاً، نعم، هذا صحيح، شكراً جزيلاً، نعم، فهمت، نعم، سوف نكون هناك بعد الظهر’.

تركت رسالة لكوميكو لأخبرها بأنني سوف أعود بحلول السادسة، في حال عودتها إلى المنزل مبكراً. ثم غادرت المنزل برفقة ماي كاساهارا.

كانت شركة الشعر المستعار في شيمباشي. شرحت ماي كاساهارا لي، ونحن على متن قطار الأنفاق، كيفية إجراء المسح. نقف عند أحد أركان الشوارع ونحصي جميع الرجال الصُلع (أو الذين خفّ شعرهم) الذين يمرون بنا. ونصنفهم وفقاً لدرجة الصلع لديهم. ‘ج’: أولئك الذين خف شعرهم إلى درجة ما. ‘ب’: الذين فقدوا الكثير من شعرهم. ‘أ’: وهم أصحاب الصلع الحقيقي. ثم أخرجت ماي كراسة من ملفها وأرتني أمثلة للمراحل الثلاث.

«فهمتَ الفكرة تقريباً، صحيح؟ أي الرؤوس تندرج تحت أي فئة؟ لن أخوض في التفاصيل، فسوف تستغرق اليوم بطوله. لكنك فهمت الأمر تقريباً، أليس كذلك؟»

«تقريباً» قلت دون أن أبدو على درجة كبيرة من الثقة.

كان يجلس، على الجانب الآخر من ماي كاساهارا، رجل زائد الوزن ينتمي للفئة ‘ب’ بلا شك، وظل يختلس النظرات بضيق إلى كراسة ماي كاساهارا، لكنها لم تبدُ أنها لاحظت مدى توتره.

قالت: «سأتولى تصنيفهم، وأنت قف بجانبي ومعك ورقة مسح. وضعهم ضمن الفئات ‘أ’ أو ‘ب’ أو ‘ج’، وفقاً لما أقوله لك. هذا كل ما في الأمر. سهل، أليس كذلك؟»

«أظن ذلك. لكن ما الغرض من إجراء مسح كهذا؟»

«لا أدري. أنهم يجرونه في جميع أنحاء طوكيو، في شينجوكو، وشيبويا، وأوياما. ربما يحاولون معرفة الأحياء التي بها أكبر عدد من الرجال الصُلع. أو ربما يريدون معرفة نسب الفئات ‘أ’ و‘ب’ و‘ج’ بين السكان. من يدري؟ لديهم الكثير من الأموال، ولا يعرفون ما يفعلونه بها. لذلك يمكنهم إهدارها على أشياء كهذه. الأرباح هائلة في مجال صناعة الشعر المستعار. ويحصل الموظفون على علاوات أكبر بكثير مقارنة بالشركات الأخرى. أتعرف لماذا؟»

«لا، لماذا؟»

«الشعر المستعار لا يدوم طويلاً. أراهن أنك لا تعرف هذا. تظل الباروكة بحالة جيدة عامين أو ثلاثة أعوام كحد أقصى. كلما ازدادت جودة صناعتها، ازداد معدل استهلاكها. إذ لأنها تلتصق بفروة الرأس بإحكام، يصبح الشعر الخفيف تحتها أخف من ذي قبل. وما إن يحدث ذلك، يتعين عليك أن تبتاع واحدة جديدة تلائمك. ولنفكر بالأمر: ماذا لو كنت تستخدم باروكة ولم تعد صالحة بعد عامين، ما الذي قد يجول بذهنك؟ هل كنت لتقول لنفسك، ‘حسناً، بليت الباروكة، ولم يعد بإمكاني ارتداءها. لكن شراء واحدة جديدة سيكلفني الكثير، لذلك سأبدأ الذهاب إلى العمل دون باروكة منذ الغد’. هل هذا ما كنت لتفكر به؟»

هززت رأسي «لا، على الأرجح».

«بالطبع لا. ما إن يبدأ رجل استخدام الشعر المستعار، عليه أن يواصل استخدامه. ويصبح كقَدَره الذي لا يجد منه فكاكاً. ولهذا يجني صانعو الشعر المستعار أرباحاً طائلة. أكره أن أقول هذا، لكنهم مثل تجار المخدرات. حالما يوقعوا بأحدهم في شباكهم، يصير زبوناً مدى الحياة. هل سبق أن سمعت رجلاً أصلعاً نما شعره فجأة. أنا عن نفسي لم أسمع هذا قط. تكلف الباروكة نصف مليون يناً على الأقل، وربما مليوناً إذا كانت متينة الصنع. وأنت بحاجة إلى واحدة جديدة كل عامين! يا للهول! حتى السيارة تدوم وقتاً أطول من ذلك بأربعة أو خمسة أعوام، ثم يمكنك استبدالها!».

قلت: «أفهم ما تعنينه».

«علاوة على هذا، يدير صانعو الشعر المستعار صالونات الشعر الخاصة بهم. يغسلون الباروكات، ويقصون شعر الزبائن الحقيقي. أعني، لنفكر بذلك. لا يمكنك أن ترتمي في مقعد صالون حلاقة عادي، وتنزع باروكتك، وتقول: ‘أود قصة خفيفة’، أليس كذلك؟ الدخل الذي تدره هذه الصالونات وحدها لا يصدق».

قلت بإعجاب صادق: «إنك تعرفين كل شيء».

كان الرجل الذي ينتمي للفئة ‘ب’، الجالس جوار ماي، يستمع إلى حوارنا باهتمام بالغ.

قالت: «بالطبع. يستلطفني الرجال في المكتب ويخبرونني بكل شيء. الأرباح في هذا العمل هائلة. يصنعون الباروكات في جنوب شرق آسيا وأماكن كتلك، حيث تتوفر العمالة الرخيصة. إنهم يحصلون على الشعر من هناك أيضاً، من تايلاند أو الفلبين، حيث تبيع النساء شعرهن لشركات الشعر المستعار. وبهذه الطريقة يتمكّن من دفع مهورهن في بعض الأماكن. يا لغرابة هذا العالم! فالرجل الذي يجلس جوارك قد يكون مرتدياً شعر امرأةٍ ما في أندونيسيا».

وبردة فعل لا إرادية، نظرت أنا ورجل الفئة ‘ب’ إلى من حولنا على متن القطار.

*

مررنا بمكتب الشركة بشيمباشي، وأخذنا ظرفاً به أوراق المسح وأقلام رصاص. يُزعم أن هذه الشركة هي ثاني أكبر الشركات في مجال الشعر المستعار، لكنهم متحفظون للغاية، ولا يضعون حتى لوحة اسم عند المدخل، حتى يتسنى للزبائن الدخول والخروج براحتهم. كما لم يكن الظرف وأوراق المسح يحملان اسم الشركة. في قسم المسح، ملأت استمارة عامل بدوام جزئي: اسمي، وعنواني، وخلفيتي

التعليمية، وسني. كان ذلك المكتب هادئاً على نحو لا يصدق. ما من أحد يصيح عبر الهاتف، ولا أحد ينهال ضرباً على لوحة مفاتيح مشمراً ساعديه. كل عامل يرتدي ملابسه بنظام، ويؤدي مهامه بصمت وتركيز. وكما هو متوقع في مكتب شركة لصناعة الشعر المستعار، لم يكن ثمة رجل أصلع. ربما يكون بعضهم يرتدون منتج الشركة، لكن كان من المستحيل بالنسبة لي أن أميّز بين الذين يرتدون باروكات والذين لا يرتدونها. من بين جميع الشركات التي زرتها، هذه أغربها على الإطلاق.

استقللنا قطار الأنفاق إلى غينزا. وبما أننا كنا مبكرين وجائعين، توقفنا عند أحد مطاعم ديري كوين لتناول همبرغر.

«قل لي، يا طائر الزنبرك، هل كنت لترتدي باروكة إذا كنت أصلعاً؟»

«أتساءل عن ذلك. لا أحب الأشياء التي تتطلب وقتاً وعناءً، على الأرجح لن أحاول المقاومة إذا صرت أصلعاً».

«جيد» قالت وهي تمسح الكاتشب عن فمها بمنديل ورقي. «هذه هي الطريقة الصحيحة. الرجال الصُلع لا يبدون سيئين كما يعتقدون. ولا أرى أنه أمر مزعج».

قلت: «أتساءل عن ذلك».

*

ظللنا جالسين عند مدخل محطة قطار الأنفاق،خلال الساعات الثلاث التالية، بالقرب من مبنى واكو، نحصي الرجال من أصحاب الرؤوس الصلعاء الذين يمرون. كان النظر إلى أسفل إلى الرؤوس التي تصعد وتهبط عبر سلالم المحطة هو الطريقة الأدق لتحديد درجة صلع أي رأس. تقول ماي كاساهارا 'أ' أو 'ب' أو 'ج'، وأنا أدوّن ما تقوله. وكان من الواضح أنها مارست هذا العمل كثيراً. إذ لم تتلعثم أو تتردد أو تصحح نفسها قط، إنما كانت تحدد فئة كل رأس بدقة وسرعة مذهلتين. تنطق الحروف بنبرات قصيرة منخفضة حتى لا يلاحظنا العابرون. وهذا

استدعى إملاء الحروف بسرعة عالية كلما مرت مجموعة كبيرة من الرؤوس الصلعاء دفعة واحدة: «ج ج ب أ ب ج أ أ ج – ج ب ب ب». وفي مرحلة ما، توقف رجل عجوز أنيق المظهر (ذو رأس مليء بالشعر الأبيض) وراح يشاهدنا ونحن نعمل. ثم قال بعد لحظات: «المعذرة. أيمكنني السؤال عما تفعلانه؟»

قلت: «مسح».

«أي نوع من أنواع المسح؟»

«دراسات اجتماعية».

لم يبدُ السيد العجوز مقتنعاً، لكنه استمر في مشاهدتنا، ثم استسلم ومضى في سبيله.

أنهينا المسح، عندما أشارت ساعة ميتسوكوشي على الجانب الآخر من الشارع إلى الرابعة، وعدنا إلى ديري كوين لنتناول كوباً من القهوة. لم يكن عملاً شاقاً، لكنني شعرت بتقلص غريب في كتفيّ وعنقي. وربما بسبب طبيعة العمل السرية، شعرت بشيء من تأنيب الضمير بشأن إحصاء الرجال الصلع سراً. وطوال الوقت الذي استغرقته عودتنا إلى مقر الشركة، كنت أجد نفسي أصنّف، آلياً، كل رأس أصلع أراه ضمن الفئة ‘أ’ أو ‘ب’ أو ‘ج’. الأمر الذي سبب لي حالة أشبه بالوسواس. حاولت ايقاف نفسي، لكن بحلول ذلك الوقت، كنت قد اكتسبت نوعاً من الزخم، فلم أستطع. سلمنا أوراق المسح، ونقدونا أجرنا، الذي كان جيداً جداً بالنظر إلى الوقت والجهد المبذولين. وقّعت إيصالاً ووضعت النقود في جيبي. ثم عدت مع ماي كاساهارا مستقلين قطار الأنفاق إلى شينجوكو، ومنها انتقلنا إلى خط أوداكيا عائدين إلى المنزل. كانت ساعة ذروة ما بعد الظهر قد بدأت. وقد كانت تلك أول مرة استقل فيها قطاراً مكتظاً منذ مدة طويلة، بيد أنني لم أشعر بأي حنين.

«عمل جيد، أليس كذلك؟» قالت ماي كاساهارا وهي تقف إلى جانبي على متن القطار. «إنه سهل، والأجر ليس سيئاً».

«جيد جداً». قلت وأنا أمص حلوى الليمون.

«هل ستذهب معي المرة القادمة؟ يمكننا الذهاب كل أسبوع».

«لِمَ لا؟»

«أتعرف، يا طائر الزنبرك؟» قالت ماي كاساهارا بعد صمت قصير، كما لو أن فكرة خطرت لها فجأة. «أراهن أن سبب خوف الناس من الصلع هو أنه يجعلهم يفكرون بنهاية الحياة. أعني، عندما يبدأ شعرك بالتساقط، لا بد أنك ستشعر بأن حياتك تضمحل تدريجياً... كما لو أنك خطوت خطوة كبيرة بإتجاه الموت، الذي هو نهاية كل شيء».

فكرت بذلك قليلاً، وقلت: «يمكن النظر إلى الأمر من هذه الزاوية، بالتأكيد».

«أتعرف، يا طائر الزنبرك، أتساءل أحياناً عن شعور أن تموت شيئاً فشيئاً خلال فترة طويلة من الوقت. ما الذي تعتقده؟»

وأنا غير موقن مما ترمي إليه، غيرت قبضتي على الحزام المعلق من السقف ونظرت إلى داخل عينيها. «أيمكنكِ ذكر مثال ملموس لما تعنيه بذلك؟ الموت شيئاً فشيئاً؟»

«حسناً، لا أدري. تكون عالقاً في الظلام وحدك، وليس معك ما تأكله أو تشربه، وشيئاً فشيئاً، تموت....»

«سيكون ذلك فظيعاً، ومؤلماً. لما رغبت في الموت بهذه الطريقة، إن كانت بيدي حيلة».

«لكن في النهاية، يا طائر الزنبرك، أليست هذه هي الحياة؟ ألسنا جميعاً عالقين في ظلام في مكان ما، وقد سُلب منا طعامنا وشرابنا، وأننا نموت ببطء، شيئاً فشيئاً...؟»

ضحكت. «إنكِ أصغر من أن تكوني... *متشائمة* هكذا». قلت مستخدماً الكلمة الإنجليزية.

«بيسِـ - ماذا؟»

«بيسِميستِك. تعني النظر إلى الجوانب القاتمة فقط من الأشياء».

«بيسِميستِك... بيسِميستِك...». ظلت تكرر الكلمة الإنجليزية مع نفسها مرة تلو الأخرى. ثم رمقتني بنظرة نارية، وقالت: «أنا في السادسة عشرة فحسب، ولا أعرف الكثير عن العالم. لكنني أعرف شيئاً واحداً على وجه التأكيد. إذا كنت متشائمة، فإن البالغين في هذا العالم، ممن *ليسوا* متشائمين، عبارة عن مجموعة من الحمقى».

10

لمسة سحرية

*

موت في حوض الحمام

*

رسول يحمل تذكارات

*

انتقلنا إلى منزلنا الحالي في خريف العام الثاني من زواجنا. كان من المقرر تجديد الشقة التي كنا نعيش فيها بكوينجي حتذاك. بحثنا عن شقة رخصية ملائمة لننتقل إليها. لكن العثور عليها لم يكن سهلاً بميزانيتنا. عندما سمع خالي بهذا، اقترح علينا أن ننتقل إلى منزل يمتلكه بسياتاغايا، كان قد اشتراه في شبابه وعاش فيه عشر سنوات. أراد أن يهدم المنزل القديم ويشيّد آخراً ذا طابع عملي، لكن قوانين البناء منعته من تشييد المنزل الذي يريده. كان ينتظر تنفيذ شائعات تتكهن بتخفيف القوانين. لكنه إذا ترك المنزل خالياً أثناء انتظاره، لكان عليه أن يدفع ضريبة الملكية. وإذا قام بتأجيره لغرباء، قد يعاني عندما يطلب منهم الإخلاء. لكن معنا، سيأخذ إيجاراً رمزياً لتغطية الضريبة. وبالمقابل، طلب منا أن نخلي المنزل خلال ثلاثة أشهر عندما يحين الوقت. ولم تكن لدينا مشكلة مع ذلك. مسألة الضريبة هذه لم تكن

واضحة تماماً بالنسبة لنا، لكننا انتهزنا فرصة السكن في منزل حقيقي، حتى ولو مدة قصيرة، ودفع الإيجار الذي كنا ندفعه عندما كنا نعيش بشقة (وقد كانت شقة رخيصة). كان المنزل بعيداً قليلاً عن أقرب محطة على خط أوداكيا، لكنه يقع في منطقة سكنية هادئة، وبه باحة صغيرة. بالرغم من أنه ليس ملكنا، فإنه منحنا شعور أسرة بمنزل حقيقي.

لم يطالبنا شقيق والدتي الأصغر، خالي هذا، بأي شيء. كان رجلاً لطيفاً. لكن كان ثمة شيء غريب في تركه لنا في حالنا. مع ذلك، كان قريبي المفضل. تخرج في كلية بطوكيو وعمل مذيعاً بإحدى محطات الراديو. لكن عندما «سئم من العمل» بعد عشر سنوات، استقال من المحطة، وافتتح حانة في غينزا. كانت صغيرة ومتواضعة، لكنها اشتهرت على نطاق واسع بأصالة الكوكتيلات التي تقدمها. وخلال بضع سنوات، أصبح خالي يدير سلسلة من المطاعم والحانات. جميع محلاته كانت ناجحة للغاية. من الواضح أنه كانت لديه تلك الموهبة التي يتطلبها النجاح في إدارة الأعمال. سألته ذات يوم، عندما كنت ما أزال في الجامعة، عن سبب نجاح كل محل يفتتحه في الموقع نفسه الذي فشل فيه أحد المطاعم في شارع غيزا. يمكنه أن يفتتح المطعم نفسه وينجح. لماذا؟ رفع لي راحتي يديه وقال دون أثر للمزاح: «إنها لمستي السحرية». هذا كل ما قاله.

ربما تكون لديه «لمسة سحرية» بالفعل. لكن كانت لديه أيضاً مهارة إيجاد الأشخاص الأكفاء للعمل لديه. قال لي ذات مرة: «عندما أعرف أنني عثرت على

الشخص المناسب، أضع بين يديه رزمة من الفواتير وأترك له زمام الأمور. عليك أن تنفق أموالك على الأشياء التي يمكن شراءها بالمال، لا تقلق بشأن الربح أو الخسارة. وفر طاقتك للأشياء التي لا يمكن شراءها بالمال».

تزوج متأخراً. ولم يستقر إلا بعدما حقق النجاح المالي في منتصف الأربعينيات من عمره. كانت زوجته مطلقة، وتصغره بثلاث أو أربع سنوات، ولديها ثروتها الخاصة بها. لم يخبرني خالي عن كيفية تعرفه عليها، وكل ما أعرفه عنها أنها امرأة من النوع الهادئ، من أسرة محترمة. وليس لديهما أطفال. ويبدو أنها لم تنجب أطفالاً مع زوجها الأول أيضاً. وهوما قد يكون سبب الطلاق. مهما يكن، مع إنه لم يكن رجلاً ثرياً بمعنى الكلمة. كان خالي، في منتصف الأربعينيات من عمره، في وضع لم يعد معه مضطراً للشقاء من أجل المال. فبالإضافة إلى الأرباح من مطاعمه وحاناته، كان لديه دخل من إيجار عدة منازل وشقق يمتكلها، علاوة على دخل منتظم من عدة استثمارات. ونظراً لسمعته بوصفه رجلاً ناجح في أعماله، وأسلوب حياته المتواضع، كانت العائلة تنظر إليه كشخص شاذ. إذ لم يُظهر أي ميل للاختلاط بأقاربه. لكن لطالما كنت موضع اهتمامه، باعتباري ابن أخته الوحيد، لاسيما بعد وفاة أمي في السنة التي التحقت فيها بالجامعة وشجاري مع والدي، الذي تزوج ثانية. وعندما كنت أعيش حياة طالب جامعي وحيد وفقير بطوكيو، غالباً ما كان يدعوني لعشاء فاخر في أحد مطاعمه بشارع غينزا.

كان يعيش مع زوجته بشقة على تل في أزايو، بدلاً من أن يكلفا أنفسهما عناء الاعتناء بمنزل كبير. ولم يكن يحب الانغماس في الترف، لكن كانت لديه هواية واحدة، وهي شراء السيارات النادرة. ويحتفظ في مرآبه بسيارة جاغوار وأخرى ألفا روميو، كلتاهما عتيقتان ويعتني بهما عناية فائقة، وتلمعان كطفلين حديثي الولادة.

*

كنت أتحدث مع خالي عبر الهاتف عن موضوع ما، وانتهزت الفرصة لسؤاله عما يعرفه عن أسرة ماي كاساهارا.

«أتقول كاساهارا؟» صمت هنيهة ليفكر. «لم أسمع بهم إطلاقاً. كنت عازباً عندما كنت أعيش هناك، ولم تكن تربطني أي علاقة بالجيران».

«في الواقع، يساورني الفضول بشأن المنزلالمهجور المقابل لباحتهم الخلفية. أعتقد أن شخصاً يدعى مياواكي كان يعيش هناك. والآن جميع أبوابه ونوافذه مغطاة بألواح خشبية».

«أوه، مياواكي. بالطبع، كنت أعرفه. كان يمتلك بضعة مطاعم، أحدها بشارع غينزا أيضاً. قابلته في مناسبة متعلقة بالعمل. لم تكن مطاعمه ناجحة جداً، لأقول الحقيقة. لكن كانت لديه مواقع جيدة. كنت أعتقد أن أعماله تسير بصورة لا بأس بها. كان رجلاً لطيفاً، لكنه من نوع الفتيان الأثرياء المدللين إلى حدٍ ما. لم يضطر للعمل بجد، أو لعله لم يكن بارعاً في إدارة أعماله، أو شيئاً كهذا. خدعه أحدهم في

سوق الأسهم، وسلبه كل ما كان يملكه. المنزل، والأرض، وأعماله. كل شيء. وما كان للتوقيت أن يكون أسوأ. كان يحاول أن يفتتح مكاناً جديداً، وقدّم المنزل والأرض ضمانات. وبضربة واحدة، فقد كل شيء. كان لديه ابنتين على ما أعتقد، في سن الجامعة».

«أظن أن المنزل ظل مهجوراً منذ ذلك الوقت».

«هل تمازحني؟ أراهن أن هناك مشكلة في حقوق ملكيته، أو شيئاً من هذا القبيل. من الأفضل لك ألا تقرب ذلك المنزل، أياً كانت الصفقة التي يعرضونها عليك».

«مَن؟ أنا؟» ضحكت. «لا يمكنني شراء مثل ذلك المنزل إطلاقاً. لكن ما الذي تعنيه؟»

«بحثت في أمر ذلك المنزل عندما اشتريت منزلي. ثمة خطب به».

«تعني الأشباح مثلاً؟»

«ربما لا تكون الأشباح. لكنني لم أسمع عنه شيئاً جيداً. كان يعيش فيه أحد العسكريين المشهورين حتنهاية الحرب، عقيدٌ ما، ضابط رفيع جداً. تقلد الجنود الذين كانوا تحت إمرته بشمال الصين كل أنواع الأوسمة، لكنهم ارتكبوا أشياءً فظيعة هناك. أعدموا خمسمائة من أسرى الحرب، وأرغموا عشرات الآلاف من المزارعين على العمل من أجلهم حتى سقط نصفهم ميتين، وأشياء على هذه الشاكلة. هذه هي

القصص المتداولة، ولا أعرف مدى صحتها. أستُدعي إلى اليابان قبل نهاية الحرب بقليل، لذلك كان هنا من أجل مناقشة الاستسلام، وعرف مما كان يجري حوله أنه على الأرجح سيُحاكم كمجرم حرب. كان أعضاء البرلمان يستجوبون الرجال الذين عاثوا فساداً في الصين، من الجنرالات، والضباط الميدانيين. وهو بالطبع لم تكن لديه النية في المثول أمام المحكمة، وما كان ليرضى بأن يُشنق ويُجعل منه كبش فداء. فقرر أن يُنهي حياته بنفسه بدلاً من ذلك. لذلك، في أحد الأيام عندما رأى ضابطاً يوقف سيارة جيب أمام منزله، فجَّر دماغه على الفور. كان ليفضل أن يشق بطنه على طريقة الساموراي التقليدية، لكن لم يكن أمامه متسع من الوقت لذلك. وشنقت زوجته نفسها في المطبخ ’لترافقه‘ في الموت».

«عجباً».

«على أي حال، اتضح أن ذلك الضابط كان مجرد ضابط عادي يبحث عن منزل حبيبته. كان تائهاً، وأراد أن يسأل أحدهم عن الاتجاهات. تعرف مدى صعوبة أن تجد طريقك في ذلك المكان. تقرير أن الوقت قد حان لموتك لا يمكن أن يكون سهلاً لأي أحد».

«لا، لا يمكن أن يكون سهلاً».

«ظل المنزل خالياً لفترة بعد ذلك، إلى أن اشترته ممثلة سينمائية. لن تعرف اسمها، كان ذلك منذ وقت طويل، ولم تكن شهيرة جداً. عاشت بالمنزل قرابة عشر

سنوات، هي وخادمتها فقط. وقد كانت عزباء. وبعد سنوات قليلة من انتقالها للمنزل، أصيبت بمرضٍ ما في عينيها. كان كل شيء يبدو لها ضبابياً، حتى الأشياء القريبة. لكنها كانت ممثلة، ولا يمكنها أن تمثل وهي تضع نظارات، والعدسات اللاصقة كانت شيئاً جديداً في ذلك الوقت، ولم تكن بالجودة التيعليها اليوم، ولايستخدمها أي أحد تقريباً. لذلك قبل تصوير أي مشهد، دائماً ما تراجع مخطط الموقع وتحسب عدد الخطوات التي عليها أخذها من النقطة أ إلى ب. وتدبرت أمرها بطريقة أو بأخرى. كانت أفلامها تتسم بالبساطة، من نوع أفلام الدراما المنزلية القديمة لشوتشيكو. كان كل شيء أكثر هدوءاً واسترخاءً في تلك الأيام.

وذات يوم، بعدما تفقدت الموقع وعادت إلى غرفة تغيير الملابس، قام مصور شاب، لم يكن على علم بما يجري، بتحريك الدعامات وبعض الأشياء قليلاً».

«أوه».

«تعثرت وسقطت، ولم تتمكن من المشي بعد ذلك. وتدهور بصرها أكثر من ذي قبل. صارت عمياء من الناحية العملية. كان أمراً مؤسفاً أن يحدث لها ذلك وهي ما تزال شابة وجميلة. فانتهت أيام تمثيلها بالطبع. وكل ما كان يمكنها فعله هو المكوث بالمنزل. ثم أخذت الخادمة جميع أموالها وهربت مع رجل ما. تلك الخادمة هي الشخص الوحيد التي كانت تعلم أنها يمكنها أن تثق به، واعتمدت عليها في كل

شيء. كما استولت على مدخراتها، وأسهمها، وكل شيء. ياللهول، حدث ولا حرج. ما الذي تعتقد أنها فعلته؟».

«حسناً، من الواضح أن هذه القصة لا يمكن أن تكون لها نهاية مشرقة أو سعيدة».

«لا، بالطبع. ملأت حوض الحمام، وأدخلت رأسها في الماء، وأغرقت نفسها. إنك مدرك، بالطبع، أنه لتموت بتلك الطريقة، لا بد أن تكون عازماً أشد العزم».

«ما من شيء مشرق أو سعيد في ذلك».

«لا، ما من شيء مشرق أو سعيد. اشترى مياوامكي المنزل بعد ذلك بفترة قصيرة. فالمنزل جميل، ويرغب في امتلاكه كل من يراه. والحي هادئ، وقطعة الأرض في مكان مرتفع، وتحصل على حصة وفيرة من ضوء الشمس، ومساحته كبيرة. لكن مياواكي كان قد سمع القصص المأساوية عن الذين سكنوا المنزل من قبل. لذلك هدمه بكامله، وشيّد واحداً جديداً. حتى إنه أحضر رهبان الشينتو لتطهير المكان. لكن ذلك لم يكن كافياً على ما أعتقد. الأشياء السيئة تحدث لكل من يسكن ذلك المنزل. إنه واحد من مساحات الأرض تلك. إنها موجودة، وهذا كل شيء. ما كنت لآخذه لو منحوه لي دون مقابل».

*

بعد التسوق في مركز التسوق للعشاء. جهزت مكونات العشاء،ثم أدخلت الملابس وطويتها بعناية، ووضعتها في مكانها. ثم عدت إلى المطبخ، وأعددت لنفسي إبريقاً من القهوة. كان يوماً جميلاً هادئاً، بلا مكالمات من أي أحد. تمددت على الأريكة وبدأت أقرأ كتاباً، دون أن يكون هناك أحد يقاطع قراءتي. وبين الفينة والأخرى، أسمع صرير طائر الزنبرك في الباحة الخلفية. وكان هوالصوت الوحيد الذيسمعته طوال اليوم.

ضغط أحدهم جرس الباب الأمامي عند الرابعة. كان ساعي البريد. قال: «بريد مسجل». وناولني ظرفاً سميكاً. أخذته ووضعت ختمي على الإيصال.

لم يكن ظرفاً عادياً، كان مصنوعاً من ورق الأرز القديم. وقد كلف أحدهم نفسه عناء كتابة اسمي وعنواني عليه بفرشاة بحروف سوداء عريضة. اسم المرسل كان توكوتارو مامِيًا، وعنوانه مكان ما بمقاطعة هيروشيما. لم تكن لدي أي معرفة بالاثنين. وبالنظر إلى الكتابة التي بالفرشاة، استنتجت أن توكوتارو مامِيّا هذا رجل متقدم في السن. إذ لم يعد أحد يعرف الكتابة بذلك الشكل الآن.

قعدت على الأريكة واستخدمت مقصاً لفتح الظرف. الرسالة نفسها كانت قديمة الطراز، مثل الظرف، مكتوبة على ورق أرز بخط متدفق بيد شخص من الواضح أنه مثقف. وبما إنني أفتقر لمثل تلك الثقافة، استطعت قراءتها بالكاد. يطابق أسلوب الجُمل خط الكتابة في الطابع الرسمي المفرط. الأمر الذي زاد من تعقيد عملية

القراءة. لكن بعدما أخذت الوقت الكافي، تمكنت من فك شفرة المعنى العام. تقول الرسالة إن العجوز السيد هوندا، العرّاف الذي كنت أنا وكوميكو نزوره قبل مدة طويلة، قد مات بأزمة قلبية قبل أسبوعين بمنزله بميغورو. كان يعيش وحده، دون رفقة، لكن الأطباء يعتقدون أنه رحل سريعاً دون أن يعاني كثيراً. وهذا ما قد يكون الجانب المشرق الوحيد من هذه الحكاية الحزينة.

وجدته الخادمة في الصباح، منحنياً إلى الأمام على الطاولة المنخفضة لمدفأة قدميه. كاتب الرسالة، توكوتارو مامِيّا، كان يتمركز في منشوريا حيث كان ضابطاً برتبة ملازم أول، وصادف أن شارك مخاطر الحرب مع العريف أويشي هوندا. والآن، نزولاً عند رغبة الراحل، وفي غياب أي أقارب أحياء، أخذ ماميا على عاتقه مهمة توزيع التذكارات. وقد ترك الراحل تعليمات مكتوبة دقيقة في هذا الخصوص. كتب ماميّا في رسالته: «توحي الوصية المفصلة والدقيقة بأن السيد هوندا قد توقع موته الوشيك، ونصَّت وصيته بوضوح على أنه سيكون في غاية السرور إذا تكرمت أنت، تورو أوكادا، وقبلت غرضاً معيناً كتذكار منه. يمكنني تخيل مدى انشغالك يا سيد أوكادا، لكنني أؤكد لك باعتباري رفيق سلاح قديم للراحل، لديه سنوات قليلة أمامه هو نفسه، أنه ما من شيءسيبهجني أكثر من موافقتك على قبول هذا الغرض كتذكار صغير من الراحل السيد هوندا». أُختتمت الرسالة بالعنوان الذي يقيم فيه السيد ماميا حالياً بطوكيو. هونغو 2- تشومى، حي بونكيو.

ظننت أنه لا بد أن يكون منزل أحد أقاربه. كتبت ردي على طاولة المطبخ. كنت آمل أن تكون البطاقة البريدية قصيرة وبسيطة. لكن ما إن أمسكت بالقلم، لم تكن تلك العبارات الوجيزة متيسرة. كتبت: «كنت محظوظاً بمعرفة الراحل السيد هوندا واستفدت من فترة معرفتنا القصيرة. أعادت لي أخبار وفاته ذكريات من تلك الأيام. ثمة فارق كبير في السن بيننا، بطبيعة الحال، ولم يُدم تواصلنا لأكثر من عام. ومع ذلك، لطالما شعرت أن ثمة شيء بشأن الراحل يؤثر في الناس تأثيراً عميقاً. ولأكون صادقاً، لم أتخيل قط أن يذكر اسمي تحديداً ضمن الذين سيتلقون إحدى تذكاراته. كما لست متأكداً من أنني جدير بتلقي أي شيء منه. لكن إن كانت هذه هي رغبته، فسوف أقبلها بكل احترام. رجاءً اتصل بي بأسرع ما يمكن».

عندما ألقيت البطاقة في أقرب صندوق بريد، وجدت نفسي أهمهم بكلمات العجوز هوندا: «*الموت هو السبيل الوحيد/ أمامك لتطفو بحرية:/ نومونهان*».

*

كانت الساعة قد شارفت على بلوغ العاشرةعندما عادت كوميكو من العمل. وقد اتصلت قبل السادسة لتقول إنها سوف تتأخر اليوم مجدداً، وعليّ تناول عشائي بدونها، وأنها ستتناول شيئاً بالخارج. قلت حسناً، وتناولت شيئاً بسيطاً. بقيت بالمنزل وحيداً، أقرأ كتاباً. قالت كوميكو عند وصولها إنها تريد أن تشرب بعض الجعة، فاقتسمنا قنينة متوسطة الحجم. بدت لي مرهقة. أسندت مرفقيها إلى طاولة المطبخ.

ووضعت ذقنها في يديها. لم تتحدث كثيراً، وبدت مهمومة. أخبرتها أن السيد هوندا توفي.

قالت بتنهيدة: «آه حقاً؟ آه حسناً، لقد تقدمت به السن ، وكان أصماً تقريباً».

لكن عندما قلت لها أنه أوصى لي بتذكار، صُدمتْ. كأنما هوى شيء من السماء فجأة.

«لك أنت؟!» تعجبت وانعقد ما بين حاجبيها.

«نعم. أمر غريب، أليس كذلك؟»

«لا بد أنه كان يستلطفك».

«كيف له أن يستلطفني؟ لم أتبادل معه حديثاً فعلياً. أو على الأقل، لم أقل الكثير. وحتى إذا قلت، ما كان ليسمع شيئاً. كنا نجلس ونستمع إلى قصصه مرة كل شهر. وكل ما سمعناه منه هو معركة نومونهان: كيف ألقوا بكوكتيلات المولوتوف، وأي دبابة احترقت وأيتها لم تحترق، وتلك الأشياء».

قالت كوميكو: «لا تسألني. لا بد أنه أحب شيئاً فيك، لا أفهم ما يدور في أذهان الناس من أمثاله».

بعد ذلك، لاذت بالصمت مجدداً. كان صمتاً مقلقاً. ألقيت نظرة على الرزمانة التي على الحائط. لم يحن موعد دورتها الشهرية بعد. فخمنت أن أمراً سيئاً حدث في المكتب».

«هل ترهقين نفسك في العمل؟»

«قليلاً» قالت بعدما أخذت رشفة من الجعة. وراحت تحدّق إلى ما تبقى في كأسها. كانت ثمة نبرة تحدٍ في صوتها. «آسفة لأنني تأخرت، لكنك تعرف كيف يكون العمل في المجلة عندما نكون مشغولين. لن يستمر الوضع هكذا طوال الوقت. سأطلب أن أعمل لوقت إضافي أقل. يعرفون أن لدي زوج ينتظرني بالمنزل».

أومأت. وقلت: «لا ألومك. أعرف أنك تضطرين للعمل لوقت متأخر أحياناً. كنت قلقاً فحسب من أنك ترهقين نفسك كثيراً».

أخذتْ حماماً طويلاً. وتجرعتُ جعتي وتصفحت مجلة أسبوعية جلبَتها معها.

أقحمت يدي في جيب سروالي ووجدت به المال الذي جنيته من عملي الصغير مؤخراً. إنني حتى لم أخرج المال من الظرف. ومالم أفعله أيضاً هو أنني لم أخبر كوميكو بشأن العمل. لم يكن قصدي أن أخفيه عنها، لكنني فوّت الفرصة لإخبارها، ولم تسنح فرصة أخرى بمرور الوقت. صَعُب علي أن أفتح الموضوع، لسبب أو لآخر.

كل ما كان علي قوله هو: «قابلت فتاة غريبة الأطوار تبلغ من العمر ستة عشرة عاماً وتسكن في آخر الشارع، وأجريت معها مسحاً لصالح شركة شعر مستعار. وتلقينا أجراً جيداً جداً».

ولقالت كوميكو: «آه حقاً؟ أولم يكن ذلك جميلاً؟» وقد تكون هذه هي نهاية الأمر، وربما لا. ربما لأرادت أن تعرف المزيد عن ماي كاساهارا. وربما تتزعج لأنني أصادق فتاة في السادسة عشرة. وعندها لتعيّن عليَّ أن أخبرها عن ماي كاساهارا، وأوضح لها بالتفصيل أين ومتى وكيف التقينا. لكنني لست بارعاً في تقديم تفسيرات واضحة للناس.

أخرجت النقود من الظرف ووضعتها في محفظتي. وجعّدت الظرف وألقيته في سلة المهملات. فكرت مع نفسي: *هكذا إذاً تبدأ الأسرار، يشيّد الناس صرْحها شيئاً فشيئاً*. لم أتعمد إخفاء أمر ماي كاساهارا عن كوميكو. فعلاقتي بها ليست بالأمر المهم. في النهاية، إذا ذكرتها أو لم أذكرها،فلن يترتب على ذلك أي شيء. لكن ما إن تأخذ الأحداث منحىً حساساً، تتسربل بثياب السرية. أياً كانت نيّتي. حدث الأمر نفسه مع كريتا كانو. أخبرت كوميكو أن شقيقة مالطا الصغرى جاءت إلى المنزل، وأن أسمها كريتا، وأنها ترتدي ملابس تعود موضتها لحقبة أوائل الستينيات، وأنها أخذت عينات من مياه الصنبور. لكنني لزمت الصمت حيال ما قالته لي بعد ذلك عندما كشفت لي عن أشياء مذهلة عن حياتها، واختفاءها دون كلمة قبل أن تكمل قصتها. قصة كريتا كانو في غاية الغرابة، ولما تمكنت من إعادةخلق تفاصيلها

الدقيقة وإيصالها لكوميكو، ولهذا لم أحاول. ومجدداً، قد لا تُسِر كوميكو حقيقةُ مكوث كريتا في المنزل مدة طويلة بعد انتهاء عملها، وإدلائها بكل تلك الاعترافات الشخصية لي. وهكذا أصبح ذلك سراً آخر من أسراري الصغيرة.

ربما تخفي كوميكو أسراراً مشابهة عني. وبما أنني لدي صندوقي الخاص بالأسرار، لم يكن بمقدوري أن ألومها إن كانت لديها أسراراً بالفعل، بطبيعة الحال. ومقارنة بها، كنت الأكثر ميلاً للكتمان بلاشك. كانت تميل لقول ما تفكر به، من النوع الذي يفكر بالأشياء بصوتٍ عالٍ أثناء الحديث عنها. ولم أكن كذلك.

منزعجاً من هذه التأملات، سرت ناحية الحمام، وكان بابه مفتوحاً. وقفت عند الباب ونظرت إلى كوميكو من الخلف. كانت قد غيّرت ملابسها ببيجاما زرقاء، وتقف أمام المرآة وهي تجفف شعرها بمنشفة.

قلت: «كنت أفكر بأمر العمل. طلبت المساعدة من بعض الأصدقاء. وقد حاولت في عدة أماكن بنفسي. الوظائف موجودة. لذلك يمكنني العمل متي ما شئت. يمكنني البدء غداً إذا حسمت أمري، وهو الأمر الصعب. لستُ متأكداً فحسب. لست متأكداً من أنه يصح اختيار عمل عشوائياً هكذا».

قالت وهي تنظر إلى نفسها في المرآة: «لهذا أقول لك دوماً أن تفعل ما تريد فعله. لست مضطراً لإيجاد عمل على الفور. إن كنت قلقاً بشأن الإنفاق على المنزل، فلا داعي للقلق. وإن كنت متضايقاً لأنك عاطل، وأنني أعمل بالخارج، بينما

أنت تبقى لتعتني بأحوال المنزل، عندها يمكن الحصول على وظيفة – أي وظيفة– لبعض الوقت– لا أهتم».

«بالطبع. سيتعين علي أن أجد عملاً في النهاية. أعرف هذا. وتعرفينه أيضاً. لا يمكن أن أتسكع هكذا للأبد. وسأجد عملاً إن عاجلاً أم آجلاً. كل ما في الأمر هو أنني الآن لا أعرف أي نوع من العمل ينبغي لي أن أزاوله. لفترة بعدما استقلت من عملي، ظننت أنني سأجد عملاً آخر في مجال المحاماة. لدي بعض العلاقات في المجال. لكنني حالياً غير قادر على تهيئة نفسي للعمل في مجال المحاماة. كلما مرّ الوقت، قل إهتمامي بالقانون، وازداد شعوري بأنه ببساطة ليس العمل المناسب لي».

نظرت كوميكو في المرآة.

تابعتُ: «لكن معرفة ما لا أريد فعله لا تساعدني على معرفة ما أريد فعله. يمكنني فعل كل ما يريده أحدهم مني أن أفعله. لكن ليس لدي تصوّر لما أريد فعله حقاً. هذه هي مشكلتي حالياً. لا يمكنني العثور على التصوّر».

قالت وهي تضع المنشفة وتلتفت إلي لتواجهني: «إذا سئمت من مجال القانون، فلا تدخله مجدداً. انس أمر امتحان المحاماة فحسب. لا تقلق بشأن ايجاد عمل. إن لم يكن بمقدورك ايجاد التصوّر فانتظر حتى يتشكل بنفسه. ما المشكلة في هذا؟»

أومأت قائلاً: «أردت أن أتأكد من أنني أوضحت لك ما أشعر به».

«جيد».

ذهبت إلى المطبخ وغسلت كأسي. جاءت من الحمام وجلست إلى طاولة المطبخ.

«خمِّنْ من الذي اتصل بي بعد الظهر اليوم. شقيقي».

«أوه».

«إنه يفكر بالترشح. في الواقع، إنه قرر ذلك بالفعل».

«الترشح؟!» كان الأمر صادماً لي لدرجة أنني فقدت القدرة على الكلام للحظة «تعنين ... البرلمان؟»

«صحيح. طلبوا منه الترشح لشغل مقعد عمي في نيغاتا».

«كنت أعتقد أن كل شيء رُتب لابن عمك ليخلفه، كان سيستقيل من منصبه بدينتسو، ويعود إلى نيغاتا».

بدأت تنظف أذنها بقطعة من القطن، «هذا ما خُطط له. لكن ابن عمي لا يرغب في الترشح. لديه أسرته في طوكيو ويستمتع بعمله. وليس مستعداً للتخلي عن منصبه الرفيع بأكبر شركة إعلان فيالعالم والعودة إلى ريف نيغاتا، لا لشيء سوى أن يصبح عضواً بالبرلمان. كانت المعارضة الرئيسة من زوجته، لم تُرده أن يضحي بالأسرة للترشح للمنصب».

قضى شقيق والد كوميكو الأكبر أربع أو خمس فترات بمجلس النواب، ممثلاً للدائرة الانتخابية بنيغاتا. مع إنه لم يكن ذو شأن كبير،إلا أنه كان لديه سجل حافل، وقد ترقى في مرحلة ما إلى منصب وزاري صغير. لكن الآن، تقدمت به السن ويعاني أمراض القلب، مما جعل ترشحه في الانتخابات المقبلة عندئذٍ مستحيلاً. وهو ما يعنى أن على أحدهم أن يخلفه عن دائرته. هذا العم كان لديه ابنين، لكن الأكبر لم تكن له علاقة بالسياسة، وبالتالي كان الأصغر هو الخيار البديهي.

«الآن يتوق مواطنو المقاطعة لترشيح شقيقي. إنهم يريدون شخصاً شاباً وذكياً وحيوياً. شخص يمكنه أن يخدم لعدة فترات، ولديه المقدرة على أن يصبح ذو نفوذ في الحكومة المركزية. وشقيقي صاحب اسم معروف، وسيجتذب أصوات الشباب، إنه مثالي. صحيح إنه لا يستطيع رفع الكلفة مع المواطنين المحليين، وكسب ودّهم، لكن المنظمة التي تدير الحملة ستهتم بذلك. بالإضافة إلى ذلك، إذا أراد أن يقيم بطوكيو، فلن تكون هناك مشكلة. كل ما عليه فعله هو أن يظهر في الانتخابات».

عانيت في تصور نوبورو واتايا عضواً بالبرلمان. سألتها: «ما رأيك في كل هذا؟»

«لا علاقة لي بالأمر. يمكنه أن يصبح عضو برلمان أو رائد فضاء، لا أكترث».

«لكن لماذا طلب نصيحتك؟»

«لا تكن سخيفاً». قالت بصوت جاف، «لم يكن يطلب نصيحتي. تعرف أنه ما كان ليفعل هذا أبداً. إنه يبقيني مطّلعة فحسب، باعتباري أحد أفراد الأسرة».

«فهمت. مع ذلك، إن كان سيترشح للبرلمان، ألن يمثل طلاقه وكونه عازباً أي مشكلة».

«أتساءل عن ذلك. لا أعرف أي شيء عن السياسة أو الانتخابات، أو أي شيء. إنها لا تثير اهتمامي فحسب. ما كان ينبغي أن يتزوج فيالمقام الأول. فهذا ليس ما يريده في الحياة. إنه يسعى خلف شيء آخر، شيء مختلف تماماً عما تريده أنت أو أنا. أعرف هذا على وجه التأكيد».

«آه، حقاً؟»

لفّت كوميكو قطعتي القطن المستخدمتين في منديل ورق وألقته في سلة المهملات. ثم رفعت وجهها ونظرت إلي مباشرة. «رأيته يستمني ذات مرة».

«وماذا إذاً؟ الجميع يستمني».

«لا، أنت لا تفهم». قالت ثم تنهدت، «حدث ذلك بعد عامين من وفاة شقيقتي. وكان هو في الجامعة على الأقل. وأنا كنت في الصف الثالث تقريباً. ترددت أمي ما بين التخلص من أغراض شقيقتي والاحتفاظ بها، وفي النهاية قررت الاحتفاظ بها، ظناً منها أنني قد أرتديها عندما أكبر. وضعتها في صندوق في خزانة. وذات يوم، أخرجها شقيقي وكان يتشممها وهو يفعلها».

ظللت صامتاً.

«كنت مجرد طفلة صغيرة عندئذٍ. ولم أكن أعرف أي شيء عن الجنس. لم أعرف ما كان يفعله بالضبط، لكنني عرفت أنه كان أمراً شاذاً، وما كان ينبغي أن أراه. كان أعمق مما بدا عليه».

هزت كوميكو رأسها.

«هل يعرف نوبورو واتايا أنكِ رأيته؟»

«بالطبع. نظرنا في أعين بعضنا مباشرة».

أومأتُ.

«وماذا عن ملابس شقيقتك؟ هل ارتديتها عندما كبرت؟»

قالت: «محال».

«إذاً، تعتقدين أنه يعشق شقيقتك؟»

«أتساءل عن ذلك. لست متأكدة حتى إذا كان لديه اهتمام جنسي تجاهها. لكنه قطعاً لديه شيء، وأشتبه أنه لم يتمكن من الإفلات من ذلك الشيء. هذا ما أعنيه عندما أقول إنه ما كان ينبغي أن يتزوج في المقام الأول».

صمتت كوميكو. ولمدة طويلة لم يقل أيٌمنا أي شيء. ثم ابتدرتْ: «من تلك الناحية، أعتقد أنه يعاني مشاكل نفسية معقدة. جميعنا لدينا مشاكل نفسية بدرجة ما، بطبيعة الحال. لكن مشاكله أسوأ بكثير مما قد تكون لدينا أنا وأنت، إنها أعمق وأشد تضخماً. وليس لديه أي رغبة في ترك هذه الندوب أو نقاط الضعف، أو أياً كانت، تظهر لأي شخص آخر، أبداً. أتفهم ما أقوله؟ هذه الانتخابات القادمة تقلقني».

«تقلقك؟ كيف؟»

«لا أدري. إنها تقلقني فحسب. علي أي حال، أشعر بالإرهاق،ولم يُعد بإمكاني التفكير اليوم. لنأوي إلى الفراش».

وأنا أنظف أسناني في الحمام، أخذت أتفرّس في وجهي في المرآة.منذ أن تخليت عن عملي، قبل أكثر من شهرين، نادراً ما خرجت إلى ‘العالم الخارجي’، كنت أتأرجح بين متاجر الحي، وحوض السباحة، وهذا المنزل. عدا عن شارع غينزا وذلك الفندق بشيناغوا، أبعد مكان ذهبت إليه كان هو المغسلة التي بالقرب من المحطة. وطوال ذلك الوقت، لم أرَ أحداً تقريباً. الأشخاص الذينيمكنني القول إنني ‘*رأيتهم*’ خلال شهرين، بإستثناء كوميكو، هم مالطا، وكانو، وماي كاساهارا. لقد كان عالماً ضيقاً، عالم يقف في مكانه دون حراك. لكن كلما صار أضيق، عمِد إلى السكون. وكلما ضيَّق هذا العالمبخناقه عليّ، بدا لي أنه يعجُّبأشياء وأناس لا يمكن وصفهم سوى بالغرابة. بدا أنهم كانوا موجودين طوال الوقت،يتربصون في الظلال بانتظار

توقفي عن الحركة. وفي كل مرة يأتي فيها طائر الزنبرك إلى باحتي ليلف الزنبرك الخاص به، يغرق العالم في مزيد من الفوضى.

غسلت فمي وواصلت النظر إلى وجهي في المرآة. قلت لنفسي، *لا يمكنني إيجاد التصوّر. أنا في الثلاثين. أراوح مكاني، ولا استطيع إيجاد التصوّر*. وعندما عدت إلى الغرفة وجدت كوميكو تغط في النوم.

11

دخول الملازمِ مامِيّا

*

ما خرج من الطين الدافئ

*

كلونيا

*

اتصل توكوتارو مامِيّا بعد ثلاثة أيام عند السابعة والنصف صباحاً. وكنت أتناول الإفطار مع كوميكو عندئذٍ.

«أنا آسف جداً جداً لاتصالي بك في وقت مبكر. آمل أنني لم أوقظك». قال السيد ماميّا وصوته يشي بأسف صادق.

طمأنته بأنه لا بأس وأنني أستيقظ بعد السادسة بقليل كل صباح.

شكرني على بطاقتي البريدية وأوضح أنه يريد أن يصلني قبل أن أخرج إلى العمل، وأضاف أنه سيكون ممتناً إذا تمكن من مقابلتي لوقت وجيز خلال إستراحة

الغداء. وكان يأمل أن يستقل قطار المساء السريع عائداً إلى هيروشيما. وأنه قد خطط لقضاء وقت أطول هنا، لكن طرأ أمرٌ ما حتّم عليه العودة بأسرع ما يمكن.

أوضحت له أنني عاطل عن العمل، وليس لدي ما أفعله طوال اليوم، وأنه يمكنه رؤيتي متى ما أراد في الصباح، أو الظهر، أو بعد الظهر، أياً كان.

تساءل بتهذيب جم: «لكن لا بد أنك تخطط لعمل شيء ما خلال اليوم».

أجبته بأنني متفرغ تماماً.

«في هذه الحالة، أتسمح لي بالحضور إلى منزلك عند العاشرة من صباح اليوم؟»

«حسناً».

بعدما أنهيت المكالمة، أدركت أنني نسيت إخباره عن كيفية الوصول إلى منزلنا من المحطة. لكنه كان يعرف العنوان،وسيجد طريقه إذا أراد.

سألتني كوميكو: «من كان ذلك؟»

«إنه الرجل الذي يوزّع تذكارات السيد هوندا. سيجلب التذكار الخاص بي لاحقاً».

«حقاً؟» أخذتْ رشفة من القهوة ومسحت الزبدة على الرغيف المحمص. «هذا لطف منه».

«بالفعل».

«بالمناسبة، ألا ينبغي أن نذهب –أو على الأقل أنت– ونقدم احتراماتنا بمنزل السيد هوندا. ونحرق عوداً من البخور، أو ما شابه؟».

«فكرة جيدة. سوف أسأله عن ذلك».

طلبت كوميكو مني، وهي تستعد للمغادرة، رفع سحّاب فستانها. كان ضيقاً وتطلب مني ذلك بعض الجهد.وكانت تضع عطراً جميلاً خلف أذنيها، عطر مثالي لأحد صباحات الصيف. «عطر جديد؟» بدلاً من إجابتي، ألقت نظرة على ساعتها وأصلحت شعرها.

قالت: «لقد تأخرت». وأخذت حقيبتها اليدوية من المنضدة.

*

رتبت المكان الذي كانت تعمل به كوميكو، وكنت أرفع سلة المهملات عندما لاحظت شريطاً أصفراً كانت قد ألقته. كان يبرز من تحت ورقة كتابة مجعدة، وبعض الأوراق البريدية. لونه الأصفر اللامع هو ما لفت نظري. كان من نوع الأشرطة التي تستخدم في تغليف الهدايا، معقوداً على شكل زهرة. أخذته من سلة المهملات وتفحّصته. كان قد أُلقي مع ورق تغليف من متجر ماتسويا. وتحت الورقة رأيت صندوقاً يحمل علامة كريستيان ديور. والبطانة بداخله على شكل قارورة. وعلمت، بالنظر إلى الصندوق، أنه لا بد أن يكون غالياً. أخذته معي إلى الحمام

وفتحت درج أدوات تجميل كوميكو، وكان بداخلها قارورة كلونيا ماركة كريستيان ديور بنفس شكل التجويف الذي في الصندوق. فتحت غطاء القارورة الذهبي وتشممت. فكان نفس العطر الذي شممته خلف أذني كوميكو.

جلست على الأريكة، أرتشف ما تبقى من قهوة الصباح، وأستجمع أفكاري. من الواضح أن أحدهم قد قدّم هدية لكوميكو. هدية غالية. اشتراها من متجر ماتسويا وغلفها مستخدماً شريطاً. إن كان هذا الشخص رجلاً، فلا بد أن يكون مقرباً من كوميكو. لا يقدم الرجال للنساء (لا سيما المتزوجات) عطراً إلا إذا كانت علاقتهم مقربة. إذا أعطتها لها صديقة... لكن هل تقدم النساء العطور لنساء أخريات؟ لست متأكداً من هذا. لكنني متأكد من أمر واحد، وهو أنه لم تكن ثمة مناسبة معينةبالنسبة لكوميكو حتى تتلقىهدايا من أناس آخرين خلال هذا الوقت من العام. عيد ميلادها في مايو، وكذلك ذكرى زواجنا. لنفترض أنها قد ابتاعت لنفسها قارورة من العطر وغلفتها بشرط جميل. لكن لماذا؟

تنهّدت ورنوت ببصري إلى السقف.

هل ينبغي لي أن أسألها مباشرة؟ «هل أعطاك أحدهم ذلك العطر؟» إجابتها قد تكون: «آه، ذلك العطر. ساعدت إحدي الفتيات فيالعمل في مشكلة شخصية كانت تواجهها. إنها قصة طويلة، لكنها كانت في ورطة، وكان العطر هدية شكر. عطر رائع أليس كذلك! إنه غال!».

حسناً، يبدو ذلك منطقياً، ويَفِي بالغرض. لا داعي لطرح السؤال. ولا داعي للقلق.

بيد إنني كنت قلقاً. كان يجدر بها أن تقول شيئاً. إذا كان لديها الوقت لتذهب إلى غرفتها، وتحل الشريط، وتمزق ورق التغليف، وتفتح الصندوق، وتلقي بثلاثتهم في سلة المهملات، وتضع العطر في خزانة أدوات تجميلها، فلا بد أنه كان بمقدورها أن تأتي إليّ وتقول: «انظر إلى هذه الهدية التي تلقيتها من إحدي الفتيات في العمل». بدلاً من ذلك، لم تقل شيئاً، ربما ظنت أن الأمر لا يستحق الذكر. لكن الآن أخذ الأمر طابع السرية. وهذا ما كان يضايقني.

ظللت أنظر إلى السقف مدة طويلة. وحاولت أن أفكر بشيء آخر. لكن عقلي لم يتجاوبمعي. ظللت أفكر بكوميكو في تلك اللحظة التي رفعت فيها سحّاب فستانها. ظهرها الأبيض الناعم، والعطر خلف أذنيها. وللمرة الأولىمنذ شهور، رغبت في التدخين. أردت أن أضع سيجارة بين شفتي وأشعل طرفها، وأشفط الدخان إلى رئتيّ. لأرخَى ذلك أعصابي قليلاً. لكن لم تكن معي أي سجائر. وجدت حلوى ليمون ورحت أمصها.

رن الهاتف عند العاشرة وعشر دقائق، فافترضت أنه الملازم ماميا. هذا المنزل ليس من السهل العثور عليه. حتى الذين جاءوا إليه أكثر من مرة يضلون طريقهم

أحياناً. لكن المكالمة لم تكن من الملازم ماميا. الصوت الذي سمعته عبر السماعة كان صوت المرأة الغامضة التي اتصلت بي ذلك اليوم.

«مرحباً يا عزيزي، لقد مر وقت طويل. هل أعجبك الأمر المرةالماضية؟ هل أثِرتك قليلاً؟ لماذ أغلقت الخط في وجهي؟ وقد بدأت الامور تصبح مشوقة!»

اعتقدت، لجزء من الثانية، أنها كانت تتحدث عن حلمي الجنسي مع كانو مؤخراً. لكن تلك قصة مختلفة. كانت تتحدث عن يوم اتصالها بي عندما كنت أطهو السباغيتي.

قلت: «آسف. إنني مشغول حالياً، أتوقع ضيفاً خلال عشر دقائق، وعليّ تهيئة المكان لاستقباله».

«إنك في غاية الانشغال بالنسبة لشخص من المفترض أنه عاطل عن العمل». قالت بنبرة تهكمية. وهو ما حدث في المرة الماضية. تتغير نبرة صوتها بين لحظة وأخرى.

«إنك تطهو السباغيتي. إنك تتوقع ضيفاً. لكن لا بأس. كل ما نحتاجه هو عشر دقائق. لنتحدث عشر دقائق، أنا وأنت فقط. يمكنك أن تنهي المكالمة عندما يصل ضيفك».

أردت أن أنهي المكالمة دون أي كلمة. لكنني لم أستطع. على الأرجح كنت لا أزال مستاءً بشأن عطر كوميكو. وكنت أرغب في التحدث إلى أحدهم. ولم يكن يهم كثيراً من هو.

«اسمعي ليست لدي فكرة عمن تكونين». التقطت قلم رصاص كان بجانب الهاتف، ورحت أُديره بين أصابعي أثناء حديثي. «هل أنت متأكدة أنني أعرفك؟»

«تعرفني بالطبع. أخبرتك المرة الماضية. أنا أعرفك وأنت تعرفني. وما كنت لأكذب بشأن شيء كهذا. ليس لدي وقت لأهدره بالاتصال بالغرباء. لا بد أن لديك بقعة مظلمة في ذاكرتك».

«لست متأكد من هذا. حقاً، لكن...»

«كفى». قالت مقاطعة. «كُفّ عن التفكير الكثير. أنت تعرفني وأنا أعرفك. الأمر المهم هو... حسناً، لننظر إلى الوضع بهذه الطريقة، سأكون لطيفة جداً معك، وليس عليك أن تفعل أي شيء. أوليس هذا رائع؟ لست مضطر لفعل شيء، وليست لديك أية مسؤوليات، وأنا سأفعل كل شيء.*كل شيء*. ألا تعتقد أن هذا رائع؟ لذلك كف عن الإسراف في التفكير. وكف عن تعقيد كل شيء. فرّغ نفسك تماماً، وتظاهر بأنك تستلقي على طين ناعم جميل في عصر ربيعي دافئ».

ظللت صامتاً.

«إنكَ نائم، وتحلم، مستلقياً على طين دافئ. انس زوجتك، وانس أنك عاطل عن العمل، انس المستقبل، وانس كل شيء. جميعنا خرجنا من الطين الدافئ، وجميعنا سنعود إليه. أخيراً... آه بالمناسبة يا سيد أوكادا، متى كانت آخر مرة مارست فيها الجنس مع زوجتك؟ هل تتذكر؟ مرت فترة، أليس كذلك؟ نعم، بالفعل. ربما أسبوعين».

«آسف لقد وصل ضيفي».

«أكثر من أسبوعين، أليس كذلك؟ يمكنني معرفة ذلك من صوتك. ثلاثة أسابيع ربما؟»

لم أقل شيئاً.

«حسناً، لا عليك». قالت بصوت كأنها تكنس غباراً متراكماً على ستارة 'فيني هان'. «هذا أمر يخصك أنت وزوجتك، لكنني سأمنحك كل ما تريده، وبالمقابل يا سيد أوكادا، ليست عليك أي مسؤوليات. تقدم بضع خطوات فحسب، وستجد عالماً لم تعرفه من قبل. أخبرتك أنك لديك بقعة مظلمة، أليس كذلك؟ لم تفهم بعد».

واصلت صمتي ممسكاً بالسماعة.

قالت: «أنظر فيما حولك. أنظر إلى كل ما حولك وأخبرني به. ما الذي تراه؟»

وعندها رن جرس الباب، فوضعت السماعة شاعراً بالارتياح.

كان الملازم ماميا عجوزاً أصلعاً فارع الطول، يضع نظارة بإطار ذهبي. لديه سمرة، ومظهر رجل بصحة جيدة نال حصته من العمل اليدوي، بلا أوقية واحدة من الوزن الزائد. وعلى جانبي عينيه ثلاث تجاعيد عميقة متناظرة، كأنه على وشك تضييق عينيه بسبب ضوء باهر. لكن من الصعب تخمين عمره، إلا أنه تجاوز السبعين بلاشك. أتخيل أنه كان قوي البنية في ريعان شبابه، كان هذا واضحاً من تحركاته ووِقفته المنتصبة. وكان حديثه وسلوكه في غاية الإحترام. لكن يترك سلوكه، بدلاً من التكلف، الإنطباع بالدقة والبساطة. بدا لي الملازم كرجل معتاد على اتخاذ قراراته الخاصة به وتحمل مسؤوليتها. كان يرتدي بدلة عادية بلون رمادي خفيف، وقميص أبيض، وربطة عنق مخططة بالأسود والرمادي. وبدا قماش بدلته الصارمة ثقيلاً بالنسبة لطقس حار رطب في صبيحة أحد أيام يونيو. لكن الملازم لم تبدُ عليه أي قطرة عرق. لديه يد يسرى صناعية، ويرتدي عليها قفاز خفيف بنفس لون البدلة الرمادي الفاتح. بدت يده، وهي مغطاة بقفازه الرمادي، أكثر برودة واصطناعية مقارنة بيمناه المشرَّبة بسُمرة والمكسوة بالشعر، والتي تتدلى منها صرّةقماشية معقودة بالأعلى.

أرشدته إلى الأريكة بصالة الجلوس، وقدمت له كوباً من الشاي الأخضر.

اعتذرَ لأنه لا يحمل بطاقة اسم. «كنت أدرّس الدراسات الاجتماعيةبمدرسة ثانوية عامة بمقاطعة هيروشيما. ولم أمارس أي عمل منذ تقاعدي. أزرع بعض

الخضروات كهواية أكثر من أي شيء، مجرد عمل مزرعة بسيط.لهذا لا أحمل معي بطاقة اسم مع إنني أدرك أن هذا من غير اللائق تماماً».

لم تكن لدي بطاقة اسم أيضاً.

«المعذرة، لكنني أتساءل عن عمرك يا سيد أوكادا».

«أنا في الثلاثين».

أومأ، ثم أخذ رشفة من الشاي. لم تكن لدي فكرة عما يعنيه كوني في الثلاثين بالنسبة له.

«إنك تعيش في منزل هادئ وجميل». قال كأنه يريد تغيير الموضوع.

أخبرته أنني أستاجره من خالي بمبلغ زهيد. وأضفت أننا، في الوضع الطبيعي، مع دخلنا الحالي، لا يمكننا أن نعيش بمنزل بنصف هذا الحجم. اختلس بضع نظرات مترددة حول المكان وهو يومئ. حذوت حذوه ونظرت حولي. أمرني صوت المرأة ‘ *انظر فيما حولك*’ . ألقيت نظرة بوعي جديد فيما حولي.واستشعرت برودة من نوع خاص في جو المكان.

«مكثت في طوكيو طوال أسبوعين خلال هذه الرحلة. وأنت آخر من أوصل إليه تذكاراً. والآن يمكنني العودة إلى هيروشيما».

قلت: «كنت آمل أن أتمكن من زيارة منزل السيد هوندا، وربما أحرق عوداً من البخور في ذكراه».

«هذا لطف بالغ منك، لكن منزل السيد هوندا – وقبره الآن– في أساهيكاوا، بهوكايدو. جاءت العائلة من أساهيكاوا لترتيب أوضاع الأشياء التي تركها في منزله بميغورو. والآن عادوا جميعاً،ولم يبق شيء هناك».

«فهمت. إذاً فالسيد هوندا كان يعيش في طوكيو وحده، بعيداً عن عائلته».

«صحيح. كان ابنه الأكبر، الذي يعيش في أساهيكاوا، قلقاً بشأن ترك والده ليعيش بمفرده في مدينة كبيرة. وكان يعلم أن هذا الأمر يسيء إلى صورته. ويبدوأنه حاول إقناع والده بأن يذهب ليعيش معه، لكن السيد هوندا رفض ببساطة».

«لديه ابن؟» سألته متفاجئاً قليلاً. لطالما ظننت أن السيد هوندا وحيد تماماً في هذا العالم. «إذاً افترض أن زوجة السيد هوندا رحلت منذ فترة».

«حسناً، هذه قصة معقدة.انتحرت السيدة هوندا انتحار العشاق مع رجل آخر بعد الحرب، عام 1950، أو 1951 على ما أعتقد. لا أعرف تفاصيل هذا الحدث. لم يقل السيد هوندا الكثير عنه. وبالطبع لم أكن في موضع يسمح لي بالسؤال».

أومأت.

«بعد ذلك، ربى السيد هوندا أطفاله بمفرده. ابن وابنة. وعندما أصبحا مستقلين، انتقل إلى طوكيو وحده، وبدأ عمله عرّافاً، وهكذا تعرفتَ عليه».

«ما نوع العمل الذي كان يزاوله في أساهيكاوا؟»

«كان يعمل بالشراكة مع شقيقه في مجال الطباعة».

حاولت تخيُّل السيد هوندا واقفاً أمام مطبعة، مرتدياً مئزره، ويتفقد سير الطباعة. لكن بالنسبة لي،كان السيد هوندا عجوزاً متسخاً قليلاً يرتدي كيمونو قديم ومتسخ مع حزام أكثر ملاءمةللنوم. ويجلس – صيفاً وشتاء– واضعاً ساقيه فوق مدفأته الغائرة التي يحرك قضبانها المنشعبة فوق طاولته المنخفضة.

استخدم الملازم ماميا يده السليمة،بحركات رشيقة، لحل صُرّة القماش التي أحضرها معه. فظهرت لفافة أشبهبورق مقوّى ومربوطة بعدة خيوط بإحكام. ووضعها على المنضدة ناحيتي.

«هذا هو التذكار الذي تركه السيد هوندا معي لأعطيك إياه».

حملته، فكان بلا وزن تقريباً. ولم أستطع تخيل ما بالداخل.

«هل أفتحها؟»

هز الملازم ماميا رأسه قائلاً: «آسف، لكن السيد هوندا أشار إلى أنه يتمنى أن تفتحها عندما تكون وحدك».

أومأت وأعدت اللفافة إلى المنضدة.

قال الملازم ماميا: «في الواقع، وصلتني الرسالة من السيد هوندا قبل يوم واحد بالضبط من وفاته. قال فيها شيئاً قريباً من هذا: ‘سأموت قريباً جداً. ولا يساورني أي خوف من الموت. هذا هو أمد الحياة الذي خصصته لي إرادة السماء. وعندما يتعلق الأمر بإرادة السماء، فكل ما بوسع المرء فعله هو أن يخضع لها. لكن توجد أشياء لم أفعلها. توجد أشياء مختلفة في خزانتي، أشياء أردت أن أعطيها لأناس بعينهم. والآن يبدو أنني لن أتمكن من إنجاز هذه المهمة. ولهذا سأكون في غاية الامتنان إذا ساعدتني على توزيع التذكارات الموجودة في القائمة المرفقة بهذه الرسالة. أدرك تماماً أن هذه وقاحة مني، لكنني آمل أن تتكرّم وتعتبر هذه المهمة أمنية موتي، وتُتعِب نفسك مرةً أخيرة من أجلي’.

لا بد لي من القول إنني كنت مصدوماً لتلقي رسالة كتلك من السيد هوندا. كنت منقطعاً عنه لسنوات، ربما انقضت ست أو سبع سنوات دون أن نتبادل كلمة. رددت عليه على الفور، لكن رسالتي تقاطعت في البريد مع إشعار من ابنه بأن السيد هوندا قد رحل».

أخذ رشفة من شايه الأخضر.

تابع الملازم ماميا حديثه: «كان السيد هوندا يعلم الوقت الذي سيموت فيه بالضبط. لا بد أنه وصل إلى مرحلة عقلية يستحيل على شخص مثلي أن يصلها.

كما قلت في بطاقتك البريدية، كان ثمة شيء فيه يؤثر في الناس بعمق. شعرت بذلك من المرة الأولى التي قابلته فيها، في صيف عام 1938م».

«هل كنت في نفس الوحدة مع السيد هوندا في وقت حادثة نومونهان؟»

«لا، لم أكن معه»، قال الملازم ماميا وهو يعض شفته. «كنا في وحدات مختلفة. عملنا معاً في عملية عسكرية صغيرة سبقت معركة نومونهان. أصيب العريف هوندا في نومونهان لاحقاً وأعيد إلى اليابان. لم أذهب إلى نومونهان. فقدت يدي هذه» – وهنا رفع الملازم ماميا يده التي بداخل القفاز– «خلال تقدم السوفييت في أغسطس 1945. وهو الشهر الذي انتهت فيه الحرب. أصبت برصاصة في كتفي من مدفع آلي ثقيل خلال معركة مع وحدة دبابات. كنت على الأرض، فاقداً الوعي، عندما سحقت دبابة سوفيتية يدي. أُسِرت، وتلقيت العلاج بمستشفى في تشيتا، وأُرسِلت إلى معسكر اعتقال في سيبريا وظللت معتقلاً حتى عام 1949. كنت خارج اليابان لاثني عشر عاماً منذ وقت إرسالي عام 1937. لم تطأ قدماي أرض اليابان طوال ذلك الوقت. اعتقدت أسرتي أنني قُتلت وأنا أقاتل السوفييت. بنوا لي قبراً في مقبرة القرية. كان لدي تفاهم من نوع ما مع فتاة هناك قبل أن أغادر اليابان. لكن عندما عدت، وجدتها قد تزوجت برجل آخر. إثنا عشر عاماً فترة طويلة».

أومأت.

«آسف يا سيد أوكادا، لا بد أن يكون هذا الحديث عن الماضي مُمِلاً لشاب مثلك. لكن أود أن أضيف شيئاً أخيراً، وهو أننا كنا رجلين عاديين، مثلك تماماً. لم يحدث أن فكرت بأنني أريد أن أصبح جندياً. أردت أن أصبح مدرساً. لكن حالما تخرجت في الجامعة، أرسلوا لي خطاب تجنيدي، ثم أرسلوني لمعسكر تدريب ضباط، وانتهى بي المطاف في الجزء القاري من آسيا لاثني عشر عاماً. مرّت حياتي كحلم».

أطبق الملازم ماميا شفتيه.

قلت بعد مرور بعض الوقت: «إذا لم تكن تمانع. أرغب بشدة في سماع قصة تعرفك بالسيد هوندا».

أردت أن أعرف حقاً أي نوع من الرجال كان السيد هوندا قبل أن ألتقي به.

ظل الملازم ماميا جالساً يفكر بشيء ما، واضعاً يديه على ركبتيه. لم يكن غير متأكداً مما عليه فعله. كان يفكر فحسب.

قال: «قد تكون القصة طويلة».

«لا مشكلة لدي».

«لم أخبر بها أي أحد، وأنا متأكد أن السيد هونداً لم يخبر بها أي أحد أيضاً. أقول هذا لأننا... قطعنا عهداً... بأن نحتفظ بالقصة سراً. لكن السيد هوندا ميت الآن، وأنا الوحيد المتبقي. لن يضير إذا أخبرتك».

وهكذا بدأ الملازم ماميا يروي لي قصته.

12

قصة الملازم ماميّا الطويلة

الجزء الأول

بدأ الملازم ماميّا حديثه:

«نُقلت إلى منشوريا في بدايات عام 1937. كنت ملازم ثاني حديث التخرج حينها، وعينوني في الإدارة العامة لجيش كوانتونغ في هسين شينغ. تخصصت في الجغرافيا في الجامعة، لذلك انتهى بي المطاف في فيلق المسح العسكري، الذي يختص بإعداد الخرائط. كان هذا الوضع مثالياً بالنسبة لي، لأكون صريحاً معك، لأن الواجبات التيكُلفت بها كانت من أسهل ما يمكن أن يأمله المرء في الجيش.

علاوةً على هذا، كانت الأوضاع في منشوريا سلمية نسبياً، أو على الأقل مستقرة. أدى اندلاع حادثة الصين الأخيرة إلى نقل مسرح العمليات العسكرية من منشوريا إلى وسط الصين.

كانت قوات الصين المختصة بالحملات هي التي تقاتل فعلياً، بينما كانت مهمة جيش كوانتونغ سهلة. صحيح أن تنفيذ العمليات كان مستمراً ضد الوحدات العسكرية المعادية لليابان التي تخوض حرب عصابات، لكنها كانت محصورة بالداخل.

وعموماً كان الأسوأ قد انقضى. كل ما كان على جيش كوانتونغ القوي فعله هو حفظ النظام في دولتنا الصُوَرية، مَنشوكو، «المستقلة» حديثاً، مع مراقبة الأوضاع في الشمال.

مع أن الأجواء كانت تبدو سلمية، إلا أننا كنا ما نزال في حرب. لذلك كانت هناك تحركات ومناورات مستمرة. ولحسن الحظ، لم يكن عليّ المشاركة في هذه المناورات أيضاً. إذ كانت تُجرَى تحت ظروف فظيعة. تنخفض درجة الحرارة إلى أربعين أو خمسين درجة تحت الصفر. خطوة واحدة خاطئة في مناورات كتلك يمكن أن تودي بحياتك. في كل مرة يجرون فيها مثل تلك المناورات، يُرسل المئات من الرجال إلى المستشفى بسبب الصقيع، أو إلى ينبوع مياه حارة للعلاج. لم تكن هسين شين غمدينة كبيرة، لكنها كانت قطعاً مكاناً غريباً ومثيراً. إذ توفر فرصاً كثيرة إذا أردت أن تستمتع بوقتك هناك. كان الضباط العازبين الجدد مثلي يقيمون في نُزُل بغرف مفروشة بدلاً من الثكنات. وكان الوضع أشبه بإمتداد لأيام الدراسة. تقبّلت الأمر بصدر رحب، معتقداً أنه لا يوجد ما أتذمر حياله إذا سارت فترة خدمتي العسكرية على هذا النحو، يوم هادئ تلو الآخر.

لكنه كان سلاماً ظاهرياً، بطبيعة الحال. فعلى مقربة من منطقتنا الوادعة الصغيرة، تدور رحى حرب شعواء. أدرك معظم اليابانيين أن الحرب مع الصين ستتحول إلى مستنقع موحل لن نتمكن من انتشال أنفسنا منه. هذا ما أعتقدته، أو على الأقل أي ياباني لديه دماغ في رأسه أدرك هذا. لا يهم عدد المعارك المحلية

التي ربحناها، لم يكن بمستطاع اليابان الاستمرار في احتلال وحكم مثل تلك المناطق الشاسعة. كان ذلك بديهياً إذا فكرت بالأمر. وبطبيعة الحال، مع استمرار القتال، بدأ عدد القتلى والجرحى يتضاعف. وكانت العلاقات مع أمريكا تسير من سيئ إلى أسوأ. حتى في اليابان، ظل شبح الحرب يتعاظم مع مرور كل يوم. هذه كانت هي الأعوام العصيبة عندئذ، 1937 و1938. لكن حياة الضباط الوادعة التي كنت أعيشها في هسين شينغ تُغريك بالتساؤل: «حرب؟ أي حرب؟» كنا نخرج لنشرب ونحتفل بصخب كل ليلة، ونرتاد المقاهي التي توجد بها الفتيات الروسيات البيضاوات.

بعد ذلك، ذات يوم في أواخر أبريل من عام 1938، استدعاني ضابط رفيع من الإدارة العامة، وقدمني إلى رجل يرتدي ملابس مدنية يُدعى ياماموتو، لديه شارب وشعر قصير. لم يكن رجلاً طويلاً جداً. أما عمره، فيمكنني القول إنه كان في منتصف الثلاثينات ولديه ندبة في مؤخرة عنقه بدت كأنها جرح سببته آلة حادة من نوع ما. قال الضابط لي: «السيد ياماموتو من المدنيين، استعان الجيش به للتقصّي في حياة وعادات المنغوليين الذين يعيشون في مَنشوكو. محطته التالية ستكون سهوب هولون بوير بالقرب من حدود منغوليا الخارجية. وسنرسل معه فرقة مسلحة،وستكون عضواً في هذه المفرزة». لم أصدّق حرفاً مما قاله لي، قد يكون ياماموتو هذا مرتدياً ملابس مدنية، لكن بمقدور أي شخص أن يعرف بنظرة واحدة أنه عسكري محترف. نظرة عينيه، وأسلوب حديثه، ووِقفته. كان أمراً بديهياً. اعتقدت

أنه ضابط برتبة رفيعة أو أنه لديه علاقة بالاستخبارات، وأنه في مهمة تتطلب إخفاء هويته العسكرية. كان ثمة شيء منذر بالسوء يحيط بالأمر برمته.

أُختير ثلاثة منا لمرافقة ياماموتو، وهو عدد أصغر من أن يكون قوة فعالة. مع أن العدد الكبير سيجذب انتباه جنود منغوليا الخارجية الذين يتمركزون على الحدود. قد يختار المرء أن ينظر للأمر باعتباره مهمة حساسة عُهِد بها إلى رجال أُختيروا بعناية. لكن الحقيقة كانت أبعد ما يكون عن ذلك. كنت الضابط الوحيد، ولمتكن لدي أي خبرة في أرض المعركة. كان الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في القتال هو رقيب يُدعى هامانو. كنت أعرفه معرفة جيدة، وهو جندي عُيّن لمساعدة الإدارة العامة. كان رجلاً قوياً شق طريقه بين الرتب ليصبح ضابط صف، وقد أبلى بلاءً حسناً في المعارك وفي الصين. كان ضخماً لا يهاب شيئاً، وكنت واثقاً أننا يمكننا الاعتماد عليه وقت الشدة. ولم تكن لدي فكرة عن سبب انضمام العريف هوندا إلى حَفْلنا. فهو كان مثلي قد وصل من اليابان للتو، وبالطبع لميكن ذو خبرة في أرض المعركة. كان رجلاً لطيفاً هادئاً. وبدا أنه لن يكون ذو نفع إطلاقاً في أي قتال. فوق ذلك، كان يتبع للفرقة السابعة، وهو ما يعني أن الإدارة العامة كلفت نفسها عناء إحضاره لنا خصيصاً لهذه المهمة، لهذه الدرجة كان قيّماً، مع أن سبب هذه الأهمية لم يتضح إلا لاحقاً.

أُختِرتُ قائداً للقوة. وأهم مسؤولياتي هي معاينة طبوغرافيا الحدود الغربية لمنشوكو في منطقة نهر خلخا. كان عملي هو التأكد من أن خرائطنا الخاصة

بالمنطقة مكتملة بقدر الإمكان. رأيت المنطقة عدة مرات من الطائرة. كان الهدف من وجودي هو تسهيل المهمة. ومهمتي الثانية هي جمع معلومات طبوغرافية أكثر تفصيلاً للمقاطعة، وتحسين دقةخرائطنا. أي عصفورين بحجر واحد. لأكون صادقاً، كانت خرائط منطقة سهوب هولون بوير الحدودية المتاخمة لمنغوليا الخارجية التي نمتلكها في ذلك الوقت غير متقنة وبدائية،وليست بأفضل كثيراً من خرائط سلالة مانشو القديمة. أجرى جيش كوانتونغ عدة عمليات مسح بعد تأسيس مَنشوكو. وأرادوا أن يرسموا خرائط أكثر دقة، لكن المنطقة التي كان عليهم تغطيتها شاسعة للغاية، ومنشوريا الغربية عبارةعن صحراء لا نهاية لها. لا تعني الحدود الدولية الكثير في مثل تلك البرية الشاسعة. ظل البدو المنغوليين يعيشون هناك آلاف السنين دون الحاجة إلى –أو حتى المعرفة بمفهوم– الحدود.

عرقل الوضع السياسي أيضاً إعداد خرائط أكثر دقة. أي أننا إذا أصدرنا خريطة من جانبنا فحسب، توضح فكرتنا عن الحدود، قد يسبب ذلك أزمة دولية شاملة. كل من الإتحاد السوفييتي ومنغوليا الخارجية اللذين لديهما حدود مشتركة مع منشوكو، كانا يتعاملان بحساسية مفرطة مع تجاوزات الحدود. ووقعت عدة معارك دموية بسبب مسائل كهذه. لم يكن الجيش، في أيامنا تلك، يرغب في خوض حرب مع الاتحاد السوفييتي. كانت جميع قوتنا موجهة للحرب مع الصين، ولا نملك شيئاً لمواجهة شاملة مع السوفييت. لم تكن لدينا الفرق أو الدبابات أو المدفعية أو الطائرات. كانت أولويتنا الأولى هي تأمين استقرار مَنشوكو، التي كانت ما تزال كياناً

سياسياً حديثاً نسبياً. أما بالنسبة للجيش، فيمكنهم تأجيل ترسيم الحدود الشمالية والشمالية الغربية. أرادوا أن يماطلوا لكسب الوقت بإبقاء الأمور غير محددة المعالم. حتى جيش كوانتونغ العظيم تبنّى هذه الرؤية، ورأى أن ينتظر ويرى ما يحدث. ونتيجة لذلك، غاص كل شيء في بحر من الغموض.

لكن على الرغم من خططهم، إذا قاد حدثٌ غير متوقع إلى الحرب، (وهو ما حدث تحديداً فيالعام التالي في نومونهان) فسنكون بحاجة إلى خرائط لنقاتل. وليست خرائط مدنية عادية، بل خرائط عسكرية حقيقية. فلكي تخوض حرباً، إنك بحاجة إلى خرائط توضح أماكن إقامة المعسكرات، وأفضل الأماكن لنصب المدفعية، وحساب الوقت الذي يستغرقه المشاة للوصول إلى هناك، وأماكن وجود الماء، ومقدار العلف الذي تحتاج إليه للخيول. كم هائل من المعلومات المفصلة. ببساطة، لا يمكنك القتال في حرب حديثة دون مثل هذه الخرائط. ولهذا كان معظم عملنا يتداخل مع عمل شعبة الاستخبارات، وكنا نتبادل المعلومات باستمرار مع وحدة استخبارات جيش كوانتونغ أوالخدمة السرية العسكرية في هيلار. كان الجميع يعرفون بعضهم البعض، لكن ياماموتو هذا لم أره من قبل قط.

بعد خمسة أيام من الاستعدادات، غادرنا هسين شينغ إلى هيلار بالقطار. استقللنا شاحنة من هناك وقدناها عبر منطقة معبد خاندور بيو، ووصلنا إلى مركز مراقبة الحدود الخاص بجيش منشوكو بالقرب من نهر خلخا. لا أتذكر المسافة تحديداً، لكنها كانت حوالي مئتي ميلاً. كان الإقليم عبارة عن برية موحشة، ليس بها

أي شيء على مد البصر. يتطلب عملي مقارنة خريطتي بالتضاريس الأرضية الفعلية، لكن لم يكن هناكشيءلمقارنته به، لا شيء يمكن أن يطلق المرء عليه اسم معلم بارز. لم أرَ سوى الروابي الوعرة المكسوة بالأعشاب التي تمتد إلى ما لا نهاية، والأفق المتواصل، والغيوم السابحة في السماء. لم تكن ثمة طريقة لتكوين أي فكرة دقيقة عن مكاننا على الخريطة. كل ما كان بوسعي فعله هوالتخمين استناداً إلى الوقت الذي قضيناه في القيادة.

في بعض الأحيان، عند السير بصمت عبر مثل تلك المناظر الطبيعة المقفرة، يغمر المرء شعور طاغ بأنه، ككائن بشري، يتفكك ببطء إلى أجزاء. المساحة المحيطة شاسعة للغاية لدرجة تصعب معها المحافظة على تماسك كينونته. لست متأكداً من أنني أعبر عن نفسي بوضوح. يتمدد الدماغ ليملأ الفراغ المحيط بأسره، ويصبح مشتتاً لدرجة يفقد معها المرء المقدرة على إبقاءه ضمن الحدود الجسدية. هذا ما اختبرته وسط السهول المنغولية. يا لشساعتها! بدت لي أقربلمحيط من كونها صحراء. تشرق الشمس من الأفق الشرقي، وتشق طريقها عبر السماء العالية وتغوص في الأفق الغربي. هذا هو التغيير الوحيد الذي يمكن ملاحظته في كل ما يحيط بنا. وفي حركة الشمس، شعرت بشيء أكاد لا أعرف ما أُسميه، شيء هائل، حب كوني.

عند نقطة تفتيش الحدود الخاصة بجيش منشوكو، تحولنا من الشاحنة إلى صهوات الجياد. أعدّوا لنا كل شيء هناك: أربعة خيول لنمتطيها، بالإضافة إلى

اثنين لحمل الطعام والماء والأسلحة. كنا مسلحين تسليحاً خفيفاً. أنا والمدعو ياماموتو لم نكن نحمل سوى مسدسين. كان هامانو وهوندا يحملان بندقيتي مشاة موديل 38 وقنبلتين يدويتين لكل منهما ، بالإضافة إلى مسدسيهما.

كان ياماموتو هو القائد الفعلي لمجموعتنا. يتخذ كل القرارات ويصدر إلينا التوجيهات. بما أنه مدني كما يُزعم، تقتضي القواعد العسكرية أن أكون أنا القائد، لكن لم يشك أي أحد في أنه المسؤول. فهو كان من ذلك النوع من الرجال. مع إنني كنت برتبة ملازم ثاني، إلا أنني لم أكن سوى موظف مكتب بلا خبرة عسكرية. يعرف العسكريون من بيديه السلطة الفعلية، وهو الذي ينصاعون لأوامره. إلى جانب ذلك، أمرني رؤسائي بإتباع توجيهات ياماموتو دون جدال. طاعتي له كانت أمراً يتجاوز القوانين واللوائح المعتادة.

اتجهنا صوب نهر خلخا وسرنا بمحاذاته ناحية الجنوب. كان النهر فائضاً بالمياه بسبب ذوبان الجليد. وكنا نرى الأسماك الضخمة في الماء وأحياناً نلمح الذئاب من بعد، ربما كانت كلاب برية جزئياً وليست سلالات ذئاب نقية، لكنها، على أي حال، كانت خطرة. وتعيّن علينا أن نختار حارساً كل ليلة لحراسة الجياد منها. كما رأينا الكثير من الطيور، معظمها طيور مهاجرة في طريق عودتها إلى سيبريا. ناقشت مع ياماموتو خصائص المنطقة التضاريسية، وتفقدنا مسارنا على الخريطة، وسجلنا ملاحظات مفصلة عن كل ما مررنا به. لكن عدا عن هذه المحادثات الفنية، لم

يتحدث ياماموتو معي كثيراً. كان يهمز جواده في صمت، ويتناول طعامه بعيداً عنا، كانت لديه معرفة مفصلة على نحو مذهل بالتضاريس والاتجاهات وما إلى ذلك.

بعد سيرنا جنوباً يومين دون أي مشكلة، انتحى ياماموتو بي جانباً وأخبرني بأننا سنخوض نهر خلخا قبل الفجر في الصباح التالي. صدمني ما قاله بشدة. فالشاطئالمقابل كان ضمن حدود منغوليا الخارجية. وحتى الضفة التي كنا نقف عليها كانت محل نزاع وينبغي ألا نأمن الوجود بها.

ادّعت حكومة منغوليا الخارجية تبعية الضفة لها، وجزمت منشوكو بأحقيتها في المنطقة، الأمر الذي قاد إلى صدامات مسلحة مستمرة. إذا سقطنا في أسر قوات منغوليا الخارجية على *هذا الجانب*، فسيمنحنا خلاف الدولتين بعض العذر لوجودنا عليه. لكن في الواقع، من المستبعد أن تصادفهم في هذا الفصل، حيث يجعل ذوبان الجليد الخوض في النهر أكثر صعوبة. أما الضفة الأخرى، فكانت قصة مختلفة كلياً تجوب الدوريات المنغولية هناك بلا شك. وإذا أُلقي القبض علينا، فلن يكون لدينا أي عذر إطلاقاً. سيكون ذلك انتهاكاً صريحاً للحدود، الأمر الذي يمكن أن يتسبب في مشكلات سياسية جمّة. ومن الوارد أن يُطلق علينا النار على الفور، ولن يكون بمقدور حكومتنا الاحتجاج. بالإضافة إلى أن ضابطي الأعلى لم يلمح إلى أنه يجوز لنا عبور الحدود. وبالطبع أُمرت أن أتبع أوامر ياماموتو، لكن لم تكن لدي وسيلة لمعرفة إن كان ذلك يشمل جناية جسيمة مثل انتهاك الحدود. ثانياً، كما قلت آنفاً، كان منسوب نهر خلخا مرتفعاً، والتيار قوياً للغاية، لدرجة يصعب معها العبور،

علاوةً على برودة المياه الشديدة. حتى القبائل البدوية ما كانت لتخوض النهر في ذلك الوقت من السنة. وعادةً ما يقصِرون عبور النهر على الشتاء، عندما يكون متجمداً، أو في الصيف عندما ينخفض منسوب المياه وترتفع درجة حرارتها.

عندما قلت له كل هذا، حدق ياماموتو إليّ هنيهة، ثم أومأ عدة مرات. وقال لي بشيء من التعالي: «أتفهّم قلقك من انتهاك الحدود الدولية. إنه أمر طبيعي من جانبك، باعتبارك ضابط تحت إمرتك عدد من الجنود، أن تأخذ في اعتبارك مسؤوليتك في مثل هذا الموقف. لن تعرض حياة رجالك للخطر دون سبب وجيه بالطبع. لكنني أريدك أن تترك مثل هذه المسائل لي. أتحمل كامل المسؤولية في هذه المرحلة. لستُ مخولاً لأقدم لك الكثير من التفسيرات، لكن هذه المهمة أجيزت من أعلى مستويات القيادة في الجيش. أما فيما يتعلقبخوض النهر، فليست أمامنا عوائق فنية. يوجد مكان خفي يمكننا العبور منه. جهَّز جيش منغوليا الخارجية عدداً من مثل هذه الأماكن. أظنك مدركاً لهذا تماماً. أنا نفسي عبرت النهر عدة مرات من هذا المكان. دخلت منغوليا الخارجية العام الماضي في مثل هذا الوقت من هذا المكان عينه. ليس ثمة ما تقلق بشأنه».

كان محقاً بشأن أمر واحد. أرسل جيش منغوليا الخارجية، الذي يعرف المنطقة بتفاصيلها، بضع وحدات قتالية إلى هذا الجانب من النهر خلال موسم ذوبان الجليد. كان عليهم أن يتأكدوا من إمكانية إرسال وحدات كاملة متى ما أرادوا. وإذا تمكنوا من

العبور، فهذا الرجل المدعو ياماموتو يمكنه العبور أيضاً، ولن يكون مستحيلاً على بقيتنا أيضاً.

كنا نقف عند إحدي المخاضات السرية التي من المرجح أن جيش منغوليا الخارجية بناها. جسر مصنوع من ألواح خشبية، مُموّه بإتقان، لن يكتشفه الملاحظ العادي، مثبت بحبال عبر التيار السريع، ويصل بين المنطقتين الضحلتين على كل جانب تحت سطح الماء. انخفاض بسيط في مستوى المياه سيسهل العبور على مركبات نقل الجنود، والعربات المصفحة، وما إلى ذلك. لا يمكن لطائرات الاستطلاع ملاحظته تحت الماء إطلاقاً. شققنا طريقنا عبر تيار النهر القوي متشبثين بالحبال. ذهب ياماموتو أولاً ليتحقق من عدم وجود دوريات تابعة لجيش منغوليا الخارجية في المنطقة، ثم تبعناه. تخدرت أقدامنا في المياه الباردة، لكننا جاهدنا مع خيولنا وبلغنا الضفة الأخرى من نهر خلخا. كانت الأرض أكثر ارتفاعاً على الجانب الآخر. ونحن نقف هناك، رأينا الأميال التي قطعناها عبر الصحراء. وهذا أحد أسباب تمتع الجيش السوفييتي بالأفضلية دائماً عندما اندلعت معركة نومونهان في النهاية. كما يؤثر الاختلاف في الارتفاع على دقة نيران المدفعية تأثيراً كبيراً. على أي حال، أتذكر دهشتي من اختلاف المنظر الطبيعي على الجانب الآخر من النهر. وأتذكر أيضاً المدة الطويلة التي استغرقتها لاستعادة الإحساس بأطرافنا التي ابتلت بالمياه المثلجة. حتى إنني لم أستطع إخراج صوتي لبعض الوقت. لكن لأكون صادقاً، إن

التوتر الرهيب الذي استحوذ عليَّ لمعرفتي بأنني على أرض العدو كان كافياً ليجعلني أنسى أمر البرد.

سرنا جنوباً بمحاذاة نهر خلخا، الذي كان يتلوّى مثل أفعى، منساباً إلى يسارنا بالأسفل. بعدما عبرنا النهر بوقت قصير، نصحنا ياماموتو بإزالة جميع شارات الرُتَب، وعملنا بنصحيته. افترضت أن مثل هذه الأشياء لن تسبب لنا سوى المتاعب إذا وقعنا في قبضة العدو. لهذا السبب أيضاً خلعت حذاء الضباط وانتعلت حذاءً عادياً.

كنا ننصب معسكرنا في ذلك المساء عندما رأينا رجلاً يقترب منا من بعيد، ممتطياً حصاناً وحده. كان منغولياً. يستخدم المنغوليون سروجاً مرتفعة غير معتادة، الأمر الذي يسهّل تمييزهم عن بعد. التقط الرقيب هامانو بندقيته بسرعة عندما رأى الرجل يقترب. لكن ياماموتو أمره بألا يطلق النار، خفض هامانو بندقيته ببطء دون أن ينبس ببنت شفة. وقف أربعتنا في انتظار اقتراب الرجل. كان يحمل بندقية سوفييتية الصنع معلقة على ظهره وأخرى ماوزر على خصره، ويغطي الشعر الخشن وجهه، ويعتمر قبعة مزودة بواقي أذنين، رداؤه المتسخ هو نفسه الذي يرتديه البدو، لكن يمكنك أن تعرف من سلوكه أنه جندي محترف.

تحدث الرجل، وهو يترجّل، إلى ياماموتو بلغة افترضت أنها المنغولية. لدي بعض المعرفة بالروسية والصينية، ولم يتحدث بأي منهما. لذلك لا بد أنها كانت

المنغولية. أجاب ياماموتو الرجل بلغته. وهذا جعلني أكثر يقيناً أن ياماموتو ضابط مخابرات.

قال ياماموتو لي: «أيها الملازم ماميا، سأغادر مع هذا الرجل. ولا أعرف متى سأعود. لكنني أريد منكم الانتظار هنا، وتوخوا الحذر. وإذا لم أعد خلال ست وثلاثين ساعة، فعليك أن تبلغ الأمر للرئاسة. أرسل رجلاً ليعبر النهر ويعود إلى نقطة مراقبة جيش منشوكو». ثم امتطى حصانه وانطلق مع المنغولي ناحية الغرب.

أنهى ثلاثتنا إعداد المعسكر وتناولنا عشاءً بسيطاً. لم يكن بمقدورنا أن نطهو أو نشعل ناراً. ففي ذلك السهل الشاسع، حيث لا يوجد شيء سوى كثبان رملية منخفضة على مد البصر لإخفاء وجودنا، سيؤدي أقلقدر من الدخان إلى إلقاء القبض علينا فوراً. نصبنا خياماً منخفضة متوارين خلف الكثبان الرملية، وتناولنا لحماً معلباً بارداً وكعكاً جافاً على العشاء. ابتعلنا الظلام بسرعة عندما غاصت الشمس في الأفق، وامتلات السماء بعدد مذهل من النجوم. بلغ عواء الذئاب مسامعنا، مختلطاً بهدير نهر خلخا، ونحن نستلقي على الرمال لنستعيد طاقتنا بعد عناء اليوم.

قال لي الرقيب هامانو: «يبدو أننا أقحمنا أنفسنا في وضع حرج»، ولم يكن لي بُد من الاتفاق معه. بحلول ذلك الوقت، توثقت معرفة ثلاثتنا –الرقيب هامانو، والعريف هوندا، وأنا– ببعضنا. عادةً ما لا يختلط ضباط الصف المخضرمين، من أمثال الرقيب هامانو، بالضباط الشبان حديثي العهد من أمثالي، ويهزأون بهم. لكن

حالتنا كانت مختلفة، كان يقدّر التعليم الذي تقليته في كلية مدنية، وبدوري حرصت على إظهار احترامي لخبرته القتالية وحكمته العملية. ولم أدع رتبتي تقف حائلاً دون ذلك.كما شعرنا بأريحية بالحديث مع بعضنا لأنه كان من ياماغوتشي وأنا من منطقة هيروشيما، التي تقع قريباً من ياماغوتشي. حدثني عن الحرب في الصين. كان جندياً حتى النخاع، ولم يتجاوز المرحلة الإبتدائية في دراسته. لكن كانت لديه تحفظاته بشأن هذه الحرب الفوضوية بعيداً عن اليابان، التي بدت كأنها لن تنتهي أبداً. وعبرّ لي عن هذه المشاعر صراحة. قال: «لا أمانع القتال. أنا جندي، ولا أمانع الموت في أرض المعركة من أجل وطني، لأن هذا هو عملي. لكن هذه الحرب التي نخوضها الآن أيها الملازم، حسناً، أظن أنها ليست صحيحة. إنها لسيت حرباً حقيقية، فيها خطوط معركة، حيث تواجه عدوك وتقاتل حتى النهاية. نتقدم، فيهرب العدو دون قتال. ثم ينزع الجنود الصينيين زيّهم العسكري، ويختلطون بالمدنيين، فلا نستطيع تمييزهم. وعندها نقتل الكثير من الأبرياء تحت ذريعة إخراج ‘الخونة’، أو ‘فلول الأعداء’، ونستولي على المناطق بالقوة. ونضطر لسرقة طعامهم لأن خط جبهة القتال يتحرك أسرع من الإمدادات. ونضطر إلى قتل أسرانا، لأننا لم يكن لدينا أي مكان لنحتفظ بهم فيه، أو أي طعام لنطعمهم. هذا خطأ أيها الملازم. ارتكبنا أفعالاً فظيعة في نانكينغ. حتى وحدتي التي كنت أنتمي إليها. ألقينا بعشرات الناس في بئر، وأمطرناهم بالقنايل اليدوية. ليس بمقدوري حمل نفسي على الحديث عن بعض الجرائم التي اقترفناها. أؤكد لك أيها الملازم، هذه الحرب ليست لها أي قضية

أخلاقية. طرفان يقتلان بعضهما فحسب. والذين يُسحقون هم المزارعون الفقراء، الذين ليس لديهم آراء سياسيةأو أي أيدولوجيا. ولا يعرفون شيئاً عن حزب القوميين أو المارشال زانغ في شبابه، جيش الدرب الثامن. يكونون سعداء إذا وجدوا ما يأكلونه. أعرف شعور أولئك الناس، أنا نفسي ابن صياد فقير. إنهم الذين يكدحون من الصباح إلى الليل، وأفضل ما يمكنهم فعله هو الإبقاء على حيواتهم، بالكاد. لا أستطيع أن أصدق أن قتل أولئك الناس بلا أي سبب سيكون في صالح اليابان بأي طريقة».

على النقيض من الرقيب هامانو، لم يقل العريف هوندا سوى القليل جداً عن نفسه. كان رجلاً هادئاً على أي حال. وغالباً ما كان يستمع إلى حديثنا، دون أن يُدلي بأي تعليق. لكن عندما أقول إنه كان 'هادئاً'، لا أعني التلميح بأن ثمة شيء قاتم أو حزين بشأنه. كل ما في الأمر أنه نادراً ما يأخذ زمام المبادرة في أي حوار. صحيح أن ذلك دائماً ما جعلني أتساءل عما يدور في ذهنه. لكن لم يكن ثمة شيء مزعج بشأنه. بل هناك شيء في طبعه الهادئ كان يدفئ قلوب من حوله. كانت تحفّه سكينة عميقة، ولا تتغير تعبيرات وجهه مهما حدث. علمت أنه من أساهيكاوا، حيث كان والده يملك محل طباعة صغير. كان يصغرني بعامين، وإنضم لاخوته منذ تركه للمدرسة المتوسطة، وظلوا يعملون مع والدهم. كان الأصغر بين ثلاثة ابناء، أكبرهم كان قد قُتل في الصين قبل عامين. وكان يحب القراءة، ومتى ما وجد وقت فراغ، ينكفئ على نفسه في مكان ما ، ويقرأ كتاباً عن موضوع بوذي من نوع ما.

كما قلت سابقاً، لم تكن لدى هوندا أي خبرة قتالية، لكن بالنسبة لشخص لم يتدرب سوى عام واحد، فقد كان جندياً استثنائياً. دائماً ما يكون هناك واحد أو اثنين مثله في أي فصيلة من الجند، يتصفون بالصبر، والجَلَد، ويؤدون واجباتهم كما يؤمرون دون أي تذمر، وأقوياء جسدياً، ولديهم حدس جيد، ويستوعبون ما يُقال لهم، وينجزون مهامهم كما يجب. كان هوندا واحداً من هؤلاء. ولأنه تلقى تدريب الخيّالة، كان أكثرنا معرفة بالخيول، وكان يعتني بخيولنا الستة عناية استثنائية. ويبدو لنا أحياناً كأنه يفهم كل ما تشعر به الخيول. أقرّ الرقيب هامانو بقدرات العريف هوندا على الفور وتركه يتولى زمام الكثير من الأشياء دون أدنى تردد.

وهكذا، بالنسبة لمجموعة كُونت على نحو غريب، وصلنا إلى درجة عالية جداً من التفاهم المتبادل. ولأننا لم نكن وحدة نظامية تحديداً، لم نكن نحفل بالقواعد الرسمية المتعارف عليها في الجيش. كنا في غاية الإلفة مع بعضنا البعض، كما لو أن القدر جمعنا معاً. ولهذا تمكن الرقيب هامانو من إخباري صراحة بأشياء يجب ألا تتردد بين ضابط وضابط صف.

سألني ذات مرة: «قل لي أيها الملازم، ما رأيك في هذا الرفيق ياماموتو؟».

قلت: «من الخدمة السرية، ويمكنني الرهان على ذلك. كل من يتحدث المنغولية بذلك المستوى لا بد أن يكون محترفاً. كما إنه يعرف المنطقة كظاهر يده».

«هذا ما أعتقده. في البداية ظننت أنه قد يكون من أولئك الفاسدين المرتبطين بكبار الضباط، لكن لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً. فأنا أعرف أولئك الأشخاص، إنهم يثقبون أذنيك بالكلام، ويختلقون نصف ما يقولونه، ومتوترون وأصابعهم على الزناد دوماً. لكن ياماموتو هذا ليس عادياً. لديه الجرأة وهدوء الأعصاب، إنه من صفوة كبار الضباط. يمكنني أن أتعرف على أمثاله وهم على بعد ميل. سمعت شيئاً عن وحدة تكتيكية سرية من نوع ما يحاول الجيش إنشاءها مع منغوليين من القوات التي تلقت تدريباً سوفييتياً، وأحضروا عدداً من محترفينا لإدارة العملية. قد تكون له علاقة بذلك».

كان العريف هوندا يتولى الحراسة بعيداً منا قليلاً، ممسكاً ببندقيته. كنت احتفظ ببندقيتي البراونينغ قريباً مني، حيث يمكنني الوصول إليها في أية لحظة. وكان الرقيب هامانو قد خلع حذاءه وراح يدلّك قدميه.

تابع هامانو: «أنا أخمن فحسب، بطبيعة الحال. ذلك المنغولي الذي رأيناه قد يكون أحد الضباط المناوئين للسوفييت في جيشمنغوليا الخارجية، ويحاول أن يجري اتصالاً سرياً بالجيش الياباني».

قلت: «هذا وارد. لكن من الأفضل لك أن تحذر مما تقوله. سيطيحون برأسك».

«بحقك أيها الملازم. لست بذلك الغباء. هذا الحديث بيني وبينك فحسب».

غمرني بابتسامة عريضة، ثم انقلب جاداً. «لكن إن كان أيٌ من هذا صحيحاً، فإنه عمل محفوف بالمخاطر. وقد يعني الحرب».

أومأت موافقاً. يفترض أن منغوليا الخارجية دولة مستقلة عندئذٍ، لكنها في الواقع كانت أقرب لدولة تابعة في قبضة الإتحاد السوفييتي. بعبارة أخرى، لم تكن تختلف كثيراً عن منشوكو، حيث كان اليابان يمسك بزمام السلطة. مع ذلك، كانت توجد لديهم جماعة مناوئة للسوفييت، كما يعلم الجميع. ومن خلال الاتصالات السرية مع الجيش الياباني في منشوكو، تمكنوا من تنفيذ عدد من عمليات المقاومة. وكان العنصر الأساسي في تلك العمليات هم رجال الجيش المنغولي الممتعضين من استبداد الجيش السوفييتي، وعناصر من طبقة ملاك الأراضي المعارضين للإدارة المركزية للزراعة، والرهبان المنتمين إلى طائفة اللاما، الذين يفوق عددهم مئة ألف. القوة الخارجية الوحيدة التي يمكن أن تلجأ إليها تلك الجماعة المناوئة للسوفييت كانت هي الجيش الياباني المتمركز في منشوكو. ومن الواضح أنهم شعروا بأنهم أقرب لنا– نحن اليابانيين، بإعتبارنا آسيويين مثلهم– من الروس. خرجت خطط لثورة واسعة النطاق إلى العلن في العاصمة أولان باتور في العام السابق، 1937، ونُفذت عمليات تطهير واسعة. أُعدم الآلاف من الرجال العسكريين والرهبان اللاميين لاتصالهم السري بالجيش الياباني. لكن مشاعر العداء للاتحاد السوفييتي كانت ماتزال تعتمل في النفوس في مكان أو آخر. لذلك لم يكن ثمة شيء غريب في عبور ضابط مخابرات ياباني لنهر خلخا وإجراءه اتصالات سرية بضابط معادٍ للسوفييت

من جيش منغوليا الخارجية. ولمنع مثل هذه التحركات، نشر جيش منغوليا الخارجية دوريات حراسة مستمرة، وأُعلن أن الشريط الحدودي بطول عشرة إلى عشرين كيلو متراً منطقة محرمة، لكنها كانت منطقة كبيرة، ولم يتمكنوا من مراقبة كل جزء منها.

حتى إذا نجحت ثورتهم، كان من الواضح أن الجيش السوفييتي سيتدخل على الفور ويخمدها. وفي حال حدوث هذا، سيطلب الثوار المساعدة من الجيش الياباني، الذي سيمنح جيش كوانتونغ التابع لليابان ذريعة للتدخل. الاستيلاء على منغوليا الخارجية سيكون ضربة موجعة لخطط السوفييت لتنمية سيبريا. لربما تحاول القيادة الإمبراطورية في طوكيو التريث، لكن هذه لم تكن فرصة ستدعها قيادة جيش كوانتونغ الطموحة تفلت من أيديهم. لن تكون العواقب مجرد نزاع حدودي، بل حرب شاملة بين الإتحاد السوفييتي واليابان. وإذا اندلعت مثلهذه الحرب على الحدود المنشورية السوفييتية، قد يرد هتلر بغزو بولندا أو تشيكوسلوفاكيا. هذا هو الوضع الذي كان يشير إليه الرقيب هامانو فيتعليقه عن احتمالية الحرب.

أشرقت شمس الصباح التالي، ولم يعد ياماموتو. كنت آخر من تولى الحراسة. استعرت بندقية الرقيب هامانو، وجلست على كثيب رملي مرتفع نسبياً. ورحت أشاهد السماء الشرقية. كان الفجر في منغوليا شيئاً مذهلاً. في لحظةٍ ما، صار الأفق خطاً باهتاً معلقاً في الظلام، ثم ارتفع الخط للأعلى، أعلى وأعلى. كما لو أن يداً عملاقة هبطت من السماء ورفعت ستار الليل ببطء عن وجه الأرض. كان مشهداً عظيماً، فاق، كما قلت سابقاً، كل شيء بوسعي استيعابه بمقدارتي البشرية المحدودة. وأنا

جالس أشاهد، غمرني شعور بأن حياتي نفسها تتضاءل إلى لا شيء. لم يكن هناك أي أثر لكل ما له علاقة بالبشر. هذا الحدث نفسه ظل يحدث مئات ومئات ملايين مليارات المرات. قبل وقت أطول بكثير من وجود أي شيء يشبه الحياة على الأرض. نسيت أنني كنت أتولى الحراسة، وظللت أشاهد بزوغ فجر اليوم، مسحوراً.

بعدما صعدت الشمس بكاملها فوق خط الأفق، أشعلت سيجارة، وأخذت رشفة ماء من حافظتي، وتبولت. ثم فكرت باليابان. تصورت بلدتي التي ترعرعت فيها وهيفي بدايات شهر مايو. شذا الزهور، وخرير النهر، والغيوم في السماء. وأصداء من زمن غابر. وحلاوة فطيرة الأرز المنتفخة الدافئة المغلفة بورق السنديان. لست مولعاً بالحلويات عموماً، لكنني أتذكر كم كنت أرغب بشدة في فطيرة مونشي في ذلك الصباح، لتنازلت عن رواتب نصف عام من أجل واحدة عندئذٍ. وعندما فكرت باليابان، بدأت أشعر كما لو أنني ضائع في نهاية العالم. لماذا كان علينا أن نخاطر بحيواتنا من أجل هذه الأرض المجدبة التي ليس لديها أي قيمة عسكرية أو صناعية. هذه الأرض الشاسعة التي لا يعيش فيها سوى حفنة من الأعشاب والحشرات النهّاشة؟ أنا أيضاً مستعد للموت دفاعاً عن وطني. لكنني لم أقتنع إطلاقاً بأن أضحي بحياتي الوحيدة من أجل هذه الأرض النائية التي لن تخرج سنبلة حَب واحدة أبداً.

عاد ياماموتو فجر اليوم التالي.وكنت أتولى مناوبة الحراسة الأخيرة أيضاً. مولياً النهر ظهري، كنت أنظر ناحية الغرب عندما سمعت صوتاً خلفي بدا لي كصهيل

حصان، فالتفتُّ، لكنني لم أر شيئاً. حدقت إلى الناحية التي سمعت منها الصوت، وإصبعي متحفز على الزناد. ازدردت ريقي، وكان الصوت الصادر من حلقي عالياً بما يكفي لإخافتي. كانت سبابتي ترتعش على الزناد، إذ لم أطلق النار على أحدهم من قبل قط.

ومن ثم، بعد عدة ثوان، ظهر حصان يحمل ياماموتو وهو يترنح فوق كثيب رملي. مسحت المنطقة بناظريّ، وإصبعي ما يزال على الزناد، لكن لم يظهر أي أحد آخر. سواء المنغولي الذي جاء من أجله أو جنود العدو. كان قمر أبيض عملاق معلق فيالسماء الشرقية كنذير شؤم. بدت ذراع ياماموتو اليسرى كأنها أصيبت،وكان المنديل الذي لفه حولها ملطخاً بالدماء. أيقظت العريف هوندا ليعتني بالحصان الذي كان يزبد ويتنفس بصعوبة. من الواضح أنه قطع مسافة طويلة بسرعة عالية. تولى هامانو الحراسة مكاني. وأحضرت أدوات الإسعافات الأولية لمعالجة جرح ياماموتو. قال ياماموتو: «اخترقتني الرصاصة، وتوقف النزيف». كان محقاً، لم تصب الرصاصة العظم وخرجت من الناحية الأخرى، ولم تمزق سوى اللحم في طريقها. أزلت المنديل، وعقّمت فتحتي الجرح بالكحول. وربطت حولهما ضمادة جديدة. لم يجفل طيلة الوقت، مع أن طبقة رقيقة من العرق تجمعت على شفته العليا. أخذ جرعات كبيرة من حافظة الماء، وأشعل سيجارة، وراح يعبّ الدخان بارتياح بادٍ. ثم أخرج مسدسه البراونينغ، وثبته تحت ذراعه، ولقمه مستخدماً يداً واحدة ببراعة. وقال: «سنغادر هذا المكان على الفور أيها الملازم ماميا. سنعبر النهر ونقصد نقطة مراقبة

جيش منشوكو. فككنا المعسكر سريعاً، دون أن نتبادل أي كلمات تقريباً، وامتطينا خيولنا واتجهنا صوب المخاضة. لم أسأل ياماموتو عن كيفية إصابته ولا من أصابه. لم أكن في موضع يسمح لي بذلك، وحتى إذا كنت، ما كان ليخبرني على الأرجح. كل ما كان يهمني عندئذٍ هو الابتعاد عن أرض العدو بأسرع ما يمكن، وعبور نهر خلخا، والوصول إلى الضفة الأخرى الآمنة نسبياً.

كنا نسير ببطء، ونحث خيولنا عبر الأرض المعشوشبة. لم يتحدث أي أحد. وكنا جميعاً نفكر بالأمر نفسه. *هل يمكننا عبور ذلك النهر؟* إذا وصلت دورية تابعة لجيش منغوليا الخارجية إلى الجسر قبلنا، فستكون نهايتنا. كان من المستحيل أن نتغلب عليهم في قتال. مازلت أتذكر العرق الذي كان يتصبب تحت ذراعي، ولم يجف لحظة. سألني ياماموتو بعد صمت طويل من على حصانه: «قل لي، أيها الملازم ماميا، هل سبق وتعرضت لإطلاق نار؟».

أجبت: «لا، مطلقاً».

«هل أطلقت النار على أحدهم؟»

«لا».

لم تكن لدي فكرة عن الانطباع الذي تركته إجاباتي لديه. كما لم أعرف الغرض من توجيه تلك الأسئلة.

«تحتوي هذه على وثيقة يجب أن تصل إلى الرئاسة»، قال وهو يضع يده على الخرْج المعلق على جانب الحصان، «وإذا تعذّر توصيلها، فيجب أن تُتلف، أو تُحرق، أو تُدفن، لا يهم. لكن يجب ألا تسمح، تحت أي ظرف، بوقوعها في أيدي الأعداء. تحت أي ظرف. هذه هي أولويتنا القصوى. أريد أن أتأكد أنك فهمت هذا. الأمر مهم للغاية».

«فهمت».

نظر ياماموتو إلى عيني وقال: «إذا ساء الوضع، فأول ما عليك فعله هو أن تطلق عليّ النار، دون تردد. إن كان ذلك بمقدوري لفعلتها. لكن مع حالة ذراعي هذه، قد لا أتمكن من ذلك. في هذه الحالة، عليك أن تُرْديني. وتأكد من إصابتي في مقتل».

أومأت بصمت.

*

عندما بلغنا المخاضة، قبيل الفجر، وجدنا أن ما كنا نخشاه طوال الوقت قد تحقق. كانت مفرزة صغيرةمن جنود منغوليا الخارجية تتمركز هناك. تسلقت وياماموتو أحد الكثبان العالية، وتناوبنا على النظر من خلال المنظار. كانوا ثمانية رجال. ليس بالعدد الكبير، لكنهم كانوا مدججين بالسلاح أكثر من دورية حدود عادية. يحمل أحدهم رشاشاً خفيفاً، ولديهم رشاش كبير على مكان مرتفع،ومحاط

بأكياس الرمل ومصوب ناحية النهر. من الواضح أنهم تمركزوا هناك للحيلولة دون عبورنا إلى الضفة الأخرى. نصبوا خيامهم بالقرب من النهر، وخيولهم على مقربة منهم. بدا لنا أنهم يخططون للبقاء هناك حتى يلقوا القبض علينا. سألته: «ألا توجد مخاضة أخرى يمكننا استخدامها؟»

أبعد ياماموتو المنظار عن عينيه ونظر إليّ وهو يهز رأسه: «توجد واحدة، لكنها على بعد مسيرة يومين على ظهور الخيول. ليس أمامنا وقت طويل. كل ما يمكننا فعله هو العبور من هنا، مهما كلفنا الأمر».

«أتعني أننا سنخوض النهر الليلة؟»

«صحيح. إنه السبيل الوحيد أمامنا. علينا أن نترك الخيول هنا. سنقتل الحارس، وسيكون الباقون نائمين على الأرجح. لا تقلق، سيحجب النهر معظم الأصوات. سوف أتولى أمر الحارس. ليس ثمة ما نفعله حتى ذلك الوقت، لذلك علينا أن ننام قليلاً، وننال قسطاً من الراحة، بينما لا تزال لدينا الفرصة».

قررنا بدء العملية عند الثالثة فجراً. أنزل العريف هوندا جميع الحمولات عن الخيول، وقادها إلى منطقة بعيدة، وأطلقسراحها. ثم حفرنا حفرة عميقة ودفنا فيها الذخيرة والطعام الفائض. لم يحمل أي منا سوى حافظة ماء، وحصة طعام تكفي يوماً، ومسدس، وبضع رصاصات. إذا ألقوا القبض علينا، بأسلحتهم المتفوقة، لن نتمكن من التغلب عليهم، مهما كانت كمية الذخيرة التي بحوزتنا. كان علينا أن ننام

ما أمكننا، لأننا إذا نجحنا في عبور النهر، فلن تكون لدينا فرصة للنوم لوقت طويل. تولى العريف هوندا مناوبة الحراسة الأولى، وبعده الرقيب هامانو.

استغرق ياماموتو في النوم على الفور، متمدداً في الخيمة. من الواضح أنه لم يتمكن من النوم طوال فترة غيابه. وإلى جانب وسادته، تقبع الحقيبة الجلدية، التيوضع بداخلها الوثيقة المهمة. ونام هامانو بعده بوقت قصير.

كنا مرهقين جميعاً، لكنني لم أتمكن من النوم بسبب التوتر. ظللت مستلقياً فترة طويلة، متوسلاً إلى النوم ليقبلني في ملكوته، لكن مشاهد قتلنا الحارس والتعرض لوابل من رصاص الرشاش ونحن نخوض النهر أبقتني مستيقظاً. كانت راحتا يدي تتصببان عرقاً، وصدغاي ينبضان. لم أكن واثقاً من أنني، عندما يحين الوقت، سأتصرّف كما ينبغي لضابط. زحفت إلى خارج الخيمة وجلست إلى جانب العريف هوندا. قلت: «أتعرف يا هوندا، ربما سنموت هنا».

أجاب: «يصعب الجزم».

لم يقل أي منا شيئاً بعض الوقت. لكن ثمة شيء أزعجني في إجابته، وَشَت نبرة صوته بشيء من عدم اليقين. لم يكن الحدس من مواطن قوتي قط، لكنني علمت أن تعليقه الغامض قصد من ورائه إخفاء شيء ما. فقررت سؤاله عنه.

«إن كان لديك ما تخبرني به، فلا تحجبه عني. قد تكون هذه هي المرة الأخيرة التي نتحدث فيها. لذا قل ما لديك».

حرك هوندا قدميه على الرمل وهو يعض شفته السفلى. علمت أنه كان يصارع مشاعر متناقضة. قال بعد مرور بعض الوقت، وهو ينظر إلى عيني مباشرة: «أيها الملازم، من بيننا نحن الأربعة هنا، ستكون أطولنا عمراً. أطول بكثير مما تتخيله أنت نفسك. وسوف تموت في اليابان».

حان دوري لأحدق إليه.

أردف: «قد تتساءل عن كيفية معرفتي لذلك، لكن هذا أمر أنا نفسي غير قادر على تفسيره. أعرف فحسب».

«هل أنت وسيط روحي أو ما شابه؟»

«ربما. مع أن المصطلح لا يناسب تماماً ما أشعر به. الأمر أكبر من ذلك بكثير. كما قلت لك، أعرف فحسب. هذا كل ما في الأمر».

«هل كانت لديك هذه القدرة على الدوام؟»

قال بثقة: «على الدوام، إلا أنني أبقيتها طي الكتمان منذ أن كنت كبيراً بما يكفي لأدرك ما كان يحدث. لكن هذه مسألة حياة أو موت أيها الملازم، وأنت من يسألني، لذلك إنني أقول لك الحقيقة».

«وماذا عن الآخرين؟ أتعرف ما سيحدث لهم؟»

هز رأسه: «أعرف أشياء، وأشياء لا أعرفها. لكن من الأفضل لك، على الأرجح، ألّا تعرف أيها الملازم. ربما من الوقاحة أن يقول شخص مثلي مثل هذه الأشياء التي تبدو كبيرة لخريج جامعي مثلك، لكن قدَر الشخص هو شيء تنظر إليه بعد أن يمضي، وليس شيئاً تراه مقدماً. لدي خبرة كافية، ليست لديك، فيما يتعلق بمثل هذه الأشياء».

«لكن على أي حال، أتقول إنني لن أموت هنا؟»

أخذ حفنة من الرمل وتركها تتسرب بين أصابعه. «يمكنني قول هذا أيها الملازم، لن تموت هنا بعيداً عن اليابان».

أردت أن أواصل الحديث في هذا، لكن العريف هوندا رفض أن يفصح عن المزيد. بدا مستغرقاً في أفكاره أو تأملاته. وظل يحدق إلى البراري الشاسعة ممسكاً ببندقيته. وبدا لي أنه لم يكن يسمع شيئاً مما كنت أقوله.

عدت إلى خيمتنا المنخفضة الرابضة خلف كثيب رملي. واضجعت إلى جانب الرقيب هامانو، وأغمضت عيني. وهذه المرة رحت في سبات عميق».

13

قصة الملازم ماميّا الطويلة

الجزء الثاني

*

أيقظني الصوت المعدني لصمام أمان بندقية. لا يمكن لأي جندي في معركة أن يخطئ ذلك الصوت، حتى إذا كان غارقاً في نوم عميق. إنه... – كيف يمكنني قول هذا؟– صوت مميز، بارد وثقيل كالموت نفسه. مددت يدي غريزياً لمسدس البراونينغ الذي بجانب وسادتي. لكن عندها هوى حذاء على صدغي، وأصابتني الضربة بالعمى للحظة. وبعدما استعدت السيطرة على تنفسي، فتحت عيني بالقدر الذي يسمح لي برؤية الرجل الذي لا بد أنه ركلني. كان جاثياً ليحمل مسدسي. رفعت رأسي ببطء، لأجد فوهتي بندقيتين مصوبتين إلى وجهي، وخلف البندقيتين يقف جنديان منغوليان.

كنت متأكداً من أنني نمت بداخل خيمة، لكن الخيمة اختفت، وتلتمع فوقنا النجوم التي ملأت السماء. وكان جندي منغولي آخر يصوب رشاشاً خفيفاً إلى رأس ياماموتو الذي كان مستلقياً بجانبي، في سكون تام، كما لو أنه يوفر طاقته لأنه

يدرك عدم جدوى المقاومة. كان جميع الجنود المنغوليين يرتدون معاطف طويلة وخوذات عسكرية. اثنان منهم كانا يصوبان مصباحين ضخمين عليَّ وعلى ياماموتو. لم أتمكن من استيعاب ما حدث في بادئ الأمر. فقد كنت نائماً نوماً عميقاً وكانت الصدمة قوية. لكن منظر الجنود المنغوليين والتعابير التي ارتسمت على وجه ياماموتو لم تترك لديَّ شكاً. أُكتُشفت خيامنا قبل أن تتاح لنا فرصة خوض النهر.

ثم خطر لي أن أتساءل عما حلَّ بهوندا وهامانو. أدرت رأسي ببطء شديد، محاولاً النظر فيما حولي، لكن لم يكن أي من الرجلين هناك. إما أنهما قُتلا مسبقاً، أو تمكنا من الفرار.

لا بد أن هؤلاء هم الذين رأيناهم عند المنطقة الضحلة سابقاً. كانوا قليلين ومدججين برشاش صغير وبنادق. وكان قائدهم ضابط صف قوي البنية، وهو الوحيد بين المجموعة الذي كان ينتعل حذاءً عسكرياً لائقاً. وهو الذي ركلني. انحنى والتقط الحقيبة الجلدية التي كان ياماموتو يضعها جوار رأسه. فتحها ونظر بداخلها، ثم قلبها وهزّها. كل ما سقط على الأرض كان علبة سجائر. لم أستطع تصديق ذلك. رأيت ياماموتو بأم عينيّ وهو يضع الوثيقة بداخل الحقيبة. أخرجها من الخُرْج، وأدخلها في حقيبته، ووضع الحقيبة بجانب وسادته. جاهد ياماموتو ليحافظ على هدوءه، لكنني رأيت تعابيره تتغير. من الواضح أنه لم تكن لديه فكرة عما حدث للوثيقة. لكن أياً كان

التفسير، لا بد أن اختفاءها أراحه كثيراً. كما قال لي سابقاً، إن أهم أولوياتنا هو الحرص على ألا تقع الوثيقة في أيدي الأعداء.

بعثر الجنود جميع أغراضنا على الأرض وتفحصوها بعناية، لكنهم لم يجدوا شيئاً مهماً، بعد ذلك جرّدونا من ملابسنا وفتّشوا جيوبنا. ومزقوا ملابسنا ولفافاتنا، لكنهم لم يجدوا أي وثيقة. أخذوا سجائرنا وأقلامنا ومحافظنا ودفاترنا وساعاتنا، ووضعوها في جيوبهم. ثم تناوبوا علىتجريب أحذيتنا، وأخذ كل منهم ما يناسبه. احتد النقاش بين الرجال بشأن الغنائم، لكن ضابط الصف تجاهلهم. أفترض أن المنغوليين معتادون على أخذ الغنائم من أسرى الحرب وموتى أعدائهم. لم يأخذ ضابط الصف سوى ساعة ياماموتو، تاركاً بقية الأشياء لرجاله ليتقاتلوا عليها. وُضعت بقية معداتنا–المسدسات، والذخيرة، والخرائط، والبوصلات والمنظار– في حقيبة قماشية، بلاشك لإرسالها إلى الرئاسة في أولان باتور.

ثم قيدّونا، عراة، بحبل قوي رفيع. تنبعث من الجنود المنغوليين رائحة أشبه برائحة إسطبل لم يُنظف منذ فترة طويلة. أزياؤهم مهترئة وقذرة ببقع الوحل والغبار والطعام لدرجة تستحيل معها معرفة ألوانها الأصلية. وكانت أحذيتهم مليئة بالثقوب وتتساقط عن أقدامهم، حرفياً. لا عجب أنهم أرادوا أحذيتنا. كانت وجوههم وحشية وأسنانهم قذرة، وشعرهم طويل أشعث. وبدوا أقرب لقطاع الطرق من كونهم جنوداً، لكن أسلحتهم سوفييتة الصنع وشارات النجوم تشير إلى أنهم جنود نظاميين تابعيين لجمهورية منغوليا الشعبية. وبحسب معرفتي، بطبيعة الحال، بدا لي أن انضباطهم

كوحدة قتالية وذكاءهم العسكري كان متواضعاً. يصلح المنغوليون كجنود أشداء قادرين على التحمل، لكنهم غير ملائمين لحرب جماعية حديثة.

كانت الليلة في غاية البرودة. وأنا أشاهد السحب البيضاء الصغيرة لأنفاس الجنود المنغوليين تظهر وتتلاشى في الظلام، شعرت كما لو أن خطأً ما نقلني إلى مشهد في كابوس شخص آخر. لم يكن بمستطاعي استيعاب أن هذا كان يحدث بالفعل. لقد كان كابوساً بالفعل، لكنني لم أدرك إلا لاحقاً أنه كان مجرد بداية لكابوس بأبعاد هائلة.

بعد ذلك بوقت قصير، ظهر أحد الجنود المنغوليين من الظلام، وهو يسحب شيئاً ثقيلاً. ألقى بالشيء على الأرض إلى جانبنا وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيه. كانت جثة هامانو. وكان حافي القدمين. لا بد أن أحدهم انتزع حذاءه مسبقاً. وشرعوا في نزع ملابسه، وتفحصوا كل ما وجدوه في جيوبه. امتدت الأيدي إلى ساعته، ومحفظته، وسجائره. اقتسموا السجائر وراحوا يدخنوها وهم يبحثون في محفظته. أسفر بحثهم عن بعض عملات ورقية من منشوكو وصورة لامرأة كانت والدة هامانو على الأرجح. قال الضابط المسؤول شيئاً وأخذ النقود وألقى بالصورة على الأرض.

لا بد أن أحد الجنود المنغوليين تسلل خلف هامانو ونحره عندما كان يقف حارساً. فعلوا بنا ما كنا نخطط لفعله بهم. كان دم أحمر قان يتدفق من الجرح

الغائر، لكنه لم يكن كثيراً بالنسبة لمثل ذلك الجرح. لا بد أنه فقد معظمه بحلول ذلك الوقت. أخرج أحد الجنود مدية من غمد في حزامه. شفرتها المقوسة بطول قرابة ست بوصات، ولوّح بها أمام وجهي. لم أر مدية بذلك الشكل الغريب من قبل قط. بدت لي مصممة لغرض خاص. أتى الجندي بحركة قطع الحلق بالمدية، وأخذ يصفِّر من خلال أسنانه. ضحك بعض الجنود الآخرين. لم تكن المدية ضمن الأسلحة التي منحها لهم الجيش، إنما بدت خاصة بالرجل. كل واحد منهم كان لديه حربة طويلة معلقة بخصره، لكن هذا الرجل لم يكن يحمل سوى مدية مقوسة، ومن الواضح أنه استخدمها لنحر هامانو. وبعد عدة حركات رشيقة ماهرة بالمدية، أعادها إلى الغمد.

دون أن ينبس بكلمة، ودون أن يحرك سوى عينيه، أرسل ياماموتو نظرة خاطفة ناحيتي. لم تدم سوى لحظة قصيرة، لكنني أدركت على الفور ما كان يحاول قوله: أتعتقد أن العريف هوندا نجح في الهروب؟ وكنت أفكر في الأمر نفسه في خضم كل ذلك الرعب والارتباك.

تُرى أين هو العريف هوندا؟ إذا أفلت هوندا من هجوم جنود منغوليا الخارجية المباغت، فقد تكون لدينا فرصة، فرصة ضئيلة ربما. والسؤال عما قد يفعله هوندا لم يكن يبعث على الأمل، لكن فرصة ما أفضل من لا شيء. أبقونا مقيدين وممدين على الرمال طوال الليل. ومعنا جنديان لمراقبتنا، أحدهم يحمل الرشاش الخفيف والآخر معه بندقية. وجلس الباقون على مبعدة منا، يدخنون ويتحدثون ويضحكون، ويبدون مسترخين، بما أنهم ألقوا القبض علينا. لم أتفوه بكلمة، وكذلك ياماموتو. تهبط

درجة الحرارة عند الفجر إلى درجة منخفضة للغاية، حتى في مايو. اعتقدت أننا قد نتجمد حتى الموت، ونحن مستلقين هناك عراة. لكن البرد نفسه لم يكن شيئاً مقارنةً بالرعب الذي أمسك بتلابيبي. لم تكن لدي أدنى فكرة عما نحن مقبلون عليه. كان أولئك الرجال مجرد دورية حدودية، وعلى الأرجح ليست لديهم السلطة ليقرروا مصيرنا. وعليهم انتظار الأوامر. وهو ما يعني أننا لن نُقتل على الفور. ولكن ما سيحدث بعدها، لم تكن ثمة طريقة لمعرفته. كان ياماموتو جاسوساً بلا شك، وقد علقت معه. لذلك من الطبيعي أن يُنظر إليَّ كشريك له. مهما يكن، لن نفلت بسهولة.

بعد شروق الشمس بقليل، تناهى إلى مسامعنا صوت طائرة بعيدة. وأخيراً، دخل بدن الطائرة الفضي مجال رؤيتنا. كانت طائرة استطلاع سوفييتية الصنع، عليها شارة منغوليا الخارجية. دارت الطائرة فوقنا بضع مرات. ولوّح لها جميع الجنود، فخفضت أجنحتها، ثم هبطت في منطقة مفتوحة قريبة، مثيرةً زوبعة من الرمال. كانت الأرض صلبة في ذلك المكان، ولا توجد بها عوائق. الأمر الذي سهل الإقلاع والهبوط دون مدرج. بدا لي أنهم استخدموا المنطقة نفسها لهذا الغرض عدة مرات. امتطى أحد الجنود حصاناً، وانطلق ناحية الطائرة وهو يسحب معه حصانين.

عندما عادوا، كان الحصانان يحملان رجلين بدا أنهما ضابطين برتب رفيعة. أحدهم روسي، والآخر منغولي. افترضت أن الدورية أرسلت رسالة باللاسلكي بشأن إلقاء القبض علينا، وأن الضابطين قدِما من أولان باتور لاستجوابنا. كانا ضابطا

مخابرات، بلاشك. سمعت أن الشرطة السرية المنغولية كانت تعمل خلف الكواليس في عمليات التطهير والاعتقالات الواسعة للناشطين المعارضين للحكومة في العام السابق.

كان كلا الضابطين يرتديان أزياء نظيفة وحليقي الذقن. يرتدي الروسي معطفاً طويلاً به حزام، ويلتمع حذاءه العسكري. كان رجلاً نحيلاً، لكنه ليس طويلاً جداً بالنسبة لروسي، وفي أوائل الثلاثينات على الأرجح. ولديه جبهة عريضة وأنف دقيق، وبشرته تكاد تكون بلون زهري شاحب، ويضع نظارة بإطار رفيع. لكن إجمالاً، لا يترك وجهه أي انطباع يُذكر. وبدا الضابط المنغولي القصير الممتلئ داكن البشرة، واقفاً إلى جواره، كدب صغير.

انتحى المنغولي بضابط الصف جانباً، وتحدث ثلاثتهم بعض الوقت. خمنت أن الضابطين كانا يطلبان منه تقريراً مفصلاً. جلب ضابط الصف كيساً يحتوي على الأشياء التي وجدوها معنا وعرضها على الآخرين. تفحص الروسي كل شيء بعناية فائقة، ثم أعادها إلى الكيس. وقال شيئاً للمنغولي، الذي بدوره تحدث إلى ضابط الصف. ثم أخرج الروسي علبة سجائر من جيب صدره وفتحها وقربها من الاثنين الآخرين. استمروا في الحديث والتدخين معاً. كان الروسي يضرب راحة يده اليسرى بقبضته اليمني أثناء حديثه، وبدا منزعجاً بعض الشيء. أبقى الضابط المنغولي ذراعيه معقودتين ووجهه متجهماً، بينما كان ضابط الصف يهز رأسه من حين لآخر.

وأخيراً اقترب الضابط الروسي، بخطوات متئدة، إلى حيث كنا ممددين على الأرض. وسألنا بالروسية: «أتريدان سجائر؟». كما قلت سابقاً، درست الروسية في الجامعة، ويمكنني إجراء حوار على نحو جيد. لكنني تظاهرت بعدم الفهم لأتجنب أي متاعب. «لا، شكراً». قال ياماموتو بالروسية. كان بارعاً. فقال ضابط الجيش السوفييتي: «ممتاز. ستسير الأمور على نحو أسرع إذا تحدثنا بالروسية».

نزع قفازيه ووضعهما في جيب معطفه، فالتمع خاتم ذهبي في يده اليسرى. وتابع: «كما تدرك بلا شك، نحن نبحث عن شيء معين. ونريده بشدة. ونعلم أنه بحوزتك. لا تسألني كيف نعرف ذلك، نعرف فحسب. لكنك لا تحمله معك الآن. مما يعني، منطقياً، أنك خبأته قبل أن يلقى القبض عليكم. ولم ترسله عبر النهر.إذ لم يعبر أحدٌ منكم. لذا لا بد أن الرسالة موجودة على هذه الضفة، مخبأة في مكان ما. هل فهمت ما قلته لك حتى الآن؟»

أومأ ياماموتو وقال: «فهمت. لكننا لا نعرف شيئاً عن أي رسالة». فقال الروسي، دون أن تتغير تعابيره:«حسناً، في هذه الحالة، لدي سؤال بسيط. ما الذي تفعلونه هنا؟ فكما تعرف، هذه المنطقة تتبع لجمهورية منغوليا الشعبية. ماذا كان غرضكم من دخول أرض ليست بأرضكم؟ أريد أن أسمع سببك».

أوضح ياماموتو: «رسم الخرائط. أنا موظف مدني بشركة تعمل في مجال رسم الخرائط، وهذا الرجل والذي قتلوه كانا معي لحمايتي. كنا نعلم أن هذا الجانب من

النهر تابع لكم. ونحن آسفون لعبور الحدود. لكننا لم نتعمد انتهاك الحدود. أردنا أن نعاين طبوغرافيا المنطقة من المكان المرتفع الذي توفره الهضبة على هذا الجانب».

دون أن يجد شيئاً من ذلك طريفاً. رسم الضابط الروسي ابتسامة على شفتيه وقال ببطء: «نحن آسفون؟ نعم، بالطبع. أردتَ أن تعاين طبوغرافيا المنطقة من الهضبة. نعم. بالطبع. المنظر دائماً ما يكون أفضل من الأرض المرتفعة. الأمر منطقي تماماً».

لم يقل شيئاً بعض الوقت، وحدق إلى الغيوم في السماء، ثم حول ناظريه إلى ياماموتو، وهز رأسه ببطء. ثم تنهّد.

«ليتني أستطيع تصديق ما تقوله لي! لكان ذلك أفضل لنا جميعاً. ليتني أستطيع أن أربّت على كتفك وأقول، نعم، نعم، فهمت. الآن عد بسرعة إلى ديارك، وكن أكثر حذراً في المستقبل. أتمنى حقاً لو كان بمقدوري فعل هذا. لكن لسوء الحظ، لا يمكنني. لأنني أعرف من أنت، وأعرف ما تفعله هنا. لدينا أصدقاء في هيلار تماماً كما لديكم أصدقاء في أولان باتور».

أخرج قفازيه من جيبه، وأعاد طيّهما، وأعادهما. «صدقاً، ليس لدي اهتمام شخصي بإيذائك أو قتلك. وإذا أعطيتني الرسالة ببساطة، فلن يكون لي غرض معك. سيطلق سراحك من هذا المكان على الفور، بضمانتي. ويمكنك أن تعبر النهر وتعود

إلى ديارك. أعدك بذلك، بشرفي. كل ما حدث هنا سيكون مسألة داخلية خاصة بنا، وليس لك علاقة بالامر».

بدأ ضوء الشمس يدفئ جلدي أخيراً. لم تكن ثمة رياح. وبضع غيوم تسبح في السماء. أعقب ذلك صمت طويل. لم يتفوه أي أحد بكلمة. الضابط الروسي، والضابط المغولي، ورجال الدورية، وياماموتو. جميعهم احتفظوا بهالة الصمت التي تسربلهم. بدا ياماموتو متصالحاً مع احتمالية الموت منذ لحظة القبض علينا. ولم يظهر على وجهه أي تعبير.

«كلاكما.. ستموتان.. هنا.. هذا مما لا شك فيه». استأنف الروسي حديثه، متوقفاً بين العبارات، كأنه يتحدث إلى أطفال. «وستكون ميتة فظيعة. إنهم..»، وهنا ألقى الروسي نظرة خاطفة ناحية الجنود المنغوليين، فنظر إليَّ الضخم الذي يحمل الرشاش، وابتسم بأسنان ناتئة قذرة . «إنهم يحبون قتل الناس بطرق فيها الكثير من الصعوبة وتتطلب إعمال الخيال. إنهم، هل لنا أن نقول، *شغوفون بالقتل*. منذ أيام جنكيز خان، يستمتع المنغوليون بابتكار طرق وحشية لقتل الناس. ونحن، الروس، ندرك هذا تماماً، واختبرناه بأنفسنا اختباراً مؤلماً. إنه جزء من دروس التاريخ في مدارسنا. نحن ندرس ما فعله المنغوليون عندما غزوا روسيا. قتلوا الملايين، دون أي سبب إطلاقاً. ألقوا القبض على مئات الروس الأستقراطيين في كييف، وقتلوهم جميعاً معاً. أتعرف هذه القصة؟ قطعوا ألواح خشبية سميكة ومددوا الروس تحتها، وأقاموا مأدبة فوق الألواح وسحقوهم تحت ثقلهم حتى الموت. لا يفكر البشر العاديين في

شيء كهذا، ألا تتفق معي؟ استغرق ذلك وقتاً وتجهيزات معقدة. من قد يتجشم كل هذ العناء؟ لكنهم تجشموه. ولماذا؟ لأن ذلك إحدي وسائل الترفيه بالنسبة لهم. وما زالوا يستمتعون بفعل أشياء كهذه. رأيت بنفسي ما يفعلوه ذات مرة. كنت أعتقد أنني رأيت بعض الأشياء الفظيعة في حياتي. لكن تلك الليلة، كما يمكنك أن تتخيل، فقدت شهيتي. أتفهم ما أقوله لك؟ هل أتحدث بسرعة؟»

هزّ ياماموتو رأسه.

«ممتاز». قال الروسي، وتوقف وتنحنح. «ستكون هذه هي المرة الثانية بالنسبة لي، بالطبع. ربما تعود شهيتي بحلول وقت العشاء. لكنني أود تجنب القتل الذي لا داعي له ما استطعت إلى ذلك سبيلاً».

رنا ببصره إلى السماء بعض الوقت، مشبكاً يديه خلف ظهره. ثم أخرج قفازيه، وألقى نظرة صوب الطائرة. وقال: «طقس جميل. إنه الربيع، مايزال بارداً قليلاً، لكنه مناسب تماماً. إذا ارتفعت درجة الحرارة قليلاً، فسينتشر البعوض. بعوض رهيب. أجل. الربيع أفضل من الصيف بكثير». أخرج علبة سجائره ثانيةً، ووضع واحدة بين شفتيه، وأشعلها بعود ثقاب. جذب الدخان إلى رئتيه ببطء، ونفثه بتمهل. «سأسألك مرة واحدة بعد. هل تصرّ أنك حقاً لا تعرف شيئاً عن الرسالة؟»

أجاب ياماموتو بكلمة واحدة: «nyet».

«حسناً، حسناً». ثم قال شيئاً بالمنغولية للضابط المنغولي. أومأ الرجل وزمجر بأمرٍ ما للجنود. جلبوا بعضاً من قطع الأخشاب القاسية، وبدأوا يشذبونها بحرابهم. وحولوها بسرعة إلى أربعة أوتاد. وثبتوها في الأرض على شكل مربع. استغرقت كل هذه الإعدادات قرابة عشرين دقيقة. خمنت، لكن لم تكن لدي أدني فكرة عن الغرض منها.

قال الروسي: «بالنسبة لهم، المجزرة الممتازة مثل الوجبة الممتازة، كلما استغرقت التجهيزات وقتاً أطول، ازدادت المتعة التي يجنونها. مجرد قتل رجل ليس مشكلة، رصاصة واحدة وينتهي كل شيء. لكنه لن يكون...»، وهنا مرر أصابعه ببطء على ذقنه الناعم. «مشوقاً جداً».

حلوا وثاق ياماموتو وقادوه إلى الأوتاد. ثم قيدوا ذراعيه وساقيه إلى الأوتاد الأربعة. وتركوه ممداً على الأرض، عارياً تماماً، تغطيه عدة جروح.

تابع الروسي: «هؤلاء القوم رعاة، كما تعرف. ويستخدم الرعاة خِرافهم بعدة طرق. يأكلون لحومها، ويجزّون صوفها، ويأخذون جلودها. بالنسبة لهم، الخراف هي الحيوانات المثالية. يقضون معظم أيامهم مع الخراف، بل حيواتهم بأكملها. يعرفون كيف يسلخونها بمهارة مذهلة. ويستخدمون الجلود في خيامهم وملابسهم. هل رأيتهم يسلخون خروفاً من قبل؟»

قال ياماموتو: «اقتلني وانته من الأمر».

ضم الروسي راحتي يديه وأومأ لياماموتو وهو يفركهما ببطء، وقال: «لا تقلق. ستموت لا محالة، أضمن لك ذلك. قد يستغرق موتك بعض الوقت، لكنك ستموت. ليس ثمة ما تقلق بشأنه من هذه الناحية. لسنا في عجلة من أمرنا. ها نحن ذا، في هذه البرية المترامية الأطراف، حيث لا يمكنك رؤية شيء على مد بصرك. وليس لدينا سوى الوقت. كل الوقت الذي نحتاج إليه. وأود أن أقول لك بعض الأشياء. الآن، بالنسبة لعملية السلخ، كل مجموعة لديها محترف متخصص، واحد على الأقل، يعرف كل ما يمكن معرفته عن إزالة الجلد. رجل بمهارة إعجازية. يُعتبر سلخه عمل فني. ويقوم بعمله في لمح البصر، بسرعة وبراعة تجعلانك تعتقد أن المخلوق الذي يُسلخ حياً لا يلاحظ ما يحدث. لكن بطبيعة الحال...» أخرج علبة السجائر من جيب صدره مجدداً، ونقلها إلى يده اليسرى، ونقر عليها بأصابع يمناه. «...عدم ملاحظة شيء كهذا أمر مستبعد تماماً. يختبر الذي يتعرض للسلخ ألماً فظيعاً، لا يمكن تخيله. ويستغرق وقتاً طويلاً للغاية حتى يموت. النزيف الحاد هو ما يقتله في نهاية المطاف. لكن ذلك يستغرق وقتاً».

فرقع أصابعه، فتقدمالضابط المنغولي. وأخرج مدية في غمد من جيب معطفه. كانت شبيهة بتلك التي استخدمها الجندي الذي قام بحركة النحر. استلَّ المدية من غمدها ورفعها عالياً فالتمعت بضوء أبيض خافت.

قال الضابط الروسي: «هذا الرجل هو أحد المحترفين الذين تحدثت عنهم. أريدك أن تنظر إلى مديته. انظر بتمعن، إنها مدية فريدة من نوعها. مصممة خصيصاً

للسلخ. ومصنوعة ببراعة استثنائية. شفرتها رفيعة وحادة كالموسى. هذا العمل يتطلب مهارة تقنية عالية للغاية. وقد ظلوا يسلخون الحيوانات منذ آلاف السنين. ويمكنهم سلخ جلد رجل كما تزيل قشرة خوخ. بشكل جميل، ودون خدش واحد. هل أتحدث بسرعة؟».

لم يقل ياماموتو شيئاً.

«إنهم يسلخون كل منطقة على حدة. عليهم أن يعملوا بروية إذا أرادوا إزالة الجلد كما ينبغي. في هذه الأثناء، إذا رغبت في قول شيء ما، أخبرني من فضلك. عندها لن تموت. رجلنا هذا قام بهذا العمل عدة مرات. ولم يفشل مرة واحدة في حمل الشخص على الكلام. ضع هذا في اعتبارك. إذا توقفنا سريعاً، فسيكون ذلك أفضل لنا جميعاً».

نظر الضابط المنغولي الشبيه بالدب إلى ياماموتو، ممسكاً بمديته، وابتسم ابتسامه واسعة. أتذكر تلك الابتسامة إلى يومنا هذا. وأراها في أحلامي، ولم أتمكن من نسيانها قط. ثم شرع في العمل بعد ابتسامته على الفور. ثبّت رجاله ياماموتو بأيديهم ورُكبهم، وهو يسلخ جلد ياماموتو بعناية فائقة. كان العمل بالفعل مثل إزالة قشرة خوخ. لم أتحمل المنظر. وعندما أغمضت عينيّ، انهال أحد الجنود عليّ ضرباً بعقب بندقيته، وظل يضربني حتى فتحت عيني. لكن ذلك لم يكن يهم كثيراً. فسواء كانت عيناي مغمضتين أو مفتوحتين، كنت أسمع صوت ياماموتو الذي تحمل الألم

دون أنين في بادئ الأمر، لكنه سرعان ما بدأ الصراخ. لم أسمع صرخات مثل تلك من قبل قط، وبدت كأنها ليست من هذا العالم.

بدأ الرجل بشق كتف ياماموتو، وشرع في سلخ جلد ذراع ياماموتو اليمنى من الأعلى للأسفل، بروية وحرص، كما لوكان يفعل ذلك بحُب. فكما قال الضابط الروسي، كان عملاً أشبه بالفن. وما كان المرء ليتخيل وجود أي ألم، لولا الصراخ، الذي أسفر عن مدى فظاعة الألم المصاحب للعملية.

قبل مضي وقت طويل، خرج جلد ذراع ياماموتو اليمنى قطعة واحدة. أعطاه السالخ إلى الرجل الذي يقف إلى جواره. الذي أمسك به ناشراً إياه بأطراف أصابعه وتحرك به بين الآخرين ليلقوا عليه نظرة من كثب، والدم يتقطر من الجلد طوال الوقت. ثم انتقل الضابط إلى ذراع يامامتو اليسرى وكرر العملية نفسها. بعد ذلك سلخ ساقيه، وقطع قضيبه، وخصيتيه، وأذنيه. ثم سلخ الرأس، والوجه، وكل شيء. فقد ياماموتو الوعي، ثم استعاده، وفقده ثانية. يتوقف الصراخ عندما يغمى عليه، ويتواصل عندما يفيق.

لكن الوهن أصاب صوته تدريجياً، وصمت تماماً في النهاية. طوال هذا الوقت، كان الضابط الروسي يرسم أشكالاً عبثية بكعب حذائه على الأرض. شاهد الجنود المنغوليين العملية بصمت. وظلت وجوههم بلا تعابير. لم يظهروا أي تقزز أو

حماسة. شاهدوا جلد ياماموتو يُسلخ قطعة تلو الأخرى بنفس التعابير التي ترتسم على وجوهنا عندما نكون سائرين في نزهة ونقف لنشاهد موقع بناء.

في تلك الأثناء، لم أفعل شيئاً سوى التقيؤ، مراراً وتكراراً. حتى بعدما بدا لي أنه لا يوجد شيء لأُخرجه، واصلت التقيؤ. وفي النهاية، حمل الضابط المنغولي الشبيه بالدب جلد جذع ياماموتو الذي سلخه ببراعة وعرضه على الجميع. حتى الحلمتين كانتا سليمتين. لم أر في حياتي شيئاً بمثل تلك الفظاعة. أخذ أحدهم الجلد منه ونشره ليجف بالطريقة التي قد تُجفف بها ملاءة. كل ما بقي على الأرض كان جثة ياماموتو، التي استحالتكتلة من اللحم الدامي ليس بها أي أثر لجلد. المنظر الأكثر إيلاماً كان وجهه. العينان بيضاوان جاحظتان من كتلة اللحم الأحمر. والفم المفتوح على اتساعه، بأسنانه البادية، كأنه يصرخ. وحفرتين صغيرتين كانتا كل ما تبقى من أنفه. وكانت الأرض بركة من الدماء.

بصق الضابط الروسي على الأرض ونظر إليّ. ثم أخذ منديلاً من جيبه ومسح فمه. «لم يكن الرجل يعرف شيئاً، أليس كذلك؟» قال وهو يعيد المنديل إلى جيبه، وقد صار صوته متراخياً. «إن كان يعلم شيئاً، لتحدث. إنه أمر مؤسف. لكن على أي حال، كان الرجل محترفاً ومصيره ميتة شنيعة، إن طال الزمن أم قصُر. حسناً، ليس بوسعنا فعل شيء حيال ذلك. وإن كان هو لا يعلم شيئاً، فيستحيل أن تعرف أنت شيئاً».

وضع سيجارة بين شفتيه وأشعلها بعود ثقاب، وأردف: «مما يعني أنك لم تعد ذو فائدة لنا. لا تستحق التعذيب من أجل المعلومات، ولا الإبقاء عليك أسيراً. نريد إنهاء هذه المسألة بسرية مطلقة. وقد تكون هناك تعقيدات إذا ذهبنا بك إلى أولان باتور. أفضل ما يمكن فعله، بطبيعة الحال، هو وضع رصاصة في رأسك هنا والآن. ثم ندفنك أو نحرقك ونذر رمادك في نهر خلخا. ستكون هذه نهاية بسيطة للأمر برمته. ألا تتفق معي؟» ثبت عينيه على عيني. فواصلت التظاهر بأنني لا أفهمه. «أفترض أنك لا تتحدث الروسية. إنني أهدر وقتي بقول هذا. آه، حسناً. ربما من الأفضل أن أحادث نفسي. لذلك اسمعني، على أي حال، لديّ خبر جيد لك. قررت ألا أقتلك. انظر للأمر كأنه طريقتي الخاصة في التعبير عن ندمي لقتلي صديقك بلا طائل، رغم أنني لم أكن أرغب في ذلك. حصلنا جميعنا على كفايتنا من القتل فيهذا الصباح. مرة واحدة في اليوم أكثر من كافية.

إذاً، لن أقتلك. بدلاً من ذلك، سأمنحك فرصة للنجاة. إذا سار كل شيء بشكل جيد، فقد تتمكن من الخروج من هذا المأزق حياً. وفرص حدوث ذلك ليست جيدة، بالطبع. وربما تكون معدومة. لكن الفرصة هي فرصة. على الأقل إنها أفضل بكثير من التعرض للسلخ حياً. ألا تتفق معي؟»

رفع يده واستدعى الضابط المنغولي. كان الرجل يغسل مديته بعناية من إحدي حافظات المياه، وقد انتهى لتوه من شحذها. نشر الجنود قطعاً من جلد ياماموتو وكانوا يقفون إلى جوارها، ويناقشون أمراً ما. بدوا كأنهم يتبادلون الآراء حول أساليب

السلخ. أدخل الضابط المنغولي مديته في غمدها ووضعها في جيب معطفه قبل أن يقترب منا. حدق إلى وجهي برهة، ثم التفت إلى زميله الضابط. فقال له الروسي عبارات منغولية مقتضبة، فأومأ الرجل، دون أن يطرأ تغيير على تعابير وجهه. ثم جاء جندي بحصانين لهما.

قال لي الروسي: «سنعود إلى أولان باتور الآن. أكره أن أعود خالي الوفاض، لكن ليست باليد حيلة. تفوز أحياناً، وتخسر أحياناً. آمل أن تعود إليّ شهيتي بحلول وقت العشاء، لكنني أشك في ذلك».

امتطيا حصانيهما وغادرا. أقلعت الطائرة وابتعدت حتى تحولت إلى نقطة فضية في السماء الغربية، ثم اختفت تماماً. وصرت وحيداً مع الجنود المنغوليين وخيولهم.

وضعوني على حصان وقيدوني إلى السرج. ثم تحركنا صوب الشمال. ظل الجندي الذي يسير أمامي يغني لحناً رتيباً بصوت يمكن سماعه بالكاد. وعدا عن ذلك، لم نكن نسمع سوى أصوات حوافر الخيول على الرمال. لم تكن لدي فكرة عن المكان الذي يأخذونني إليه، أو عما سيفعلونه بي. كل ما كنت أعرفه هو أنني كنت، بالنسبة لهم، مجرد كائن غير ضروري، لا قيمة له. ظللت أردد كلمات الضابط الروسي في ذهني. قال إنه لن يقتلني. لن يقتلني، لكن فرص نجاتي تكاد تكون معدومة. ما الذي قد يعنيه هذا؟ كانت كلماته أكثر غموضاً من أن أستوعبها بأيطريقة. ربما سوف يستخدموني في لعبة ما. لن يطلقوا سراحي ببساطة.

لكن على الأقل لم يقتلوني. على الأقل لم يسلخوني حياً مثل ياماموتو. قد لا أتمكن من تجنب القتل في النهاية. لكن ليس *بتلك* الطريقة. كنت حياً، وما أزال أتنفس. وإن كان ما قاله الضابط الروسي صحيحاً، فلن أُقتل على الفور. وكلما زاد الوقت الممتد بيني وبين موتي، زادت فرص نجاتي. قد تكون فرصة ضئيلة، لكن لم يكن أمامي خيار سوى التشبث بها.

ومن ثم، ودون أي مقدمات، برَقَت في ذهني كلمات العريف هوندا.ذلك التكهن الغريب بأنني لن أموت بعيداً عن اليابان. حتى وأنا أجلس على ذلك الحصان، مقيداً إلى السرج، وجلد ظهري العاري يحترق تحت شمس الصحراء، ظللت أجترّ كل كلمة قالها لي، وأتأمل تعابيره، ونبرة صوته، ووقع كل كلمة. وقررت أن أصدّقه من أعماق قلبي. لا، لا. لن استسلم وأموت في مكان كهذا! سأغادر هذا المكان حياً! وسوف تطأ قدماي تراب موطني مجدداً!

سرنا شمالاً ساعتين أو أكثر. وتوقفنا بالقرب من رابية تعبدية لبوذية التبت. ترجل الرجال وحلوا وثاقي. وقادني اثنان منهم، وهما يسنداني من كل جانب، إلى مكان قريب. ظننت أن هذا هو المكان الذي سأُقتل فيه. كانت ثمة بئر محفورة، فوهتها محاطة بحاجز حجري بارتفاع ثلاثة أقدام. جعلوني أجثو على ركبتيّ بجانبه، وأمسكوا بعنقي من الخلف، وأرغموني على النظر إلى داخل البئر. ولم أر شيئاً في الظلام. أخذ ضابط الصف ذو الحذاء العسكري اللائق حجراً بحجم قبضة اليد وألقاه داخل البئر. مر بعض الوقت قبل أن نسمع الصوت الجاف لارتطام الحجر برمل.

إذاً من الواضح أن البئر جافة. لا بد أنها جفت قبل وقت طويل بفعل تحركات طبقات المياه تحت الأرض. وبالنظر إلى الزمن الذي استغرقه الحجر للوصول إلى قاع البئر، بدت لي عميقة للغاية.

نظر ضابط الصف إليّ بابتسامة عريضة. ثم أخذ مسدس آلي ضخم من الجراب الجلدي المعلق بحزامه. وأطلق صمام الأمان، ووضع رصاصة داخل المسدس، محدثاً صوتاً عالياً. ثم صوب فوهة المسدس إلى رأسي.

ظل على تلك الوضعية مدة طويلة،ولم يجذب الزناد. ثم خفض المسدس ببطء، ورفع يده اليسرى، مشيراً ناحية البئر. حدقت إلى المسدس في قبضته، وأنا ألعق شفتي الجافتين. ما كان يحاول قوله لي هو الآتي: *عليّ أن أختار أحد مصيرين. يمكنني أن أدعه يطلق عليّ النار عندئذٍ، وأموت فحسب، وننتهي من الأمر. أو يمكنني أن أقفز إلى داخل البئر.* ولأنها كانت عميقة للغاية، إذا سقطت بشكل سيئ، قد أموت على الفور، وإلا فإنني سوف أموت ببطء في قعر حفرة مظلمة. أدركت أخيراً أن هذه هي الفرصة التي حدثني الضابط الروسي عنها. أشار ضابط الصف المنغولي إلى الساعة التي أخذها من ياماموتو ورفع أصابعه الخمسة. كان يمنحني خمس ثوان لأقرر. وعندما وصل لثلاثة، تقدمت إلى حاجز البئر، وقفزت. لم يكن أمامي خيار. كنت آمل أن أتمكن من التشبث بجدار البئر وأتسلق نزولاً. لكنه لم يمنحني وقتاً لذلك. أخطأت يداي الجدارن، وهويت للأسفل.

بدا لي أنه مر وقت طويل جداً قبل أن أرتطم بالقاع. في الواقع، قد يكون سقوطي قد استغرق بضع ثوانٍ. لكنني أتذكر أنه خطرت لي أشياء كثيرة في طريقي للأسفل. فكرت ببلدتي، البعيدة. وفكرت بالفتاة التي نمت معها مرة واحدة فقط قبل أن أُنقل إلى الخارج. وفكرت بوالديّ. وأتذكر شعوري بالامتنان لأنني لدي شقيقة صغرى وليس شقيق. حتى إذا قُتلتُ، فلن يكون ثمة داعٍ للقلق من تجنيدها في الجيش. وفكرت بكعك الأرز المغلف بورق السنديان. ثم ارتطمت بالأرض وفقدت الوعي للحظة. شعرت كما لو أن كل الهواء بداخلي انفجر خارجاً من خلال جدران جسدي. سقطت محدثاً صوتاً مكتوماً، مثل كيس رمل.

أعتقد أنني فقدت الوعي للحظة قصيرة بالفعل بسبب الارتطام. فعندما استعدت وعيي، شعرت برذاذٍ ما يتساقط عليّ. ظننت أنه مطر في بادئ الأمر. لكنني كنت مخطئاً. فقد كان بولاً. كان الجنود المنغوليين جميعهم يتبولون عليّ في قاع البئر. نظرت إلى الأعلى، فرأيت أشباحهم البعيدة فوقي، يتناوبون على الاقتراب من الحافة والتبول. أحسست بعدم واقعية غريبة في المشهد، كأنها هلوسة بفعل مخدر. لكنه كان واقعاً. كنت بالفعل في قاع البئر، وكانوا يمطرونني ببول حقيقي. وبعد فراغهم، سلط عليّ أحدهم ضوء مصباحه، وسمعتهم يضحكون ثم اختفوا من حافة البئر. بعد ذلك، غرق كل شيء في صمت عميق.

ظننت أنه من الأفضل أن أظل مستلقياً في مكاني بعض الوقت. لكن بعد مرور عشرون دقيقة، ثم ثلاثون، (ما استطعت تخمينه بلا ساعة) لم يعودوا. بدا أنهم ذهبوا

وتركوني. تُركت وحيداً في قاع بئر وسط الصحراء. وعندما تيقنت أنهم لن يعودوا، قررت أن أتفقد نفسي لأرى ما إذا كنت قد أُصِبت. وفي ذلك الظلام الحالك، لم تكن المهمة سهلة. لم يكن بمقدوري رؤية جسدي. ولم أستطع أن أتأكد بعينيّ من حالة جسدي. لم يكن أمامي سوى اللجوء إلى إدراكي، لكنني لم أكن موقناً من أن الإدراكات التي اختبرتها في الظلام كانت دقيقة. شعرت بأني أُخدع، وأُضلَّل. كان شعوراً في غاية الغرابة.

لكن شيئاً فشيئاً، وبانتباه شديد للتفاصيل، بدأت أستوعب الوضع الذي كنت فيه. أول ما أدركته هو أن الحظ حالفني إلى درجة بعيدة. كان قاع البئر رملياً ورخواً نسبياً، وإلا لتكسّرت جميع عظامي بعد سقوطي من تلك المسافة. أخذت نفساً عميقاً وحاولت أن أتحرك. حاولت أن أحرك أصابعي أولاً. استجابت، لكنها استجابة واهنة. ثم حاولت أن أتخذ وضعية الجلوس، لكنني لم أقدر على ذلك. شعرت كما لو أن جسدي فقد كل إحساس. كان عقلي في تمام الوعي، لكن ثمة خطب في الاتصال بين عقلي وجسدي. يقرر عقلي أن يفعل شيئاً، لكنه غير قادر على تحويل الفكرة إلى نشاط عضلي. استسلمت وبقيت مستلقياً في الظلام بصمت.

ليست لدي فكرة عن المدة التي ظللت خلالها ساكناً. لكن شيئاً فشيئاً، بدأ إدراكي يعود إلي. ومع تعافي إدراكي، وعلى نحو طبيعي، داهمني الإحساس بالألم. ألم حاد. كُسِرت ساقي بلا شك، وربما خُلعت كتفي، وربما كُسرت أيضاً،إن لم أكن محظوظاً. ظللت مستلقياً، أكابد الألم. ومن دون أن أشعر، كانت الدموع تنهمر على

خديّ. دموع الألم، وفوق ذلك، دموع اليأس. لا أحسب أنك ستفهم ما كنت أعانيه. الوحدة المطلقة، وشعور اليأس. أن تُترك وحدك في بئر عميقة وسط صحراء عند نهاية العالم، علاوةً على الآلام الحادة في الظلام الدامس. بلغت درجة الندم لأن ضابط الصف المنغولي لم يطلق النار علي فحسب. إذا قتلني بتلك الطريقة، فعلى الأقل لكانوا يعرفون أنني مت. لكن إذا مت هنا، فسأموت وحيداً حقاً. ميتة لا تهم أحداً، ميتة صامتة.

كنت أسمع صوت الريح من وقت لآخر، وهي تهب على سطح الأرض، وتصدر صوتاً غريباً عند فوهة البئر، مثل أنين امراة تبكي في عالم بعيد، عالم متصل بعالمنا، بممر ضيق، يصلني من خلاله صوت المرأة، على فترات طويلة متقطعة وغير منتظمة. تُركت وحيداً تماماً في صمت عميق وظلام كثيف.

مددت يدي، مكابداً الألم، محاولاً تلمّس الأرض الترابية فيما حولي. وكان قاع البئر مسطحاً، وضيقاً. ربما بقطر خمسة أو خمسة أقدام ونصف. وأنا أتحسس الأرض، لامست يدي فجأة شيئاً صلباً وحاداً. فجذبت يدي بخوف غريزي. ثم مددت يدي ثانية، ببطء وحذر، ناحية الشيء. ومجدداً لامست يدي الشيء الحاد. حسبته غضن شجرة في بادئ الامر. لكن سرعان ما أدركت أنني ألمس عظاماً.ليست عظاماً بشرية، بل عظام حيوان صغير، متناثرة عشوائياً. إما بمرور الوقت، أو بسبب سقطتي. ولم يكن هناك شيء آخر في قاع البئر. رمل فحسب، ناعم وجاف.

بعدها مررت راحة يدي على الجدار. بدا مشيداً من حجارة مسطحة. مهما بلغت درجة حرارة السطح خلال النهار، لا تصل الحرارة إلى هذا العالم الواقع تحت الأرض. كانت الحجارة باردة ببرودة لاسعة قليلاً. مررت يدي على الجدار مجدداً، متفحصاً الفجوات التي تفصل بين الحجارة، قائلاً لنفسي، *إذا عثرت على موطئ قدم، فربما أتمكن من التسلق إلى السطح*. لكن اتضح لي أن الفجوات ضيقة، وفي حالتي المتضعضعة، بدا لي التسلق مستحيلاً تماماً.

سحبت نفسي إلى جوار الجدار، بعد مجهود خارق، واستندت إليه جالساً. كل حركة جعلت ساقي وكتفي ينبضان بالألم، كما لو أنهما طُعنا بمئات الإبر السميكة. وبعد ذلك، لبعض الوقت، كل نفس أتنفسه كان يشعرني بأن جسدي قد يتشظى. ثم تحسست كتفي وأدركت أنه ساخن ومتورم.

لا أدري مقدار الوقت الذي مر بعد ذلك. لكن في مرحلة ما، حدث شيء ما كنت لأتخيله أبداً. سطع ضوء الشمس منخلال فوهة البئر كأنه نوع من الوحي. وفي تلك اللحظة، تمكنت من رؤية كل ما حولي. امتلأت البئر بفيض من الضوء الباهر، يكاد يكون خانقاً، وكنت أتنفس بالكاد. تلاشى البرد والظلام في لمح البصر. وسربل الضوء الدافئ الرقيق جلدي العاري. حتى الألم الذي كنت أشعر به، بدا لي أنه خفّ بتأثير ضوء الشمس، الذي أضاء عظام الحيوان الصغير البيضاء إلى جواري. تلك العظام، التي قد تكون نذير شؤم لمصيري الوشيك، بدت لي تحت ضوء الشمس كرفيق معزّي. تمكنت من رؤية حجارة الجدار المحيط بي. وطيلة مدة سطوع

الشمس، كنت قادراً على نسيان خوفي، وألمي، ويأسي. جلست غارقاً في فيض الضوء في ذهول تام. ثم تلاشى الضوء، كما ظهر فجأة. واكتنف الظلام الكثيف ما حولي مجدداً. كانت المدة قصيرة للغاية. لا بد أنها، وفقاً لمعايير الزمن المعروفة، دامت لعشر أو خمسة عشر ثانية على الأكثر. وذلك بلا شك بسبب زاوية سقوط الأشعة. هذه هي المدة التي يسقط فيها الضوء عمودياً إلى قاع البئر في كل يوم. اختفى فيض الضوء قبل أن أبدأ استيعاب ما يعنيه.

بعد تلاشي الضوء، وجدتني في ظلام أشد حلكة من ذي قبل. لم أستطع أن أتحرك قيد أنملة. ولم يكن لدي ماء أو طعام، ولا أي قطعة قماش لأغطي بها جسدي. مرت فترة بعد الظهر الطويلة. وحلّ الليل. وعندما انخفضت الحرارة، لم أتمكن من النوم. كان جسدي يتوق للنوم، لكن البرد ظل يسلع جسدي كآلاف الأشواك. شعرت كما لو أن مركز الحياة بداخلي يتقلص ويموت شيئاً فشيئاً. وفوقي، رأيت النجوم مجمدة في السماء، بأرقام خرافية. حدقت إليها، وظللت أشاهدها وهي تزحف ببطء. ساعدتني حركتها على التيقن من أن الزمن يواصل انسيابه. غفوت برهة قصيرة، وأيقظني البرد والألم. ثم غفوت مدة أطول قليلاً، واستيقظت مجدداً.

حل الصباح أخيراً. وبدا ضوء رؤوس النجوم الحادة يخبو تدريجياً. لم تختف النجوم تماماً. تشبثت بوجودها وهي ترسل أضواءً باهتة تكاد لا تُرى. ولأخفّف من ظمأي، لعقت ندى الصباح العالق بالجدار الحجري. كانت كمية الماء ضئيلة للغاية،

بطبيعة الحال، لكنها بدت كهِبة من السماء. ثم خطر لي أنني لم أتناول طعاماً أو ماءً ليوم كامل. ومع ذلك لم أشعر بأي جوع.

بقيت في مكاني، لا أحرك ساكناً، في قاع البئر. فهذا كل ما كان يمكنني فعله. كان شعوري بالوحدة واليأس عميقاً لدرجة فقداني القدرة على التفكير. ظللت جالساً، لا أفعل شيئاً ولا أفكر بشيء. لكنني، دون وعي مني، كنت أنتظر ضوء الشمس، ذلك الفيض الباهر من الضوء الذي غمر قاع البئر برهة وجيزة. لا بد أنها ظاهرة تحدث عند منتصف النهار، عندما تبلغ الشمس أعلى نقطة في السماء، ويسقط ضوؤها على سطح الأرض بزاوية قائمة. انتظرت قدوم الضوء، ولا شيء آخر. إذ لم يكن ثمة شيء آخر أنتظره.

مر وقت طويل للغاية، كما بدا لي. وفي مرحلة ما، غرقت في النوم. وعندما استشعرت وجود شيء واستيقظت، وجدت الضوء يملأ المكان. أدركت أنني أغوص في ذلك الضوء الغامر مجدداً. ودون وعي مني تقريباً، بسطت يدي وتلقيت الشمس براحتي يدي. كان الضوء أقوى بكثير من المرة الأولى. واستمر مدة أطول، أو على الأقل هذا ما شعرت به. انهمرت الدموع مني، وشعرت كما لو أن جميع سوائل جسدي قد تتحول إلى دموع وتتدفق من عيني، وأن جسدي نفسه قد يذوب ويتلاشى على هذا النحو. حتى الموت لن يكون تهديداً، إذا وقع بين جنبيّ هذا الضوء الرائع. وفي الواقع، شعرت بأنني *أريد* أن أموت. اجتاحني شعور غامر بالتوحُّد. نعم، هذا

هو. كان المعنى الحقيقي للحياة كامناً في ذلك الضوء الذي استمر ثوانٍ لا يهم عددها. شعرت بأنني يجب *أن أموت* في ذلك المكان، وفي تلك اللحظة.

لكن، بطبيعة الحال، قبل حدوث أي شيء، اختفى الضوء، وكنت ما أزال هناك، قابع في قاع تلك البئر البائسة. ثم أعاد الظلام والبرد إحكام قبضتيهما عليّ، كأنما ليؤكدا أن الضوءلم يوجد قط. ظللت رابضاً في مكاني، فترة طويلة، ووجهي مبلل بالدموع. لم أكن قادراً على فعل أي شيء إطلاقاً، أو حتى مجرد التفيكر. وغير قادر على الشعور حتى بوجودي الجسدي، كأنما سحقتني قوة هائلة. كنت جثة جافة، قشرة حشرة ملقاة. لكن بعد ذلك، ومرة أخرى، في مكانٍ ما من تلافيف دماغي، خطرت لي نبوءة العريف هوندا. إنني لن أموت بعيداً عن اليابان. والآن، بعد ظهور الضوء واختفاءه، وجدتني قادر على تصديق نبوءته. صدقتها في تلك اللحظة لأنني لم أكن قادراً على الموت في مكان كان ينبغي أن أموت به، وفي زمان كان ينبغي أن أموت فيه. ليس الأمر أنني لم أكن أريد الموت، بل لم أستطع أن أموت. أتفهم ما أقوله يا سيد أوكادا؟ أياً كانت هبة السماء التي استمتعت بها حتى تلك اللحظة، فقد فقدتها للأبد».

نظر الملازم ماميا إلى ساعته عندما بلغ هذا الحد من قصته.

ثم تابع بلطف: «وكما ترى، هأنذا». وهز رأسه كأنما يحاول إبعاد خيوط خفية لذكرى ما.«تماماً كما قال السيد هوندا، لم أمت بعيداً عن اليابان. ومن بيننا نحن الأربعة، أنا الأطول عمراً».

أجبتُ بإيماءة.

«أرجوك سامحني لأنني أسهبت في الحديث. لا بد أنه كان حديثاً مملاً لك. وجعلتك تستمع لعجوز يثرثر عن الماضي». غيّر الملازم ماميا وضعية جلوسه على الأريكة. «آه، سأتأخر عن قطاري إذا بقيت أكثر من هذا».

سارعت لاستبقائه قائلاً: «أرجوك لا تختم قصتك هنا. ماذا حدث بعد ذلك؟ أريد سماع بقية القصة».

نظر إليّ هنيهة.

سألني: «وما العمل إذا؟ سأتأخر حقاً. لمَ لا تتمشى معي إلى محطة الحافلة؟ يمكنني أن ألخِّص لك ما حدث سريعاً في طريقنا».

غادرت المنزل معه وسرنا إلى محطة الحافلة.

«أنقذني العريف هوندا في صبيحة اليوم الثالث. كان قد استشعر أن المنغوليين اكتشفوا مكاننا، فتسلل إلى خارج الخيمة، وظل مختبئاً طوال ذلك الوقت. وكان قد أخذ معه الوثيقة من حقيبة ياماموتو. وقد فعل هذا لأن أولويتنا كانت هي الحرص

على عدم وقوع الوثيقة في أيدي الأعداء، أياً كانت التضحية التي علينا بذلها. لا شك أنك تتساءل، إذا أدرك هوندا أن المنغوليين قادمون، فلماذا هرب وحده بدلاً من إيقاظ بقيتنا حتى نتمكن من الفرار معاً. حقيقة الأمر البسيطة هي أننا لم يكن لدينا أمل في النجاة في مثل ذلك الوضع. كانوا يعرفون أننا هناك، وكنا في منطقتهم. ويفوقوننا عدداً وعتاداً. ولكان من السهل عليهم أن يعثروا علينا وويقتلونا ويأخذوا الوثيقة. ونظراً لهذا الوضع،لم يكن أمام العريف هونداً خيار سوى الهروب وحده.لأُعتُبرت فعلته هذه، في ميدان المعركة،حالة فرار من أمام العدو. لكن في مهمة خاصة كمهمتنا، فإن الأهم هو سعة الحيلة.

رأى هوندا كل ما حدث. شاهدهم يسلخون ياماموتو. وشاهد الجنود المنغوليين يأخذونني معهم. لكن لم يعد لديه حصان، لذا لم يتمكن من تعقبنا مباشرة. وكان عليه أن يتبعنا سيراً على قديمه. انتشل المؤن الفائضة التي دفنّاها في الصحراء، ودفن الوثيقة هناك. ثم شرع في البحث عني. وبذل مجهوداً خارقاً ليجدني في أسفل البئر. فهو لم يكن يعرف حتى الاتجاه الذي سلكناه.

سألته: «كيف عثر على البئر؟»

قال الملازم ماميا: «لا أدري. لم يتحدث كثيراً بهذا الشأن. يمكنني القول إنه عرف فحسب. وعندما وجدني، مزق ملابسه وجعل منها حبلاً طويلاً. كنت فاقداً الوعي بحلول ذلك الوقت، الأمر الذي صعّب عليه رفعي للأعلى. ثم تمكن من

العثور على حصان، ووضعني عليه. وسار بي عبر الكثبان، وعبر النهر، إلى مركز مراقبة جيش منشوكو. حيث عالجوا جراحي وأركبوني شاحنة أرسلتها الرئاسة. وأُدخلت إلى المستشفى في هيلار».

«ماذا حدث لتلك الوثيقة، أو الرسالة، أو أياً كانت؟»

«إنها ما تزال هناك على الأرجح، قابعة تحت التراب بالقرب من نهر خلخا. لم نفكر قط، أنا والعريف هوندا، في تجشم كل تلك الصعاب والرجوع لإحضارها. كما لم نجد أي سبب يدعونا لذلك. خلصنا إلى أن مثل ذلك الشيء ما كان ينبغي له أن يوجد في المقام الاول. نسّقنا قصصنا استعداداً لتحقيق الجيش. وقررنا أن نصرّ على أننا لم نسمع شيئاً عن أي وثيقة. وإلا لحمّلونا مسؤولية عدم إحضارها. احتجزونا في غرفتين منفصلتين، تحت حراسة مشددة. زاعمين أن ذلك من أجل العناية الطبية، واستجوبونا يومياً. ظل الضباط من أصحاب الرتب الرفيعة يأتون إلينا ويطلبوا منا أن نسرد قصصنا المرة تلو الأخرى. وكانت أسئلتهم دقيقة وفي غاية الذكاء.

لكن بدا لي أنهم صدقونا. رويت لهم أدق تفاصيل ما مررت به. وكنت حريصاً على إغفال كل ما يمت إلى الوثيقة بصلة. وعندما عرفوا منا كل شيء، حذروني أن هذه مسألة في غاية السرية، ولن تظهر في سجلات الجيش الرسمية. وأنني يجب ألا أتحدث عنها أمام أي أحد أبداً، وإلا فسأعاقب بقسوة. وبعد أسبوعين، أُرسلت إلى مركزي الأول، وأعتقد أن هوندا أيضاً عاد إلى وحدته».

قلت: «ثمة أمر واحد ما زال غامضاً بالنسبة لي. لماذ كلفوا أنفسهم عناء إحضار السيد هوندا من وحدته من أجل هذه المهمة؟»

«لم يخبرني الكثير عن ذلك. على الأرجح أنه مُنع من إخبار أي أحد. وأظن أنه اعتقد أنه من الأفضل لي ألا أعرف. لكن من خلال محادثاتي معه، أعتقد أنه كانت ثمة علاقة شخصية من نوع ما بينه وبين الرجل المدعو ياماموتو. أمر له علاقة بقواه الخاصة. كنت غالباً ما أسمع أن الجيش لديه وحدة مخصصة لدراسة الظواهر الغامضة. ويُزعم أنهم جمعوا أصحاب القوى الروحية والعقلية الخارقة من جميع أنحاء الدولة، وأجروا عليهم تجارب. أظن أن السيد هونداً التقى ياماموتو في مناسبة متصلة بذلك المشروع. مهما يكن، دون تلك القدرات، لما تمكن السيد هوندا من العثور عليّ في البئر واصطحابي إلى موقع مركز جيش منشوكو. لم تكن معه خريطة أو بوصلة، ومع ذلك توجهنا رأساً إلى هناك دون أدنى تردد. ويقول الحس العام إن هذا أمر مستحيل. كنت رسام خرائط محترف، وكنت أعرف تضاريس المنطقة معرفة جيدة، لكن كان يستحيل عليّ أن أفعل ما فعله. قدرات السيد هوندا هذه، على الأرجح، هي سبب بحث ياماموتو عنه».

وصلنا إلى محطة الحافلة، وانتظرنا.

«بعض الأشياء ستظل ألغازاً دوماً بالطبع. توجد أشياء كثيرة ما أزال غير قادر على فهمها. مازلت أتساءل عن هوية ذلك الضابط المنغولي الذي قابلنا في

الصحراء، وأتساءل عما كان ليحدث إذا تمكنا من إحضار تلك الوثيقة إلى الرئاسة. لماذا لم يتركنا ياماموتو عند الضفة اليمنى من نهر خلخا ويعبر وحده؟ لتمكن من التحرك بحرية أكبر. ربما كان يخطط لاستخدامنا كطُعم للجنود المنغوليين حتى يتمكن من الهروب وحده. هذا أمر وارد بلا شك. ربما أدرك العريف هوندا هذا منذ البداية، ولهذا اتخذ موقف المتفرج عندما فتك به المنغوليون.

على أي حال، مرت فترة طويلة بعد ذلك قبل أن تسنح لي الفرصة لمقابلة السيد هوندا مجدداً. أُبعدنا عن بعضنا منذ لحظة وصولنا إلى هيلار. ومُنعنا من محادثة ورؤية بعضنا البعض.

أردت أن أشكره مرة أخيرة، لكنهم جعلوا ذلك مستحيلاً. أُصيب في معركة نومونهان وأُعيد للديار. بينما بقيتُ في منشوريا حتى نهاية الحرب، فأُرسلت بعدها إلى سبيريا. ولم أتمكن من إيجاده إلا بعد عدة سنوات، بعدما عدت إلى الديار من معكسر سيبريا. تمكنا من اللقاء بضع مرات بعد ذلك، وتراسلنا. لكن بدا لي أنه يتجنب الحديث عما حدث لنا عند نهر خلخا. وأنا نفسي لم أكن متحمساً لمناقشة ما حدث أيضاً. فبالنسبة لكلينا، كانت التجربة أهول من أن تحتمل. وتشاركنا مشاعرنا تجاهها *بعدم الحديث عنها*. هل يبدو لك هذا منطقياً؟

تحول الأمر إلى قصة طويلة للغاية، لكن ما أردت أن أوصله لك هو شعوري بأن حياتي الحقيقية ربما تكون انتهت بالنسبة لي في قاع تلك البئر في صحراء

منغوليا الخارجية. وتحت الضوء الساطع الذي غمرني عشر أو خمسة عشرة ثانية فحسب، شعرت كما لو أنني استنفدت مركز حياتي، ولم يبق شيء. لهذه الدرجة بلغ تأثير غموض ذلك الضوء عليّ. لا يمكنني أن أقدم لك تفسيراً واضحاً، لكن بكل الصراحة والبساطة اللتان يمكنني أن أعبر بها عن الأمر، أياً كان ما واجهته، وأياً كان ما اختبرته منذ تلك اللحظة، لم أعد أشعر بأي شيء في أعماق قلبي. حتى في مواجهة وحدات الدبابات السوفيتية الوحشية. وحتى عندما فقدت يدي اليسرى. وحتى في معسكرات الاعتقال السوفيتيية الجحيمية. كل ما شعرت به هو نوع من الخَدَر. قد يبدو من الغريب أن أقول هذا، لكن أياً من ذلك لم يهمني. كان شيء بداخلي قد مات مسبقاً. ربما، كما شعرت عندئذٍ، كان ينبغي أن أموت في ذلك الضوء. وأتلاشى ببساطة. كان ذلك هو موعد موتي. لكن كما تنبأ السيد هوندا، لم أمت هناك. أو ربما ينبغي لي أن أقول *لم أستطع* أن أموت هناك.

عدت إلى اليابان وقد فقدت يداً، واثني عشر عاماً من عمري. وعندما وصلت إلى هيروشيما، كان والديّ وشقيقتي قد ماتوا منذ زمن. كانوا قد وجدوا عملاً لشقيقتي في مصنع، حيث كانت عندما سقطت القنبلة. كان أبي في طريقه لرؤيتها في تلك اللحظة، وفقد حياته أيضا. وقد جعلت الصدمة أمي طريحة فراش الموت. وصلت أخيراً عام 1947. كما قلت لك سابقاً، الفتاة التي خطبتها سراً الآن متزوجة برجل آخر، وأنجبت طفلين. ووجدت القبر الخاص بيفي المقبرة. فلم يبق لي شيء. وشعرت بالخواء التام. وعلمت أنه ما كان ينبغي لي أن أعود إلى هناك. أتذكر بالكاد

كيف كانت حياتي منذ ذلك الوقت. صرت أستاذاً للعلوم الاجتماعية، أدرِّس الجغرافيا والتاريخ في المدارس الثانوية. لكنني لم أكن حياً بالمعنى الحقيقي للكملة. كنت أؤدي المهام الرتيبة التي توكل إليّ، مهمة تلو الأخرى. لم أحظ بصديق حقيقي واحد، ولا روابط إنسانية بتلاميذي. لم أحب أحداً قط. ولم أعد أعرف معنى أن تحب شخصاً آخر. كنت أغمض عيني فأرى ياماموتو يُسلخ حياً. حلمت بذلك مراراً وتكراراً. يزيلون جلده عن جسده ويحولونه إلى كتلة من اللحم. كنت أسمع صرخاته التي تفطر الفؤاد. كما حلمت بنفسي أتعفن تدريجياً، حياً، في قاع البئر. يتراءى لي أحياناً أن هذا هو ما حدث حقاً وأن حياتي هنا حلم.

غمرتني البهجة عندما قال هوندا لي، عند ضفة نهر خلخا، إنني لن أموت بعيداً عن اليابان. لم تكن مسألة تصديق أو عدم تصديق. أردت أن أتشبث بشيء عندئذٍ، أي شيء. كان السيد هوندا يعلم هذا على الأرجح، وقال لي ما قاله ليريحيني. لكن لم يكن لي أي نصيب من البهجة. فبعد عودتي إلى اليابان عشت مثل قوقعة خالية. والعيش مثل قوقعة خالية ليس عيشاً حقيقةً. أياً كان عدد الأعوام. لا ينجب قلب وجسد قوقعة خالية أكثر من حياة قوقعة خالية. هذا ما آمل أن أكون قد أوضحته لك ياسيد أوكادا».

«أيعني هذا أنك لم تتزوج منذ عودتك إلى اليابان؟»

«لا، بالطبع. ليست لدي زوجة، أو والدين، أو أقارب. أنا وحيد تماماً».

بعدما ترددت للحظة، سألته: «هل تشعر بالأسف لأنك سمعت نبوءة السيد هوندا؟»

الآن حان دور الملازم ماميا ليتردد. بعد لحظة من الصمت، نظر إلى وجهي مباشرة وقال: «ربما. ربما ما كان ينبغي له أن يقول تلك الكلمات. وربما ما كان ينبغي لي أن أسمعها. فكما قال السيد هوندا عندئذٍ، إن قدَر المرء هو شيء تنظر إليه بعد وقوعه، وليس شيئاً يُعرف مقدماً. لكن هذا ما أعتقده: لا فرق في كلتا الحالتين. كل ما أفعله الآن هو الوفاء بالتزامي بالاستمرار في الحياة».

وصلت الحافلة فحيّاني الملازم ماميا بانحناءة عميقة. ثم اعتذر لي لأنه أهدر وقتي الثمين.

قال: «حسناً إذاً، سأذهب الآن. شكراً على كل شيء. أنا سعيد على أي حال لأنني تمكنت من تسليمك اللفافة التي تركها لك السيد هوندا. يعني هذا أن مهمتي انتهت أخيراً. ويمكنني العودة ناعم البال».

مستخدما يده اليمني ويده الصناعية، أخرج بخفة العملات المعدنية المطلوبة، ووضعها في صندوق الأجرة.

ظللت واقفاً في مكاني أشاهد الحافلة وهي تتوارى عند المنعطف. بعدها شعرت بفراغ غريب بداخلي. نوع من الشعور باليأس، كما قد يحسه طفل تُرك وحيداً في حي غريب.

ثم عدت إلى المنزل. وجلست على أريكة صالة الجلوس، وفتحت اللفافة التي تركها السيد هوندا كتذكار لي. بذلت جهداً وأنا أزيل طبقة تلو الأخرى من ورق التغليف المحكم، حتى ظهر لي صندوق من الورق المقوّى المتين. كان صندوق هدية قنينة كَتي سارك فاخرة، لكنه كان أخف من أن تكون بداخله قنينة ويسكي. فتحته، ولم أجد شيئاً بداخله. كان فارغاً تماماً. كل ما تركه لي السيد هوندا كان صندوقاً فارغاً.

ـ انتهى الكتاب الأول ـ

من يخوض في عوالم الياباني هاروكي موراكامي يعلم مسبقا أنه أمام عمل ليس الغرض منه استقاء معنى ما، بل بالأحرى خوض تجربة قرائية مختلفة حيث يصبح المنطق خارج الحدود. و ما يميزه كمؤلف عن بقية كتاب بلده هو دمجه للثقافتين الشرقية و الغربية في مؤلفاته دون إهمال توظيف الطبيعة و رمزيتها كما نرى هنا مع طائر الزنبرك.

نتتبع تورو أوكادا في بحثه عن قطه المفقود قبل أن نجد ذواتنا تتبع بدورها الثيمات التي يطرحها هذا العمل القيم، فتارة نبحث عن معنى الهوية و كيف تكون رؤية ذواتنا المتعددة في الآخرين، و مدى تقبلنا لظهور البقعة العمياء. و تارة أخرى عن مدى اختلاف أنواع الألم في تجربة الفرد و فتحها لباب الروح.

كما ترسم الرواية بحرفية عالية التداخل الدقيق بين الظاهر والباطن، و انتظام دوران الزنبرك و التشظي، و النزاهة و الزيف.

و هي رغم سرياليتها لا تغفل تناولها لثيمة الواقع حيث الزمكان يكون في عوالم متوازية ما بين عالمي الوعي و اللاوعي، و ما بين ماضي الحرب العالمية الثانية و حاضر أحداث الشخصيات حتى تصير الحدود مبهمة بين الواقع و الحلم، فيمحو عنا مؤلفها وهم البدايات و تسلسل الأحداث. كذلك نرى كيف تتوازى قيمة العزلة المتمثلة في الشخصية الوجودية عند موراكامي و قيمة حب الآخرين و تقبلهم على اختلافهم.